الهيئة المصرية العامة للكتاب
سلسلة الجوائز



رواية

جوزيه ساراماجو

مسيرة الفيل

ترجمة: أحمد عبد اللطيف

الكاتب

- جوزيه ساراماجو
- كاتب برتغالى ولد عام ١٩٢٢ فى مدينة أريناجا البرتغالية.
- عمل فى مهن مختلفة كصانع أقفال وميكانيكى وصحفى ومترجم قبل أن يتفرغ للأدب تماماً.
- أصدر روايته الأولى "أرض الخطيئة" عام ١٩٤٧ ورغم الاحتفاء النقدى بها إلا أنه توقف عن الكتابة أكثر من عشرين عاماً أصدر بعدها نحو عشرين كتاباً جعلته واحداً من أهم الكتاب فى العالم.
- صدر له منها فى سلسلة الجوائز بالهيئة المصرية العامة للكتاب "الطوف الحجرى"، "الآخر مثلى"، "الذكريات الصغيرة"، "البصيرة"، "الكهف"، "انقطاعات الموت"، و"ثورة الأرض"، و"كتاب الرسم و الخط".

الجائزة

جائزة نوبل فى الآداب

أكبر جائزة فى العالم، وأعلى مرتبة من جميع التقديرات. تمنح فى فروعها المختلفة كل عام فى العاشر من ديسمبر، وهو تاريخ وفاة صاحبها الصناعى السويدى ومخترع الديناميت "ألفريد نوبل" الذى أسسها عام ١٨٩٥، كدعوة لتحقيق السلام فى العالم.
ومنذ عام ١٩٠١ أصبح العالم كله ينتظر توزيع الجائزة على الأدباء والعلماء ودعاة السلام، الذين يقومون بإنجازات أدبية وعلمية وخدمات اجتماعية نبيلة تهدف إلى رقى الإنسانية وتطورها.
وجائزة نوبل فى الآداب هى أرفع جائزة أدبية فى العالم، وهى تمنح لقمم الإبداع فى فروعه المختلفة: رواية.. شعر.. مسرح.
وأول من حصل عليها من العالم العربى الكاتب المصرى "نجيب محفوظ" عام ١٩٨٨.

مسيرة الفيل

ساراماجو، جوزيه.

مسيرة الفيل: رواية/ جوزيه ساراماجو؛ ترجمة: أحمد عبد اللطيف.ـ القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٠.

٢٥٦ ص؛ ٢٢ سم.

جوائز

تدمك ٢ ٦٠٢ ٤٢١ ٩٧٧ ٩٧٨

١ ـ القصص الإنجليزية.

أ ـ عبد اللطيف، أحمد (مترجم)

ب ـ العنوان .

رقم الإيداع بدار الكتب ١٦١٢٦/ ٢٠١٠

I. S. B. N 978 - 977 - 421 -602 - 2

ديوى ٨٢٣

مسيرة الفيل

جوزيه ساراماجو

رواية

ترجمة : أحمد عبد اللطيف



الهيئة المصرية العامة للكتاب

• الكتاب: مسيرة الفيل

Aviagem Do Elefante

• تأليف: جوزيه ساراماجو

José Saramago

• ترجمة: أحمد عبد اللطيف

• يصدر هذا الكتاب باللغة العربية بإذن خاص من المؤلف للهيئة المصرية العامة للكتاب.

• الطبعة الأولى ٢٠١٠.

• طبع فى مطابع الهيئة المصرية للعامة للكتاب.

إلى بيلار ، التى لم تتركنى للموت.

داخل القصر الملكى البرتغالى، بدأت صوب النمسا الخطوة الأولى لمسيرة الفيل الغريبة التى ننوى حكايتها، وكان ذلك عند ساعة التوجه للسرير تقريباً، رغم أن ذلك يتعارض مع رأى من لا يعرف أهمية الغرف فى حسن سير الإدارات العامة، سواء كانت حجرات مقدسة أم علمانية أم غير منتظمة الشكل . يتحتم علينا أن ندون أنه ليس محض صدفة أن نستخدم هنا هذه الكلمة غير المحددة، تقريباً . بهذه الطريقة، نبقى معفيين، بأناقة ظاهرة، من الدخول فى تفاصيل ذات طابع فيزيائى وفسيولوجى صلب بعض الشىء، ومضحك فى أغلب الوقت، بحيث لو وضعناه بحالته على الورق لأهان كاثوليكية دُن جوان الثالث المتشددة، ملك البرتغال والجرابيين ، كذلك السيدة كاتالينا النمساوية، زوجته، والجدة المستقبلية لدُن سيباستيان الذى سيذهب ليحارب فى القصر الكبير وسيلقى حتفه هناك فى أول معركة، أو المعركة الثانية، مع أن هناك من يؤكد أنه قضى نحبه جرّاء مرض فى

ليلة المعركة . بقول قاطع، نجد هنا ما قاله الملك للملكة فى البداية، أنا متردد يا سيدتى. فيما يا سيدى. فى الهدية التى قدمناها لابن عمك ماكسيميليانو منذ أربعة أعوام، يوم عرسه، دومًا ما بدت لى غير لائقة بأصله ومكانته، ولأنه الآن صار قريباً منا، فى بلد الوليد، كحاكم على إسبانيا، على قاب قوسين أو أدنى منا، أود أن أقدم له شيئاً ذا قيمة، شيئاً يلفت الانتباه، ما رأى سعادتك، سيدتى .

أرى أن وعاء القربان المقدس هدية طيبة ياسيدى، لقد لاحظتُ أن هذا الوعاء يتلقاه المُهدى إليه بكثير من الترحاب، وربما يرجع ذلك لقيمته المادية ومغزاه الروحى. لن تقدّر كنيستنا هذا التحرر، فلابد أنك مازلت تحتفظين فى ذاكرتك المعصومة بميول ابن عمك ماكسيميليانو التى اعترف بها لإصلاح البروتستانتيين التابعين للوثر، للوثر أم لكلفينوس، لم أتأكد من ذلك أبداً . فليحفظنا الرب، من إبليس، أنا لم أفكر فى ذلك من قبل، صاحت الملكة، وأشارت على نفسها بالصليب، يجب أن أعترف غداً فى الساعة الأولى. لماذا غداً على وجه التحديد يا سيدتى إن كنتم تعترفون فى كل الأيام، سأل الملك. بسبب الفكرة الفاحشة التى وضعها العدو فى أحبالى الصوتية، انظر، فمازلت أشعر أن حنجرتى محروقة كما لو لمسها بخار جهنم . معتاداً على مبالغات الملكة الحسية، ضم الملك كتفيه وعاد لمشكلته العويصة فى البحث عن هدية قادرة على إرضاء ماكسيميليانو

أرشيدوق النمسا (*) . همستْ الملكة بصلاة، وبدأت فى أخرى عندما قطعتها وقالت شبه صارخة، لدينا سالومون. ماذا، سأل الملك فى حيرة، بدون أن يفهم استدعاءها غير المناسب لملك اليهود. نعم يا سيدى، سالومون الفيل. ومن أجل ماذا أحتاج أنا للفيل هنا، سأل الملك شبه غاضب. من أجل الهدية يا سيدى، هدية العرس، أجابت الملكة، ناهضة من مكانها، منتعشة، غاية فى الحماس . لكنها ليست هدية عرس. الأمر سيان. هز الملك رأسه بالموافقة ثلاث مرات، وبعد وقفة واصل الهز ثلاث مرات أخرى، فى نهايتها عبّر عن قبوله، تبدو لى فكرة مثيرة . إنها أكثر من مثيرة، إنها فكرة جيدة، فكرة ممتازة، أصرّت الملكة بإيماءة تعبّر عن نفاد صبرها، الشبيه بالتمرد، الذى لم تستطع كبحه، منذ سنتين وصل هذا الحيوان من الهند، ومنذ ذلك الحين لم يفعل شيئاً سوى الأكل والنوم، حوضه دوماً ممتلئ بالماء والعلف بالأكوام، كما لو أننا نعول حيواناً لا شغل له ولا شاغل، ولا أمل فى الاستفادة منه. لا ذنب للحيوان المسكين فى ذلك، فلا عمل يقوم به هنا، إلا إذا أرسلناه إلى مرافئ التاجو ليقوم بنقل ألواح الخشب، لكن المسكين سيتألم؛ لأن تخصصه المهنى فى نقل الجذوع، التى تضبط على زلومته بانحنائها. فليذهب إذًا إلى فيينا. وكيف سيذهب، سأل الملك. هذه ليست مشكلتنا، فلو صار ابن عمك ماكسيميليانو صاحبه، فليحلها هو ،

(*) الأرشيدوق: ولى عهد النمسا.

وأفترض أنه مازال فى بلد الوليد. ليس لدىّ أخبار عكس تلك. واضح أنه سيتحتم على سالومون السير على أرجله حتى بلد الوليد، كم هو مشاء سريع. وإلى فيينا أيضاً، فليس هناك حل آخر. يمكن جرّه، قالت الملكة. يمكن جرّه، وافق الملك بوقار، وأضاف، سأكتب غداً لابن عمك ماكسيميليانو، إن قَبِلَ فعليه أن يحدد التواريخ والقيام ببعض الإجراءات، على سبيل المثال، متى يطمح أن يرحل لفيينا، كم يومًا سيحتاج الوصول من لشبونة إلى بلد الوليد، ومن هناك فصاعداً لن تكون مشكلتنا، سنغسل أيدينا . نعم، سنغسل أيدينا، قالت الملكة، لكن، فى قرارة نفسها، حيث تتضح المتناقضات البشرية، شعرتْ بألم مفاجئ؛ لأنها ستترك سالومون يرحل إلى أراض بعيدة جداً ولناس غرباء جداً.

فى اليوم التالى، مع بداية دخول الصبح، أمر الملك باستدعاء أمين السر بيدرو دى الكاسوفا كارنيرو وأملى عليه خطاباً لم يخرج كما أراد فى المرة الأولى، ولا فى الثانية، ولا فى الثالثة، كان يجب أن يكون خطاباً مغلفاً بالكامل بالمهارة البلاغية وبالمعرفة البرجماتية المختبرة وبالصيغ الرسائلية المستخدمة بين الملوك؛ الذين كانوا يعبدون الموظف الكفء، الذى تعلم فى أفضل المدارس الممكنة، مدرسة أبيه، أنطونيو كارنيرو، الذى ورث عنه المنصب بعد وفاته . فى النهاية كتب خطاباً كاملاً من حيث الخط والمنطق، دون أن يترك أية إمكانية نظرية، معبّرًا عنها

دبلوماسياً بأن الهدية قد لا تنال قبول الأرشيدوق، ليجد، على الرغم من ذلك، كل صعوبات العالم للرد بالرفض، حيث إن ملك البرتغال كان يؤكّد، فى قطعة استراتيجية من الخطاب، أنه فى المملكة بأسرها لا يمتلك شيئاً أكثر قيمة من الفيل سالومون، سواء للحس الوحدوى للخلق الإلهى الذى يربط ويصاهر بعض المخلوقات ببعضها، حتى أن هناك من يقول إن الإنسان قد خُلِقَ من فضلات الفيل، أو للقيم الرمزية والجوهرية والدنيوية للفيل. بعد أن أرّخ الخطاب وختمه، أعطى الملك أمراً بأن يحضر السائس الأعظم، البطل الذى يستحوذ على ثقته كاملة، ولخّص له مضمون الرسالة، بعدها أمره أن يختار موكباً جديراً برتبته لكن، قبل أى شىء، على مستوى مسئولية المهمة التى كان قد كلّفه بها. قبّل البطل يد الملك، الذى قال له، برصانة هرقل، كلمات العرافين هذه، **كن** سريعاً كباشق(*)، وواثقاً من ذاتك كطائر النسر. أمرك يا سيدى. بعدها، غيّر الملك نبرته وأسدى بعض النصائح العملية، أنتم لستم فى حاجة أن أذكّركم أنكم تستطيعون أن تبدّلوا الخيول كل المرات التى تحتاجونها، فطاقم جياد البريد ليست هنا لسبب آخر، وليست الآن ساعة ادخار، سآمر أن يعززوا الإسطبلات، وبعد إعدادها، لو كان ممكناً، وحتى نستغل الوقت، أرى أنه ينبغى عليكم النوم فوق خيولكم بينما تمضى راكضةً فى طريقها للقلعة. لم يدرك الرسول اللعبة الساخرة أو فضّل أن يدعها تمر،

(*) الباشق: صقر يتواجد بكثرة فى أوروبا وآسيا ويمكن أن يكون بعدة ألوان، وهو أصغر من الباز خفيف الطيران سريع الاقلاع.

واقتصر على قول، أوامر سموك ستنفذ بالحرف الواحد، وأعدك على ذلك بكلمتى وحياتى، وانسحب دون أن يعطيه ظهره، مكرراً انحناءاته كل ثلاث خطوات. إنه أفضل سائس، قال الملك. قرر أمين السر أن يسكت التملق المفترض أن يرد به بأن السائس الأعظم ليس بوسعه أن يسلك مسلكاً آخر، لأن صاحب السمو بنفسه هو من اختاره . كان يشعر أنه قد علّق من قبل بتعليق مشابه منذ أيام ليست بكثيرة . فى تلك اللحظة بالتحديد مرت بذاكرته نصيحة أبيه، احذر يا بنى، عبارة التملق المتكررة لن تكون مرضية فى نهاية الأمر، وبالتالى ستصير كما السُبّة . هكذا، فضّل أمين السر الصمت أيضاً، رغم أن أسبابه تختلف عن أسباب السائس الأعظم. خلال هذا الصمت القصير، عبّر الملك فى النهاية عن همٍ راوده عند يقظته، كنت أفكر، أعتقد أنه يجب أن أذهب لأرى سالومون . أتريد سموك أن أرسل فى استدعاء الحرس الملكى، سأل أمين السر . لا، يكفى وصيفان، أحدهما من أجل الرسائل والآخر من أجل الاطلاع على سبب عدم عودة الأول حتى الآن، آه، والسيد أمين السر أيضاً، إن أراد اصطحابى. هذا يشرفنى كثيراً يا صاحب السمو، وهو أكثر مما أستحق. ربما لتستحق أكثر وأكثر، مثل أبيك، أسكنه الله فسيح جناته. أقبِّلُ يد سموك، بكل الحب والاحترام اللذين كنتُ أُقبِّل بهما يديه . أشعر أن هذا حقاً أكثر مما أستحق، قال الملك، مبتسماً. لا أحد

أبداً يغلب سموكم فى المنطق وسرعة الرد. انظر إذاً لمن يشيع هناك أن الملائكة التى أشرفتْ على مولدى لم تهبن ما يلزم لممارسة الأدب. ليست كل الحياة أدباً يا سيدى، فزيارة الفيل سالومون فى يوم كهذا، كما ربما سيقولون فى المستقبل، فعل شعرى. ما الفعل الشعرى، سأل الملك. لا أحد يعرف يا سيدى، فقط ننتبه لوجوده عندما يحدث. لكننى إلى الآن لم أفعل سوى إعلان نيتى عن زيارة سالومون. بما أنها كلمة ملك فلابد أنها كافية. أظننى قد سمعتُ من يقول إنهم يسمون ذلك فى البلاغة سخرية . أطلب المغفرة من سموكم . مغفور لك أيها السيد أمين السر، ولو كانت كل خطاياك بهذه الخطورة، فالسماء مضمونة لك. لا أعرف يا سيدى، إن كان هذا هو أفضل الأوقات للذهاب إلى السماء. ماذا تريد أن تقول بهذا. محاكم التفتيش تقترب يا سيدى، والسماحات بالعقائد والتبرئة انتهت. ستحافظ محاكم التفتيش على الوحدة بين المسيحيين، هذه هى غايتها. إنها غاية مقدسة ـ بلا شك ـ يا سيدى، يتبقى أن نعرف بأى الوسائل ستتحقق . إن كانت الغاية مقدسة، فالوسائل المستخدمة أيضاً ستكون مقدسة، أجاب الملك ببعض الصرامة. أطلب المغفرة من سموك، وأضيف. ماذا ستضيف. أرجو سموك أن تعفينى من زيارة سالومون، أشعر أن مرافقتى لعظمتك اليوم لن تكون مريحة لسموك. لن أعفيك، فأنا أحتاج حضورك فى الحظيرة بشكل مطلق.

من أجل ماذا يا سيدى، إن لم أكن جريئاً فى سؤالى. لستُ على نور لأدرك إن كان سيحدث ما

أسميته فعلاً شعرياً، أجاب الملك بنصف ابتسامة رسمتْ اللحية والشارب فيها تعبيراً خبيثاً، شبه شيطانى. أنتظر أوامركم يا سيدى . عند تمام الخامسة، أريد أربعة جياد على باب القصر، ووصوا بأن يكون الجواد الذى أمتطيه كبيراً وسميناً وهادئاً، فلم أكن أبداً من أهل الكتائب، بخاصة فى هذه السن وما فيها من وعكات. أمرك يا سيدى. واختر بعناية الوصيفين، فلا يكونان من هؤلاء الذين يضحكون على كل شىء وأى شىء، فتواتينى الرغبة فى لى رقبتهم. أمرك يا سيدى.

رحلوا بعد أن تجاوزتْ الساعة الخامسة والنصف لأن الملكة، عند معرفتها بخبر المسيرة التى يعدونها، صرّحتْ أنها أيضاً تريد الذهاب. كان من الصعب إقناعها أنه لا معنى لإخراج عربة فقط من أجل الذهاب إلى بيلين، حيث كانوا قد أقاموا الحظيرة لسالومون. وبالطبع أنت يا سيدتى لا ترغبين الذهاب فوق جواد، قال الملك الحازم، مقرراً ألا يسمح بأى رد. امتثلتْ الملكة للتحريم الماكر والخفى وانسحبتْ مهمهمة أنه ليس هناك من يعشق سالومون فى البرتغال كلها، أو حتى فى الكون بأسره، أكثر منها. هكذا نرى أن المتناقضات البشرية فى ازدياد. فبعد أن أطلقوا على الحيوان المسكين اسم الدابة التى لا نفع منها ولا مصلحة، وهى أسوأ الشتائم لمخلوق غير عاقل أجبروه على العمل بقسوة فى الهند بدون أجر خلال سنوات وسنوات، تستعرض الملكة الآن إطلالات

الندم الجلى الذى يجعلها تتحدى إلى حد ما، على الأقل ظاهرياً، سلطة سيدها، الزوج والملك. فى العمق كانت مجرد زوبعة فى فنجان، أزمة زوجية صغيرة ستتلاشى بشكل قاطع مع عودة السائس الأعظم، أياً كانت الإجابة التى سيحضرها. إن قَبَلَ الأرشيدوق الفيل، ستنحل المشكلة من تلقاء نفسها، أو بقول أفضل، سيحلها السفر إلى فيينا، وإن لم يقبله، سيتحتم علينا حينئذ أن نقول، مرة أخرى، بخبرة الشعوب الألفية، إنه، رغم خيبات الأمل والإخفاقات وزوال الوهم، وهو الخبز اليومى للرجال والفيلة، ستواصل الحياة مسيرها. ليس لدى سالومون أية فكرة عمّا ينتظره، بينما يمتطى جواده السائسُ الأعظم، الرسول، متجهاً صوب بلد الوليد، مخفياً النتيجة المزعجة لوسواس النوم فوق مطية الفرس، وملك البرتغال بحاشيته القليلة المكونة من أمين سره ووصيفين يصل إلى شاطئ بيلين، بمواجهة دير رهبان إيرونيموس وحظيرة سالومون. لو أعطينا وقتاً للزمن، ستتركب فى النهاية كل أشياء الكون بعضها مع بعض. هناك يمكث الفيل. أصغر من أقاربه الأفارقة، ويمكن أن نتنبأ، مع ذلك، وهو تحت طبقة القذارة التى تغطيه، بالصورة الحسنة التى تروت فيها الطبيعة. لماذا يكون هذا الحيوان متسخاً ، سأل الملك، أين راعيه، أظن أن له راعياً. كان رجلاً بملامح هندية يقترب بالفعل، تغطيه ملابس صارت خرقاً تقريباً، مزيج من قطع ثياب أصلية وصناعة محلية،

غطاء سيئ أو بشكل سيئ تستر بقايا قماش غريب جاء مع الفيل فى نفس ذاك الجسد منذ عامين. كان الفيّال . انتبه أمين السر فى الحال أن الراعى لم يتعرّف على الملك، ولأن الموقف لا يحتمل التقديمات الرسمية، سموكم، اسمحوا لى أن أقدم لكم راعى سالومون، أيها السيد الهندى، أقدم لك ملك البرتغال، دُن جوان الثالث، الذى ستذكره كتب التاريخ بلقب الملك الرحيم، أمر الوصيفين أن يدخلا للقفص الحديدى ويعلما الفيّال بألقاب وصفات الشخصية ذات اللحية التى توجه له نظرة صارمة، تعلن عن أوخم العواقب، إنه الملك. توقف الرجل، كما لو رموه بقذيفة، وقام بحركة توحى بنية الهرب، لكن الوصيفين أمسكاه من خِرقه ودفعاه ناحية الحاجز الحديدى. من أعلى سلم ريفى يدوى، موضوع فى الجزء الخارجى، كان الملك يرى المشهد بغضب ونفور، شاعراً بالندم؛ لأنه خضع للغواية الصباحية التى دفعته للقيام بزيارة عاطفية لمخلوق صفيق الجلد، لهذا الحيوان الخرطومى المضحك الذى يصل طوله لأربع عصى تقريباً، والذى، بمشيئة الرب، سيفرغ فضلاته الخبيثة فى فيينا النمسا الصلفاء. الذنب يقع، ولو بنسبة ضئيلة، على عاتق أمين السر، وعلى حواره حول الأحداث الشعرية التى مازالت تدور فى ذهنه . نظر بلمحة تحد للموظف المقدّر لأسباب أخرى، وهذا، كما لو تنبأ بنيته، قال، حدث شعرى يا سيدى، مجرد مجىء سموك إلى هنا، فالفيل ليس إلا حجة فقط.

تلجلج الملك بشيء لم يكن مسموعاً، بعدها قال بصوت راسخ وجلى، أريد هذا الحيوان نظيفاً الآن. كان يشعر بنفسه ملكاً، وقد كان ملكاً، وسيكون إحساسه مفهوماً لو فكرنا أنه لم ينبس بعبارة شبيهة طوال حياته الملكية. نقل الوصيفان للفيّال رغبة الملك وهرول الرجل صوب كوخ كان يحفظ فيه أشياءً كانت تبدو عدة وأشياءً لعلها كذلك، بالإضافة لأشياء أخرى لا يعرف أحد أن يقول ما فائدتها. كانت توجد بجانب الكوخ بناية من ألواح خشبية وقرميد بالٍ، لابد أنه كان مسكن الراعى. عاد الرجل بفرشاة من جذور البيرجانو الطويل، وملأ بالماء سطلاً كبيراً فى الحوض الذى يستخدم كمشرب وبدأ فى العمل. كانت متعة الفيل واضحة. لابد أن الماء وحكات الفرشاة أيقظت فيه ذكرى مريحة، نهر فى الهند، جذع شجرة خشنة، والبرهان على ذلك أنه خلال وقت الغسل الذى دام نصف ساعة معدودة لم يتحرك من مكانه، ظل راسخاً فوق أرجله القوية، كما لو كان منوماً مغناطيسياً. معروفةً كخصائص سامية للنظافة الجسدية، لم يندهش من ظهور فيل آخر فى المكان الذى اغتسل فيه الفيل. فالقذارة التى كانت تغطيه من قبل والتى كانت تحجب جلده قد تبخرت تحت زخم الماء والفرشاة، وظهر سالومون الآن أمام نظرات الجميع فى كامل رونقه. كان معتدلا، إن نظرنا له جيداً. فجلد الفيل الأسيوى، وهذا أحدها، جلد سميك، بلون بين الرماد والقهوة، يغطيه الشعر والبقع، وهذه خيبة

أمل مستمرة له هو نفسه، رغم نصائح الخضوع، التى كانت تشير له أنه يجب أن يرضى بحاله، وأن يشكر فيشنو . تركهم يغسلونه كما لو أنه فى انتظار معجزة ما، كما لو كان تعميداً، وها هى النتيجة، شعر وبقع . لم يكن الملك قد رآه منذ أكثر من سنة، وكانت التفاصيل قد غابت عن ذاكرته، والآن لم يكن يروق له المشهد الذى يقدمونه أمامه . كانوا يخلصون نابيه الطويلين من جلده الخشن، وكانا غاية فى البياض اللامع، وبهما لوية طفيفة، مثل سيفين مشهرين للأمام . لكن ما هو أسوأ كان فى الطريق . فجأة، شَعَرَ ملك البرتغال و الجرابى أيضاً، الذى كان من قبل فى أوج سعادته؛ لأن فى استطاعته أن يكرم أحد أصهار الإمبراطور كارلوس الخامس، شعر كما لو أنه على وشك التهاوى من السلم والسقوط فى حلاقيم الخزى الشرهة. وهذا هو ما سأله الملك لنفسه، ماذا لو لم يُعجَب الأرشيدوق به، لو وجده قبيحاً، فلنتخيل أنه قَبَلَ الهدية لأنه لا يعرف الفيل، وبعدها أعاده، كيف سأحتمل خزى أن أرى نفسى مستصغراً أمام نظرات الشفقة والسخرية من جانب الدول الأوروبية.

ما رأيكم، كيف ترون الفيل، قرر الملك أن يسأل أمين السر، باحثاً عن سبب للخلاص لا يمكن أن يأتيه سوى من هذا الطريق. الجمال والقبح يا سيدى ليس إلا انطباعات نسبية صرف، فحتى الهامات ترى أرجلها جميلة، أما ما أراه من مكانى، مستخرجاً هذه الحالة الخاصة من قانون عام، فهو نموذج عظيم لفيل

أسيوى، بكل الشعر والبقع التى شكلتها رغماً عنه يد الطبيعة وأنه سيبهج الأرشيدوق وسيخطف ألباب القصر الملكى وأهل فيينا، كما سيسلب قلوب كل من يمر بهم والناس أجمعين. تنفّس الملك الصعداء، أظن أنك محق. أتمنى أن أكون كذلك يا سيدى، فلو كنت أعرف شيئاً عن الطبيعة الأخرى، أقصد البشرية، ولو سمحت لى جلالتك، سأتجاسر وأقول إن هذا الفيل بشعره وبقعه سيصير أداة سياسية من الطراز الأول بالنسبة إلى أرشيدوق فيينا، هذا إن كان فى غاية المكر كما أستنبط من الأدلة التى أعطاها حتى الآن.

ساعدنى على الهبوط، فهذا الحوار يسبب لى الدوار. بمساعدة أمين السر والوصيفين، تمكن الملك بلا صعوبات كبرى من نزول الدرجات القليلة، التى كان قد صعدها . تنفس بعمق عندما شعر بالأرض راسخة تحت قدميه، وبلا سبب ظاهر، ولنقل ربما أكسجة الدم المفاجئة والتجديد التالى لدورته داخل الرأس، لأنه من المبكر جداً معرفة السبب على وجه التحديد، أدى لأن فكّر فى شىء لم يكن ليخطر بباله فى الظروف العادية.

وقد كان. لا يمكن لهذا الرجل أن يرحل إلى فيينا بهذا المنظر، مستوراً بخرق، آمر أن تفصّلوا له ثوبين، أحدهما للعمل، عندما يتحتم عليه السير فوق الفيل، وثانيهما للتمثيل الاجتماعى حتى لا يخزينا فى القصر الملكى النمساوى، بلا أبهة، لكنهما جديران بالبلد الذى أرسله. أمرك يا سيدى . وبالمناسبة، ما

اسمه . ابتعد أحد الوصيفين ليسأله، وكانت الإجابة التى انتقلت عبر أمين السر، هى تقريباً سوبهرو. سوبرو، يا له من اسم ملعون . بالهاء يا سيدى، على الأقل هذا ما يقوله، أوضح أمين السر. سيجب أن نسميه جواكين عندما يصل للبرتغال، تأفف الملك.

بعد ثلاثة أيام، وبعد أن حلّ الليل بظلمته، نزل السائس الأكبر أمام باب القصر، يتقدم حاميته المنطفئة الآن جرّاء غبار الطريق والعرق المقزز الذى لا يمكن تجنبه، سواء عرق الجياد أو البشر، نفض عن نفسه الغبار وصعد السلم ودخل الغرفة الأمامية التى هرول ليشير له إليها الخادم الأكبر، ولا ندرى إن كان لقب الخادم الأكبر موجوداً حقيقةً فى هذا الزمن أم لا، ومن الأفضل أن نعترف بذلك الآن، لكنه يبدو لنا مناسباً لتركيبة رائحة جسده، وهى خليط من التباهى والتواضع المزيف، الذى يفكك الشخصية لحليات حلزونية . متلهفاً لمعرفة رد الأرشيدوق، استقبل الملك على الفور الرجل الواصل فى الحال . كانت الملكة كاتالينا حاضرة فى صالون الإمارة، ويجب ألا يدهش ذلك أحداً، بخاصة لو وضعنا فى الاعتبار شفافية اللحظة، فبقرار من زوجها كانت تشترك بشكل منتظم فى اجتماعات الدولة، لكن لم تكن أبداً شاهدة سلبية. كان هناك سبب آخر لرغبة الملكة فى الاستماع إلى قراءة الخطاب بمجرد الوصول، حيث إنها كانت تغذى

الأمل الباهت بأن يأتى خطاب الأرشيدوق ماكسيميليانو مكتوباً بالألمانية، مع أنها كانت لا ترى أنه احتمال معقول، وفى هذه الحالة كان الأمر يتطلب أن تكون المترجمة موجودة، فى متناول اليد، إن سمحتم لى باستخدام هذا التعبير، جاهزة لتؤدى مهمتها . تلقى الملك الخطاب من يد السائس الأكبر فى هذه البرهة من الوقت، وفرده بنفسه بعد أن أزال الشرائط المطبوعة بأختام الأرشيدوق، لكن نظرة مجردة كانت كافية ليدرك أنه مكتوب باللاتينية. كان دُن جوان، ملك البرتغال الثالث الذى يحمل هذا الاسم، لديه وعى تام بأن الشكوك التى لا يمكن تفاديها، والوقفات الطويلة بشكل زائد عن اللازم، وأخطاء الترجمة المحتملة، ستترك هذا المكتوب فى حالة بائسة وربما تفقده الصورة الحقيقية التى يستحقها، مع أنه لا يجهل اللغة اللاتينية، حيث كان قد درسها فى سنوات شبابه . تقدم أمين السر خطوتين متحفظتين بخفة روحه التى نعرفها عنه وبطلاقة بريقه الثابت، وانتظر. وبنبرة طبيعية، كما لو كان المشهد قد سبق تمثيله من قبل، قال الملك، فليقرأ السيد أمين السر، وليترجم للبرتغالية الرسالة التى بعث بها ابن العم الحبيب ماكسيميليانو ليرد فيها بالتحديد على عرض الفيل سالومون، وعلى أية حال، لا يبدو لى ضرورياً قراءة الرسالة كاملة، فيكفى أن نعرف مؤقتاً محتواها . السمع والطاعة يا سيدى. مرر أمين السر عينيه على عبارات الاحترام المسهبة والزائدة التى كانت تتميز بها مراسلات تلك الفترة

فكانت تشبه الفُطرة بعد المطر، وسار بعينيه إلى أسفل حتى عثر على بغيته . لم يترجم، فقط أعلن، يقبل ماكسيميليانو أرشيدوق النمسا هدية ملك البرتغال ويشكره . أطلت من الوجه الملكى، بين مساحة الشعر التى تشكلها اللحية والشارب، ابتسامة رضا . ابتسمت الملكة أيضاً، فى الوقت نفسه الذى ضمت فيه يديها فى إيماءة شكر أولاً لماكسيميليانو أرشيدوق النمسا، وثانياً لله القادر على كل شىء. كانت المتناقضات التى تموج فى دواخل الملكة قد صارت لا شىء، أكثر المتناقضات تفاهة، أو بمعنى آخر، لا أحد يستطيع أن يهرب من قدره . عادت الكلمة من جديد لأمين السر، فنطق بصوت بدت فيه الرصانة الرهبانية للغة اللاتينية يتردد صداها فى بلاغة البرتغالية الشائعة التى كان يعبر بها، وقال أشياءً أخرى يحتويها الخطاب، يقول إنه لا يعرف بالتحديد فى أية لحظة سيرحل إلى فيينا، ربما فى منتصف أكتوبر، لكنه غير مؤكد. ونحن فى أوائل أغسطس، أعلنت الملكة بدون ضرورة. لا يقول الأرشيدوق أيضاً، يا سيدى، أن سموك، إن راق لك، لا تحتاج لانتظار أن يقترب تاريخ الرحيل لترسل له سليمان إلى بلد الوليد . ما سليمان هذا، سأل الملك ساخطاً، لم يمتلكوا الفيل بعد ويريدون تغيير اسمه .

سليمان، العظيم، يا سيدى، السلطان العثمانى.

لا أدرى ماذا كنت سأفعل من غيرك، يا أمين السر، كيف كنت سأعرف مَن سليمان هذا بدون ذاكرتك

المنيرة التى تضىء بصيرتى وتوجهنى فى كل الساعات.

-معذرة يا سيدى، قال أمين السر . جاءت لحظة صمت مربكة تجنب فيها جميع الحضور تبادل النظر. وصار وجه الموظف ضارباً للسواد بعد دفعة دم سريعة. أنا من يجب أن يطلب منك المعذرة، قال الملك، وأطلبها منك بلا أى إكراه، إلا من ضميرى . سيدى، تلعثم بيدرو دى الكاسوفا كارنيرو، لستُ شيئاً لأغفر لك أى شىء . حضرتك أمين سرى، وأنا قد تطاولت عليك . من فضلك يا سيدى. قام الملك بإيماءة فرضت الصمت، وفى النهاية قال، سالومون، هكذا سنظل نسميه ما دام هنا، لا يمكن أن تتخيل الاضطراب الذى حدث بيننا منذ اليوم الذى قررتُ فيه تسليمه إلى الأرشيدوق، وأعتقد أنه فى قرارة أنفسنا لا يرغب أحد من الحاضرين أن يرحل الفيل، أمر غريب، فهو ليس قطاً ينام بين أقدامنا، وليس كلباً ينظر إلينا كما لو كنا أصحابه، ومع ذلك، يمتلكنا الحزن هنا، ونصير شبه يائسين، كما لو أنهم يستأصلون منا شيئاً . لم يعبر أحد عن الأمر أفضل من سموك، قال أمين السر . فلنعد لقضيتنا، عند أية نقطة توقفنا فى حكاية إرسال سالومون إلى بلد الوليد، سأل الملك. يكتب الأرشيدوق أنه من الخير ألا يتأخر وقتاً طويلاً، بحيث يعتاد على تغيير الأفراد والبيئة، و الكلمة اللاتينية التى استخدمها لا تعنى هذا بالتحديد، لكن هذا أفضل ما يخطر ببالى فى

هذه اللحظة . ليس من الضرورى أن تبحث عن ترجمة أخرى، نحن نفهمها، قال الملك . وأضاف بعد لحظة من التأمل، سيحمل السيد السائس الأكبر مسئولية تنظيم الحملة، بصحبة رجلين لمساعدة الفيّال فى عمله، وبعض رجال آخرين يتعهدون بالتموين من الماء والعلف، وعربة يجرها ثوران لما قد تحتاجون إليه، نقل برميل من الماء، مثلاً، مع أنه لا ينقص برتغالنا حقيقة لا أنهار ولا جداول ليشرب منها سالومون ويستوحل، وأسوأ ما فى الأمر هذا الهيكل الخشبى الملعون، الجاف والنحيل كعظمة معرّضة للشمس، وأخيراً، فصيلة من الفروسية فلربما وقعت الحالة المستحيلة وطمح أحد فى سرقة سالومونا الصغير، وسيُعلم السائس الأعظم تطور الأمور للسيد أمين سر الدولة، الذى أطلب منه المعذرة لضياع وقته فى سماع هذه التفاهات. ليست تفاهات يا سيدى، فأنا كأمين سر، يخصنى هذا الموضوع بخاصة لأن ما نفعله هنا ليس إلا تصرفًا فى مِلْك الدولة . لا يصح أن نفكر فى سالومون أبداً أنه من أملاك الدولة، قال الملك بوجه مبتسم. قد يكفى أن أدرك أن الماء والعلف لن يتساقط عليه من السماء، يا سيدى . تدخلت الملكة، من جانبى آمر وأؤكد ألا يخطر ببال أحد أن يخبرنى أن سالومون قد رحل، وسأسأل عنه عندما أدرك الأمر بشكل مناسب، وحينها أعطونى جواباً . لم تفهم الكلمة الأخيرة إلا بالكاد، كما لو أن البكاء المفاجئ قد قيد حنجرتها

الملكية . بكاء ملكة يعد منظراً نضطر فيه لأسباب أخلاقية أن نغض البصر . هذا ما فعله الملك، وأمين سر الدولة، والسائس الأكبر . بعدها، عندما خرجتْ وانتهى ضجيج تنورتها التى كانت تمسح الأرض، ألح الملك، هذا ما كنت أقوله، لا نرغب أن يرحل سالومون. ما زال أمام سموك الوقت لتتدم، قال أمين السر. وأنا نادم على ما أعتقد، لكن الوقت قد فات، فسالومون فى الطريق . لدى سموك قضايا أهم لمناقشتها، فلا تسمح لفيل أن يصير مركز همومك . ما اسم الفيّال، سأل الملك فجأة . سوبهرو، على ما أظن يا سيدى . وما معناه . لا أدرى، لكن من الممكن سؤاله . اسأله، أود أن أعرف فى أى يد سيبقى سالومون . نفس اليد التى كان فيها من قبل يا سيدى، اسمح لى أن أذكرك أن الفيل جاء من الهند مع نفس الفيّال . الأمر يختلف فى القرب والبعد، لدرجة أنه لم يعننى حتى اليوم ما اسم الرجل، لكنه يهمنى الآن . أفهم ذلك يا سيدى . وهذا هو ما يعجبنى فى شخصك، أنك لا تحتاج أن نقول لك كل الكلمات حتى تدرك حديثنا . كان لى فى أبى خير معلم وسموك لا تقل عنه . بالنظرة الأولى لا يعد مديحك شيئاً كبيراً، لكن إذا كان أبوك هو المقياس فأنا راض . أتسمح لى سموك بالانصراف، سأل أمين السر . اذهب، اذهب إلى عملك، ولا تنس أمر الملابس الجديدة من أجل الفيّال، ماذا كان اسمه . سوبهرو يا سيدى، بالهاء. رائع.

بعد عشرة أيام من هذا الحوار، وعندما كانت الشمس تشرع فى رسم الأفق، كان سالومون يخرج من حظيرته، التى عاش فيها بشكل سيئ مدة عامين. كانت القافلة هى ما تم الإعلان عنها من قبل، الفيّال، مَنْ يقودهم من نقطة عالية، جالساً فوق رقبة الحيوان، ورجلان لمساعدته فيما قد يحتاجه، وآخرون يتحتم عليهم حفظ التموين، وعربة الثيران ببرميل الماء، الذى كان يهتز من جانب لآخر باستمرار جرّاء السير، وشحنة هائلة من جعبات العلف المتنوع، وفرقة الفروسية لتأمين المسيرة والوصول لبر الأمان، وأخيراً، شىء لم يخطر ببال الملك، وهو عربة إمدادات القوات المسلحة التى يجرها بغلان. كان الوقت مبكراً جداً، وكان السر الذى نظم به الخروج يفسر غياب الفضوليين والشهود الآخرين، رغم أنه يجب أن نبرز، مع ذلك، حضور إحدى عربات القصر، التى شرعت فى الحركة صوب لشبونة عندما اختفى الفيل وصحبته فى أول ملف فى الطريق. كان بداخلها ملك

البرتغال، دُن جوان، الثالث، وأمين سر الدولة، بيدرو الكاسوفا كارنيرو، الذى ربما لن نراه مرة أخرى، وربما نراه، حيث إن الحياة تسخر من التنبوءات وتضع الكلمات حيث نتخيل الصمت وتفرض العودات المفاجئة عندما نعتقد ألا نعاود اللقاء. لقد نسيت معنى اسم الفيّال، ماذا كان، سأل الملك. أبيض، يا سيدى، سوبهرو يعنى أبيض، رغم أنه لا يبدو كذلك. فى إحدى حجرات القصر، تحت ظل ستارة، تنام الملكة وترى كابوساً . تحلم أنهم قد أخذوا سالومون من بيلين، تحلم أنها تسأل العالم أجمع، لماذا لم تخبرونى، لكن، عندما تقرر الاستيقاظ، فى منتصف الصباح، لن تكرر السؤال ولن تعرف إن كانت ستطرحه مرة أخرى، بمبادرة منها. ربما يحدث بعد سنتين أو ثلاث أن ينطق أحد أمامها، بمحض صدفة، كلمة فيل، وحينها نعم، حينها ستسأل ملكة البرتغال، كاتالينا النمساوية، بمناسبة الحديث عن الأفيال، كيف حال سالومون، أما زال فى حى بيلين أم ساقوه إلى فيينا. وعندما يجيبونها بأنه فى فيينا، ويعيش فى حديقة حيوانات مع حيوانات أخرى متوحشة، ستقول، متصنعة عدم مبالاتها، أخيرًا تبسمت الدنيا لهذا الحيوان، ويستمتع بالحياة فى أجمل مدينة فى العالم، وأنا هنا، مسجونة بين اليوم والغد، وبلا أمل فى أى منهما . لو كان الملك حاضرًا، سيتصنع كما لو لم يسمعها، أما أمين سر الدولة، بيدرو دى الكاسوفا كارنيرو الذى تعرفنا عليه بالفعل، ومع أنه ليس رجل

صلوات، ويكفى أن نتذكر ما قاله عن محاكم التفتيش وبخاصة اعتبار الصمت حيطة، فسيطلق صلاة صامتة للسماوات حتى يغطوا الفيل بعباءة نسيان كثيفة تبدل له أشكاله وتذوبه، فى الخيالات الكسولة، ليصير كأى جمل وحيد السنام، وهو أيضاً حيوان له منظر فريد، أو كجمل لم يميزه القدر حقيقة بسنامين، ولا حتى يروق لذاكرة من يهتم بهذه الحكايا التافهة. الماضى طريق كثير الحجارة يعشق الكثيرون السير فيه باعتباره طريقًا مرصوفًا، بينما يتنقل آخرون، بكل صبر، من حجر لآخر، ويرفعونها لأنهم يحتاجون معرفة ما تحت الأحجار . أحياناً يخرج لهم عقارب أو أم أربع وأربعين، ديدان ضخمة وبيضاء أو أفاع منتصبة، لكن ليس من المستحيل أن يظهر لهم فيل ذات مرة، وأن يحضر هذا الفيل فوق رقبته فيّال يسمى سوبهرو، وهو اسم يعنى أبيض، وهذه الكلمة لا تتفق كلية مع الشخص الذى قدم نفسه فى حظيرة بيلين على مرأى من ملك البرتغال وأمين سر دولته، شخص دنس كما الفيل الذى يجب أن يعتنى به. هناك أسباب لإدراك هذا الأمر تنبهنا بحكمة أن أفضل ثوب قد تصيبه بقعة، وهذا هو ما حدث للفيّال وفيله. عندما تم إلقاؤهم هناك، ارتفع الفضول الشعبى إلى قمته لدرجة أن القصر نفسه نظم رحلات منتقاة للأبطال والبطلات، للسيدات والرجال، إلى بيلين لمشاهدة صاحب الزلومة، لكن فى وقت قليل هبط الحماس، وظهرت نتيجة ذلك، فقد صارت ملابس

الفيّال الهندية خرقاً وشعر الفيل وحسنات جسده أصبحت على وشك الاختفاء تحت طبقة من القذارة المتراكمة خلال سنتين . يختلف الوضع، مع ذلك، عن الآن . فبغض النظر عن غبار الطرق الذى لا يوصف، حيث يصل لمنتصف أرجله، يتقدم سالومون رشيقاً ونظيفاً مثل طبق قربان مقدس، والفيّال، رغم أنه بدون الملابس الهندية الملونة، يبرق فى ثوب عمله الجديد، الذى لم يدفع ثمنه فى النهاية، ربما كرماً منهم أو نسياناً . منفرج الساقين فوق مكانه المعد فى رقبة سالومون الراسخة، محركاً عصاه التى بها يقود خطوته، سواء بالضربات الناعمة أو بالعقاب المبرح الذى يترك أثراً فى الجلد الجاف، يستعد الفيّال سوبهرو، أو أبيض، ليكون الصورة الثانية أو الثالثة لهذه الحكاية، حيث إن الصورة الأولى، لبطولته المفروضة وأولويته الطبيعية، هو الفيل سالومون، وبعده يأتى هذا السوبهرو والأرشيدوق، أحياناً يتقدم هذا على ذاك، وأحياناً أخرى ذاك على هذا، حيث الصراع بينهما على قيمة كل منهما. مع ذلك، يعتبر الفيّال فى هذه اللحظة هو صوت المغنى . ناظراً لجانب ولآخر فى القافلة، يكتشف أن بها إهمالاً ما، يمكن فهمه لو وضعنا فى الاعتبار تنوع الحيوانات التى تشكّلها، بمعنى، فيل، رجال، جياد، بغال وثيران، لكل مسيرته الخاصة، الطبيعية والمجبرة، حيث من الجلىّ أنه فى هذه المسيرة لا أحد يستطيع أن يسير بسرعة أكبر من الأكثر بطئاً، وهو بالطبع ـ كما هو

معروف ـ الثور. الثيران، أين الثيران، قال سوبهرو الذى انتبه فجأة. لم يكن يرى ظل أحدهما ولا الحمل الثقيل الذى يجرانه، البرميل الممتلئ بالماء و جعبات العلف. لا بد أنهما فى المؤخرة، فكّر مطمئناً نفسه، ليس هناك حل آخر سوى الانتظار. كان يستعد لينزل من أعلى نقطة فى الفيل، لكنه تراجع. ربما شعر بحاجته للصعود من جديد، وعدم تمكنه من ذلك. فى البداية، كان الفيل نفسه هو من يرفعه بزلومته ويجلسه بشكل عملىّ على كرسيه . من ثم، كانت الحيطة تأمر وتوقع هذه المواقف التى فيها، لعدم استعداده، لغضبه، أو فقط لعناده، يرفض الفيل تقديم خدمة المصعد، وهنا سيتحتم استخدام سلم رغم أنه من الصعب تصديق أن يقبل الفيل الغاضب أن يتحول لمجرد نقطة مساعدة ويسمح، دون أى نوع من المقاومة، بصعود الفيّال أو غيره . كانت قيمة السلم رمزية صرف، مثل معانقة وعاء الذخائر الدينية أو وسام أية قديسة . فى هذه الحالة، بكل الطرق، لم يكن بوسع السلم أن ينفعه فى شئ، حيث يأتى فى عربة المؤخرة . نادى سوبهرو أحد معاونيه لينبه قائد سرية الفروسية أنه ينبغى عليهم انتظار عربة الثيران. كانت الراحة فى مصلحة الجياد، ولنقل الحقيقة، هى لم تبذل جهداً كبيراً، فلم تعدُ، ولم تخبب، بل كانت تسير بخطى قصيرة من لشبونة، على عكس حملة السائس الأعظم إلى بلد الوليد، التى ما زالت محفورة فى ذاكرة بعض الحاضرين هنا، الجنود القدامى لهذه

السرية البطلة. ترجّل الفرسان، وجلس السائرون أو رقدوا فى الأرض، واستغل عدد ليس بقليل وقت الراحة للنوم . منتصباً فوق الفيل، حَسَبَ الفيّال حسابات المسيرة ولم يشعر بالرضا. بناءً على ارتفاع الشمس، ساروا تقريباً ثلاث ساعات، وهى طريقة لقول إنهم حققوا تصالحاً حيث إن جزءًا ليس بصغير من هذا الوقت قد استخدمه سالومون ليستحم فى نهر التاجو، ويتمرغ فى الوحل، وهو ما كان سبباً، حسب منطق الفيلة، ليعاود الاستحمام من جديد وبشكل أطول . كان جلياً أن سالومون كان مثارًا، عصبيًا، والسيطرة عليه كانت تتطلّب كثيرًا من الصبر، وعدم التعامل معه بكثير من الجدية . لا بد أننا أضعنا ساعة فى شقاوات سالومون، فكّر الفيّال، وبعدها، منتقلاً من التفكير فى الوقت إلى التأمل فى المسافة، كم مسافة قطعنا فرسخاً، فرسخين، سأل نفسه . الشك العنيف قضية ذائعة . لو كنا ما زلنا نعيش بين اليونانيين القدماء والرومان، كنا سنقول، بالطمأنينة التى دوماً تمنحها المعارف المكتسبة من الحياة العملية، إن مقاييس المسافات الكبيرة، فى تلك الفترة، كانت الإستاديا والميل والفرسخ . لو تركنا فى سلام الإستاديا والميل، بتقسيماتها ذات الأقدام والخطوات، سنركز فى الفرسخ، الذى كان الكلمة المستخدمة من قبل سوبهرو، وهو مقياس يتكون أيضاً من خطوات وأقدام، لكن له ميزة كبرى، هى وضعنا فى أرض نعرفها . هيا، هيا، فالفرسخ يعرفه الجميع، قد يقول

ذلك بابتسامة ساخرة سهلة لا يمكن أن يتجنبها المعاصرون الذين أسعدنا الحظ وسمعونا . وأفضل إجابة يمكن أن نرد بها هى التالية، حقاً، فالجميع أيضاً كانوا يعرفونه فى الفترة التى عاشوا فيها، لكن فقط وبشكل حصرى فى الفترة التى عاشوا فيها. فكلمة فرسخ القديمة، أو فرسخة، إن صحت، تبدو متساوية بالنسبة إلى الجميع وخلال كل الأزمنة بنفس الاستخدام، نقول مثلاً : قام برحلة طويلة مقدارها سبعة آلاف وخمسمائة قدم وخمسمائة خطوة، فى فترة الرومان والعصور الوسطى السفلى ، بينما نستخدم الكيلومترات والأمتار فى قياس المسافة اليوم، لا شىء سوى خمسة وخمسة آلاف، على التوالى. قد نجد أحوالاً متشابهة فى أية منطقة للمقياس. وحتى لا نترك التأكيد بلا برهان، علينا أن نتأمل المُدّ، وهو اسم مكيال للحبوب وأمثالها، يساوى ١,٧٦ لتر أو ٤,٢٥ لتر، وفى لشبونة كان يساوى، بأرقام مغلقة، ١٦,٥ لتر، وفى أوبورتو ٢٥ لتراً. وكيف كانوا يتعاملون، قد يسأل القارئ الفضولى والعاشق للمعرفة . وكيف كنا سنتعامل نحن، يسأل، هارباً من الإجابة من جاء بنا إلى الحديث عن أمر الموازين والمكاييل. وهو الأمر الذى سيسمح لنا، بعد هذا الوضوح الساطع، أن نتخذ قراراً حرجاً للغاية، وبطريقة ثورية، من يدرى، سواء بالنسبة إلى الفيّال أو من يرافقونه، حيث إنه ليست هناك طريقة أخرى للتفاهم، سيظلون يتحدثون عن

المسافات طبقاً لاستخدامات وعادات زمنهم، ولكى نستطيع أن نفهم ما يحدث هناك فى هذا الشأن، سنستخدم مقاييسنا المعاصرة فى المسافات، دون أن يتحتم علينا اللجوء باستمرار لجداول الضرب المرهقة. الأمر بهذه الصورة سيشبه فيلماً نصنع له مونتاجاً بلغتنا ليسد الجهل أو المعرفة غير الكافية باللغة التى يتكلم بها الممثلون، والفيلم كان مجهولاً بالطبع فى القرن السادس عشر. سنجد بالتالى فى هذه الحكاية خطابين متوازيين لن يلتقيا أبداً أحدهما هذا الذى سنتبعه بلا صعوبة، والآخر، بداية من هذه اللحظة، سيغلفه الصمت. وهذا حل جذاب.

كل هذه الملحوظات والمعارف جعلت الفيّال ينزل أخيراً من فوق الفيل، منزلقاً من الزلومة، ويسير بخطى حثيثة ناحية سرية الفروسية . كان من الصعب أن يميز أين يجد القائد. رأى بعيداً نوعاً من المظلة كانت تقى شخصاً ما من شمس أغسطس الحارقة، وبالتالى أدرك بكل سهولة من يكون، فوجود مظلة يعنى وجود قائد تحتها، ووجود قائد يستوجب مظلة لتغطيه . كان لدى الفيّال فكرة أنه لا يجيد بشكل حسن كيف يبدأ حواراً، لكن القائد، دون أن يعرف هذه الفكرة، يسر له عمله. ماذا حدث لهذه الثيران، أظهرت أم لم تظهر، سأل. فلتعلم سيادتك أننى لم أرها بعد، لكن وفقاً للوقت الذى فات لا بد أنها على وصول . فتمنى أن يكون الأمر كذلك . تنفّس الفيّال بعمق وقال بصوت متهدج من الانفعال، لو سمحت لى

سعادتك، لقد خطرت ببالى فكرة . لو خطرت ببالك فكرة فلا حاجة للإذن بطرحها . سعادتك محق، لكننى لا أتقن البرتغالية كأهلها. قل لى إذًا ما فكرتك. الثيران هى الصعوبة التى نواجهها . نعم، فهى لم تظهر بعد . ما أريد قوله لسعادتك إن المشكلة ستستمر حتى لو ظهرت . لماذا. لأن الثيران تسير ببطء بطبيعتها . حتى هنا أنا أعلم، ولست فى حاجةٍ لرجل هندى ليخبرنى به . إن كان لدينا زوج من الثيران لتشد العربة الأمامية، سنسير بشكل أسرع وسنصل جميعًا فى الوقت نفسه. تبدو لى فكرة جيدة، لكن أين سنجد زوجاً من الثيران. هنا توجد ضواح يا سيدى القائد .عقد القائد حاجبيه، ولم يستطع أن ينكر وجود ضواح هناك، وبالإمكان شراء زوج من الثيران . شراء، سأل نفسه، لا شىء من هذا، تُصادر الثيران باسم الملك وعند العودة من بلد الوليد نتركها، وفى حالة جيدة كما أتمنى أن يكون حالها الآن. سُمِعتْ صيحة، لقد ظهرت الثيران أخيراً، كان الرجال يصفقون، حتى الفيل رفع زلومته وأطلق قُباع رضا . لم يسمح له ضعف نظره أن يميز جعبات الطعام من بعيد، لكن فى كهف معدته العميق كانت تتحرك الاعتراضات؛ لأن ساعة الطعام قد جاءت وفاتت منذ زمن . هذا لا يعنى أن الفيلة يجب أن تأكل فى ساعات محددة كما يُقال إن ذلك يناسب الكائنات البشرية لتتمتع بصحة جيدة . ورغم أن ذلك يبدو مدهشاً، فالفيل يحتاج يومياً ما يقرب من مائتى لتر

من الماء وبين مائة وخمسين وثلاثمائة كيلوجرام من الخضار، ولا يمكن أن نتخيله بفوطة على رقبته، جالساً أمام منضدة، يأكل ثلاث مرات يومياً، فالفيل يأكل ما يستطيع، عندما يستطيع وأينما يستطيع، ومبدأه هو عدم ترك شيء وراءه يمكنه أن يحتاج إليه بعد ذلك . كان ضروريًا أن ينتظروا نصف ساعة تقريباً قبل أن تصل عربة الثيران، في هذا الوقت، أصدر القائد أمراً بدق الخيام، لكن ذلك تطلب البحث عن أكثر الأماكن تجنباً للشمس، قبل أن يتحول العسكريون والمدنيون إلى قطع خنزير مقلي . على بعد خمسمائة متر كانت هناك شجيرة حور، فسارت صوبها القافلة . كان الظل قليلاً، لكن هذا القليل أفضل من البقاء مشويين تحت لوح النجم الملك الذى لا يرحم . الرجال الذين جاءوا للعمل، والذين لم يأمرهم حتى الآن بشيء كبير، حتى لا نقول لم يأمرهم بشيء مطلقاً، كانوا يحضرون معهم طعامهم فى عباءتهم أو صُررهم، وهو طعامهم الدائم، قطعة خبز كبيرة، قطعة رنجة، بعض التين الجاف، وقطعة من جبن الماعز، هذا الذى يصير كما الحجر عندما يجف، ولا يمكن مضغه بالتالى، فنقضمه بصبر، ونستمتع خلال وقت أطول بطعم الجبن . بالنسبة إلى العسكريين، لا يحملون هماً . فجندى الفروسية الذى يحمل سيفاً مشهراً أو رمحاً مسنوداً فى صدر الدرع، ويركض بحمله نحو العدو، أو بكل بساطة يسوق فيلاً إلى بلد الوليد، لا يجب أن يشغل باله بأمور التموين.

فلا يهتم بالسؤال من أين جاء الطعام أو من أعده، فى حين أن ما يشغله هو أن تأتى قصعته ممتلئة وألا يكون المحتوى رديئاً تماماً . كان كل الأفراد مبعثرين فى مجموعات، ومشغولين فى نشاطات المضغ والبلع، فقط كان ينقص سالومون. أمر سوبهرو، الفيّال، أن يضعوا له جعبتى غلال؛ حيث كان ينتظر بدوره، وأن يفكوه ويتركوه فى حاله. ولو احتاج، أعطوه جعبة أخرى، قال . هذا الوصف، الذى يبدو للكثيرين مفرطاً لكثرة التفاصيل التى نلجأ إليها عمداً، له هدف مفيد، هو تنشيط ذهن سوبهرو حتى يصل لنهاية متفائلة حول مستقبل المسيرة . حيث إنه سيتحتم على سالومون أن يأكل ثلاث أو أربع جعبات يومياً، هكذا سيخف الثقل، وإن حصلنا على زوج الثيران هذا فى النهاية، لن نجد من يستوقف خطوتنا مهما كانت الجبال فى طريقنا كثيرة، فكّر. يحدث للأفكار النيرة، وأحياناً للأفكار الحمقاء أيضاً، الشىء نفسه الذى يحدث مع ذرات ديموقريطوس أو مع كريز السلة، يأتى بعضها ملتصقاً ببعض . عند تخيل الثيران التى تجر العربات فى المنحدر المرتفع، انتبه سوبهرو أنه قد ارتكب خطأ فى التركيبة الأصلية للقافلة، وأن هذا الخطأ لم يصحح خلال الفترة التى قطعتها المسيرة، وهو الخطأ الذى اعتبر نفسه مسئولا عنه . الثلاثون رجلاً الذين جاءوا كمعاونين، وأحصاهم سوبهرو بضيق واحداً واحداً، لم يفعلوا شيئاً منذ الخروج من لشبونة، باستثناء استغلال

الصباح للتنزه فى الحقل. سيكون عدد المساعدين المباشرين كافيًا لفك وسحب جعبات الغذاء، وفى حالة احتياجهم لمساعدة هو نفسه سيمد لهم يد العون. ماذا سأفعل إذًا، هل أعيدهم، هل أحرر نفسى من هذا الحمل، سأل سوبهرو نفسه . ستكون فكرة جيدة فى حالة عدم وجود أخرى أفضل منها . فتح التفكير ابتسامة مضيئة فى وجه الفيّال . أطلق صرخة منادياً للرجال، وجمعهم أمامه، بينما بعضهم يأتى ماضغاً آخر تينة مجففة، وقال لهم، بداية من الآن، ستتقسمون إلى مجموعتين، الأولى هنا والثانية هناك، من أجل مساعدة عربة الثيران، تسحبونها وتدفعونها، فكما ترون الحمل فوق طاقة الحيوانات، بالإضافة لكونها شديدة البطء بطبيعتها، وتبدّل كل مجموعة مع الأخرى كل اثنين كيلومتر، وهذا سيكون عملكم الأساسى حتى بلوغ بلد الوليد. ساد همس يوحى بعدم الرضا، لكن سوبهرو تصنع عدم سماعه، وواصل، سيترأس كل مجموعة رئيس، يتحتم عليه الحفاظ على الانضباط وتنمية روح التماسك فى المجموعة كلما كان ذلك ضرورياً لأية مهمة جماعية، فضلاً عن أنه سيكون مسئولا أمامى عن تقديم نتائج جيدة عن العمل. لم يفترض أن تروق اللهجة للمستمعين، حيث تكرر الهمس. رائع جداً، قال سوبهرو، من منكم لا يرضى بأوامرى التى أصدرتها فى التو، فليتوجه إلى القائد، فهو أعلى سلطة هنا، كممثل عن الملك . بدا أن الهواء قد برد فجأة، وحل سحب أقدام مرتبك محل

الهمس . سأل سوبهرو، من يرغب أن يكون مشرفاً. رُفعتْ ثلاث أيد مترددة، فحدد الفيّال، أريد مشرفين فقط، لا ثلاثة . انكمشت يد، واختفت، بينما ظلت يدان مرفوعتين . أنت وأنت، أشار سوبهرو، اختارا رجالكما، لكن افعلا ذلك بطريقة متساوية، حتى تكون قوة المجموعتين متوازنة، والآن انتشروا، أحتاج أن أتحدث مع القائد . قبلها، مع ذلك، كان عليه أن يستمع إلى مساعديه اللذين اقتربا ليلفتا انتباهه أنهم فتحوا جعبة غذاء أخرى، لكن كان يبدو أن سالومون قد شبع. لا يدهشنى ذلك، لقد أكل وشبع وهذه ساعة قيلولته. أسوأ ما فى الأمر أنه شرب تقريباً كل ماء المشرب. يبدو أمرًا منطقيًا بعد أن أكل ما أكل. نستطيع أن نسوق الثيران حتى النهر، لابد أن هناك طريقاً. لن تتمكن من الشرب فى هذا الارتفاع من النهر، فمازال الماء مالحاً. كيف تعرف ذلك، سأل المساعد. لأن سالومون قد استحم عدة مرات، آخرها فى مكان قريب، ولم يمد زلومته أبداً ليشرب. لو أن ماء البحر يصل حيث نحن الآن فهذا دليل على أننا لم نقطع سوى مسافة قصيرة. حقاً، لكن بداية من اليوم، بوسعك أن تثق أننا سنسير بسرعة أكبر، وهذه كلمة فيّال. تاركين جانباً هذا الوعد السامى، ذهب سوبهرو بحثًا عن القائد. وجده نائماً فى ظل شجرة حور وارفة جداً، بهذا النعاس الخفيف الذى يميز الجندى النبيه، لينقض سريعاً على سلاحه إن سمع أقل صوت مشتبه فيه. كان يحرسه عسكريان،

وبإيماءة صارمة أمرا سوبهرو أن يتوقف . أصدر الأخير إيماءة بأنه قد فهم وجلس فى الأرض، منتظراً. استيقظ القائد بعد نصف ساعة، تمطى وتثاءب، وتثاءب مرة أخرى، وتمطى من جديد، حتى شعر أنه قد استيقظ تماماً ليواجه الحياة . حتى بعد ذلك وجب عليه أن ينظر مرتين ليرى الفيال الواقف هناك. ماذا تريد الآن، سأل بصوت متحشرج، لا تقل لى إن لديك أفكاراً أخرى. تعلم سيادتك أنه نعم. اخبرنى. لقد قسمت الرجال إلى مجموعتين، تتبادلان كل اثنين كيلومتر، لمساعدة الثيران، وهكذا فى كل مرة سيدفع العربة خمسة عشر رجلاً، وستلاحظ الفرق . فكرة جيدة، بلا أدنى شك، أرى أن ما تضعه فوق كتفيك ينفعك فى شىء، الفائزون فى النهاية هم جيادى، التى ستتمكن من الخبب من آن لآخر، بدلاً من سيرهم المجمّد على خطوة العرض العسكرى. تعلم سيادتك أننى فكرتُ أيضاً فى ذلك. وهل فكرتَ فى شىء آخر، أقرؤه فى وجهك، سأل القائد. تعلم سيادتك أنه نعم. هيا أخبرنى. فكرتى أننا يجب أن ننظم أنفسنا الآن طبقاً لعادات سالومون واحتياجاته، انظر سيادتك، إنه نائم، لو أيقظناه لغضب وسبب لنا مشكلات. لكن كيف ينام وهو واقف، سأل القائد مرتاباً. أحياناً يرقد لينام، لكن الطبيعى أنه ينام واقفاً . أعتقد أننى لن أفهم الفيلة أبداً. تعلم سيادتك أننى أعيش معها منذ ولدت ومازلت لا أفهمها. كيف ذلك. ربما لأن الفيل أكثر من مجرد فيل. كفى ثرثرة. مازالت لدى فكرة

أخرى أود أن أقدمها لك يا سيادة القائد. فكرة أخرى، ضحك الرجل العسكرى، يبدو أنك لست فيالاً، بل مولد أفكار. اصنع فى معروفاً سيادتك. أية فكرة أنتجها رأسك المميز. خطر ببالى أننا سنكون منظمين بشكل أفضل لو سرت سيادتك خلف الجنود مغلقاً القافلة، وتسير عربة الثيران فى المقدمة؛ لأنها هى من تحدد خطوة التقدم، بعدها آتى أنا والفيل، بعدها المشاة، وعربة الإمدادات. رائع جداً، هذه تستحق كلمة فكرة. هكذا بدت لى. أريد أن أقول إنها فكرة نيّرة . لماذا، سأل سوبهرو، المُهان، دون أن ينتبه لقلة أدبه الفادحة، لهذه الإهانة الحقيقية التى يمثلها سؤاله المباشر. لأننى وجنودى سنبتلع الغبار الذى ستثيره أرجلكم. آه، يا للخجل، كان يجب أن أفكر فى ذلك ولم أفكر فيه، أترجى سيادتك، بكل قديسى ملكوت السماء، أن تغفر لى. هكذا نستطيع أن نسرع من حين لآخر وننتظركم حتى تصلوا. أمرك، سيدى، هذا هو الحل الكامل، اسمحوا لى بالاستئذان، طلب سوبهرو. مازال هناك أمران أود مناقشتهما معك، الأول، إن كررت سؤالك لى عن سبب شىء، بنفس النبرة التى تحدثت بها فى التو، سأصدر أمراً بجلدك على ظهرك بالسوط . أمرك، سيدى، همس سوبهرو مطرقاً . الثانى مرتبط برأسك هذا وبالمسيرة التى بدأناها بالكاد، إن كان لا يزال برأسك أية بقايا لأفكار يمكن استغلالها، أود أن أعرف إن كانت إرادتك أن نبقى هنا للأبد، حتى تنقضى القرون. مازال

سالومون نائماً يا سيدى القائد. وهل صار الفيل هو الحاكم هنا، سأل العسكرى شبه غاضب وشبه ساخر. لا يا سيدى القائد، من المؤكد أنكم تتذكرون أننى قلت لكم إنه يجب أن ننظم أنفسنا بناء على عادات واحتياجات سالومون، وأعترف أننى لا أعرف من أين جئت بكلمة بناء على. نعم، وماذا، سأل القائد الذى قد ضاق صدره. اسمعنى يا سيدى القائد، لكى نستطيع أن نسلم سالومون بصحة جيدة إلى أرشيدوق النمسا، يجب أن يستريح فى ساعات الحر. اتفقنا، أجاب القائد، معكر المزاج قليلاً عندما جاءت سيرة الأرشيدوق، لكن الحقيقة أنه لم يفعل شيئاً آخر طوال هذا اليوم المقدس. هذا اليوم لا يحسب سيدى القائد، إنه اليوم الأول، ومن المعروف أن الأشياء لا تخرج دوماً على ما يرام فى اليوم الأول. إذًا، ماذا نفعل. نقسّم اليوم إلى ثلاثة أجزاء، الأول، من الصباح الباكر، والثالث، حتى غروب الشمس، لكى نتقدم بأسرع ما يمكن، أما الثانى، فهذا هو موعده، للأكل والراحة. يبدو لى برنامجًا جيدًا، قال القائد، مائلاً نحو التسامح. شجّع تغيير نبرة الصوت الفيّال ليعبر عن القلق الذى يساوره طوال اليوم، سيدى القائد، هناك شىء فى هذه المسيرة لا أفهمها. ما هذا الذى لا تفهمه. على طول الطريق لم نقابل أحداً، وهذا فى رأيى المتواضع أمر غير طبيعى. أنت مخطئ، لقد قابلنا أفراداً كثيرين، سواء فى هذا الاتجاه أو الاتجاه المعاكس. كيف، إن لم أر أحداً، سأل سوبهرو بعينين

جاحظتين من الدهشة. كنت تغسل الفيل. أيعنى ذلك أنه فى كل مرة كان يغتسل فيها سالومون كان هناك أفراد يعبرون. لا تجعلنى أكرر كلامى. يا له من توافق غريب، يمكن أن أقول إن سالومون لا يرغب أن يروه . ربما يكون كذلك. لكننا الآن هنا، معسكرون منذ ساعات ليست بقليلة وأيضاً لم يعبر أحد. هنا السبب مختلف، فالناس ترى الفيل من بعيد كشبح، فتستدير أو تسير من طرق مختصرة، لابد أنهم يعتقدون أنه أحد رسل الشيطان. آسف على غباء رأسى، حد أننى وصلت فى تفكيرى أن الملك سيدنا أمر بإخلاء الطرق. لستَ على هذه الدرجة من الأهمية أيها الفيّال. أنا لا، لكن سالومون نعم. فضّل القائد ألا يرد على ما بدا له بداية نقاش جديد وقال: قبل أن تذهب أود أن أسألك سؤالا. كلى آذان صاغية. أتتذكر أنك استدعيت منذ قليل كل قديسى ملكوت السماء. نعم، سيدى القائد. أمعنى ذلك أنك مسيحى، فكر جيدًا قبل أن تجيب. تقريباً، سيدى القائد، تقريباً .

القمر بدر، نور أغسطس. باستثناء حارسين يدوران حول المعسكر بفرسيهما، دون إثارة أية ضوضاء سوى صرير زينتهما، تغوص القافلة بأكملها فى النوم. يتمتعون براحة أكثر مما يستحقونها. وبعد أن أعطوا خلال الجزء الأول من اليوم انطباعاً سيئاً بأنهم مجموعة متشردين وكسالى، برهن الرجال المعدون لدفع عربة الثيران على حماسهم وأعطوا درساً مهنياً حقيقياً. ساعدتهم حقاً الأرض الممهدة كثيراً، لكن كان يمكن أن نراهن، ونحن على ثقة من المكسب، أن تاريخ عربة الثيران الموقر لم يشهد أبداً يوماً مثل هذا. خلال الثلاث ساعات ونصف التى استمرت فيها المسيرة، ورغم بعض الاستراحات القصيرة، تقدموا أكثر من سبعة عشر كيلومتراً . كان هذا هو الرقم النهائى الذى سجله قائد القافلة بعد أن تبادل الكلمات مع الفيّال سوبهرو، الذى كان يعتبرهم أنهم لم يسيروا كل هذه المسافة، وأن الأمر لا يستحق أن يخدع الإنسان نفسه. كان القائد يعتقد أنهم قطعوها، وكان محفزاً للرجال، أى أهمية إن كنا

قد سرنا أربعة عشر فقط، فالثلاثة الأخرى سنسيرها غداً، وفى النهاية سترى أن كل شىء قد انتهى فى وقته بالضبط .

استيقظ فى التو. كان لا يزال لديه انطباع بأن ألماً حاداً كان يهاجمه وهو نائم، ألم ربما لن يتكرر، رغم أن حركة غبطة كانت بداخله، بعض القرقرة الصماء فى أمعائه، ذلك عندما عاد الألم فجأة كطعنات خنجر. نهض قدر استطاعته، أشار للحارس الأقرب منه والذى كان يروح ويجىء، وسار ناحية صف وارف من الأشجار وشرع فى صعود منحدر طفيف، حيث عسكروا ، كان طفيفاً لدرجة أنهم كانوا كالنائمين فى سرير له رأس مرفوع لدرجة ما. وصل فى اللحظة الأخيرة . خطفنا نظرة بينما يتحرر هو من ملابسه، التى لم تكن قد اتسخت بإعجاز، وانتظرنا حتى رفع رأسه ليرى ما قد رأيناه نحن، هذه القرية الغارقة بضوء القمر المبهر فى ليلة أغسطسية تتقولب فيها كل التضاريس، وتخفف ظلالهم التى أنشأتها وفى الوقت نفسه تجعل الأماكن المضيئة لامعة. الصوت الذى حافظنا عليه أعلن عن نفسه فى النهاية، إنها قرية، إنها قرية. ربما لأنهم وصلوا منهكين لم يخطر ببال أحد فكرة صعود المنحدر ليروا ما كان هناك فى الجانب الآخر. صحيح أن هناك دوماً وقتاً لرؤية قرية، فلو لم يروا هذه سيرون أخرى، لكن ما يقع فى محل شك هو أن نجد فى انتظارنا فى الأولى زوجاً من الثيران، قادراً على تسوية برج من

الزيتون بسحبة واحدة. بعد أن استراح من غيطه، نظف الفيّال نفسه بأفضل المتاح من أعشاب كانت تنمو حوله، وكان سعيد الحظ حيث لم يجد قُرّاص، أو ما يسمى بالقراص المحرق، فتلك كانت ستجعله يقفز كما لو كان يرقص رقصة سان فيتو(*)، فقرصتها وحرقتها قوية جداً لدرجة تتلوى معها مؤخرته اللزجة. مرت سحابة كثيفة فأخفت القمر، وصارت القرية سوداء من جديد، وغاصت كما الحلم فى عتمة مطوقة. لا يهم، ستشرق الشمس فى ساعتها وسيظهر الطريق حتى الإسطبل، حيث تتنبأ الثيران، المجترة الآن، بتغير فى حياتها. اجتاز سوبهرو خط الأشجار الكثيف وعاد إلى مكانه فى المعسكر الجماعى. فكّر فى طريقه أن لو كان القائد مستيقظاً سيهبه، حتى نتحدث بمصطلحات كونية، سعادة العالم الكبرى. ومجد اكتشاف القرية سينسب إلىّ، دمدم. خلال الوقت المتبقى لزوال الليل، ربما رجال آخرون شعروا بضرورة قضاء حاجتهم والمكان الوحيد الذى يستطيعون فيه ذلك بتحفظ هو بين تلك الأشجار، لكن، مفترضين أن هذا الأمر لم يصل، اكتفوا فقط بانتظار شقشقة الفجر لحضور العرض العسكرى الذى يتحتم عليهم طاعته أكثر من طاعة أوامر الأمعاء والمثانة . هذا، فى العمق، من خواص الحيوانات، فلا عجب فيه. بدون الانتهاء من قبول الوضع، قرّر الفيّال أن ينحرف إلى الجزء الذى ينام فيه القائد، من يدرى،

(*) رقصة محلية مشهورة.

فالناس يصيبهم الأرق أحياناً، يصحون بضيق؛ لأنهم فى منامهم اعتقدوا أنهم كانوا موتى، أو يصيبهم الأرق بسبب بقة من الكثيرات التى تختبئ فى ثنايا البطاطين، وتحضر من أجل مص دم النائم. لقد سُجلتْ معلومة أن البقة كانت المخترعة غير المدركة لنقل الدم . أمل خافق، فالقائد كان نائماً، ليس فقط نائماً، بل و يشخر . اقترب حارس من الفيّال ليسأله ماذا كان يفعل هناك، فأجابه سوبهرو أن لديه رسالة يريد أن يبلغها للقائد، لكن، بما أنه نائم، فسيعود هو أيضاً لسريره . فى هذه الساعات لا تُبلّغ الرسائل، بل يُنتظر حتى يطلع الصبح . إنه أمر مهم، أجاب الفيّال، لكن، كما تقول فلسفة الفيل، إن كان غير ممكن فهو غير ممكن . إن أردت بلّغنى الرسالة، وأنا سأعلمه بها عندما يستيقظ . فكّر الفيال فى الإمكانات المتاحة وجزم أن الأمر يستحق أن يراهن على هذه الرسالة الوحيدة، فعندما يخبر الحارس القائد بوجود قرية، مع شقشقة الفجر الأولى، سيسمع صيحته . أبشر، أبشر، هنا توجد قرية . لقد برهنت لنا خبرة الحياة القاسية أنه لا يُنصح بالثقة الزائدة فى الطبيعة البشرية بشكل عام. بداية من الآن، نبقى على علم، على الأقل للمحافظة على الأسرار، إننا لا يجب أن نثق أيضاً فى سلاح الفروسية. حدث أنه قبل أن يعود الفيّال للنوم كان الحارس الآخر على دراية بالخبر، وفى الحال أطلع عليه الجنود الذين كانوا نياماً بالقرب منهما. كانت الإثارة هائلة، أحدهم اقترح أن

يقتربوا من القرية بهدف جمع معلومات عيانية ليرسخوا، تصديقاً من المصدر، الاستراتيجية التى سيتخذونها فى الصباح التالى .الخوف من أن يستيقظ القائد، أن ينهض من مرتبته المحشوة بالقش ولا يرى أياً من الجنود، أو، وهو الأمر الأسوأ، أن يرى بعضهم دون البعض الآخر، جعلهم يتخلون عن مغامرتهم الواعدة . مرت الساعات، ضوء شاحب من الشرق بدأ يرسم منحنى الباب؛ حيث يجب أن تدخل الشمس، فى ذات الوقت كان القمر فى الجانب المواجه يترك نفسه يتهاوى برقة فى أذرع ليل آخر. كنا على هذه الحال، منتظرين لحظة التجلى، ما زلنا مرتابين إن كانت هناك طريقة أخرى للعثور على حل أكثر دراماتيكية، أو، ما يُعبر عنه بالقشدة والعسل، بقوة رمزية أكثر، عندما سُمعت صيحة مفزعة، **قرية**. كنا غارقين فى تأمّلنا فلم ننتبه لرجل نهض وصعد للمنحدر، لكن الآن، نعم، نراه بين الأشجار، نسمعه يكرر إعلان النصر، حتى دون أن يطلب بشارات، كما قد تخيلنا، **قرية**. كان القائد. عندما يحلو للقدر، يكون قادراً على الكتابة بحروف مائلة وبمهارة كإله، أو حتى أفضل منه. جالساً فى بطانيته، فكّر سوبهرو، هذا أفضل، الأمر الآخر كان أسوأ، دومًا أستطيع أن أخبره أننى نهضتُ بالليل وأننى كنتُ أول من رأى القرية . قد يخاطر إن سأله القائد بسخرية فى صوته، كما نعرف سؤاله، ألديك شهود . وهو ما يستطيع فقط أن يرد عليه، واضعًا ذيله بين رجليه، لا

يا سيدى القائد، لقد كنت بمفردى . ألا يكون مجرد حلم . وهل كان حلماً أيضاً المعلومة التى أعطيتها لأحد جنود الخدمة ليبلغك بها عندما تستيقظ . لم يتحدث معى أحد . لكن، سيدى القائد، يمكنك الحديث معه، وأنا أقول لك من هو. انفعل القائد أمام الاقتراح، إن لم أكن فى حاجة إليك لقيادة الفيل، لكنت أرسلتك إلى لشبونة، وتخيل الموقف الذى تضع نفسك فيه، ستكون كلمتك ضد كلمتى، استخرج النتيجة من هذا، إلا إذا كنت تود أن يرحلوك للهند. بذلك حُلتْ قضية معرفة من أول من اكتشف القرية بشكل رسمى، واستعد القائد ليعطى ظهره للفيّال، عندما قال الأخير، ليست هذه هى القضية الأساسية، وإنما معرفة إن كان هناك زوج قوى من الثيران . لن نتأخر فى معرفة ذلك، اشغل نفسك أنت بأمورك، وأنا أتكفل بالباقى. ألا ترغب سيادتك أن أذهب للقرية، سأل سوبهرو. لا، لا أريد، يكفينى أن يذهب الجاويش لينهى ترتيب المجموعة، وكذلك راعى الثيران . فكّر سوبهرو أن القائد محق، على الأقل هذه المرة . فلو كان أحد له حق طبيعى أن يكون هناك، فهو راعى الثيران . كان القائد يتحرّك من هنا إلى هناك مصدرًا تعليماته للجاويش، ولفريق التموين، الذى كانت نيته البدء فى العمل لتموين رجال الحمولة بالأكل الكافى، ففى لا شىء من الوقت قد يفقدون قواهم لمواصلة تناول غذائهم من التين الجاف والخبز العفن. من خَطط استراتيجية هذه المسيرة قد

أصـاب، وبشكل جيـد، يجب أن يفكر أهل القصر أن الناس تستطيع الحيـاة فقط بـالهواء الـذى تتنفسه، همس من تحت ضرسه. كان المعسكر ناهضاً، يطوون البطاطين ويـرتبون العدد، التى يمتلكون منها كمية كبيرة، ربما لا يستخدمون أغلبها، إلا إذا انزلقت رِجل الفيل فى هـوة وكان ضـرورياً إخـراجه بونش. كانت فكرة القـائـد هى مواصلـة المسـيرة عنـد عـودته من القـريـة، سـواء بزوج الثيـران أو بـدونه . كانت الشمس قد ابتعدت عن الخط الأفقى، وصار يومًا صافيًا، لم نسبح فى سمائه سوى بعض السحب القليلة، نتمنى ألا يـصيـر الحـر قـائـظًـا حتى لا تنـهك الـعضلات، فـأحيـانـاً يبدو أن الـعرق سيشـرع فى الـغليـان فـوق الجلـد. نـادى القـائـد لـراعى الثيـران، شرح له إلى ما يذهبون وأوصاه أن يراقب الحيوانات جيداً، فوجودها معهم لأن عليها تتوقف سرعة الحملة والعودة السريعة للشبونة . قال راعى الثيران نعم يا سيدى مرتين رغم أنه لا يهمه الأمر إلا قليلاً، فلم يكن يعيش فى لشبونة، بل فى قرية ليست نائية عنها تسمى مم مارتينس، أو شيء شبيه . ولأن راعى الثيران لم يكن يعرف امتطاء الخيل، وهى حـالـة مـخـزيـة، كـمـا يُـرى، من الـعواقب السلبية للتخصص المهنى المفرط، امتطى بصعوبة سـرج جـواد الجـاويش وذهب هـكـذا، مـصـليـاً صلاة ربانية لا نهائية، بصوت لم يستطع هـو نفسه سماعه، صلاة ذات احترام خـاص لهذا الذى يقال عن غفران الشكوك . أسـوأ مـا فى الأمـر، وأحيـانـاً يصل لـترك

الذيل بالخارج حتى لا نصنع أوهاماً حول طبيعة الحيوان، يأتى فى العبارة التالية، عندما يقال إن واجبنا كمسيحيين هو الغفران لمرتابينا . القدم لا تدخل فى النعل، فإما شىء وإما الآخر، احتج راعى الثيران، فلو غفر البعض ولم يدفع البعض الآخر ما يجب دفعه أين أرباح التجارة، تساءل. دخلوا شارع القرية الأول الذى وجدوه، رغم أنها إشارة لروح هذيانية تسمية هذا بالشارع، فلم يكن سوى طريق يشبه فى زمنه جبلاً روسياً، وسأل القائد أول شخص قابله عن اسمه وأين يعيش رئيس فلاحى المكان . كان الرجل، العجوز الفلاح الذى يحمل على كتفه فأسه، يعرف الإجابة. رئيس الفلاحين هو السيد الكونت، لكنه ليس موجوداً الآن. السيد الكونت، ردد القائد، قلقاً بعض الشىء. نعم، ولتعرف سيادتك أن ثلاثة أرباع هذه الأرض، أو أكثر، ملك له . لكنك قلت إنه ليس موجوداً بالبيت. تحدث سيادتك مع المشرف، فالمشرف هو من يقود المركب . هل سرت بالبحر. فليعرف سيادتك أنه نعم، لكن هذا، ما بين غرقى ومعديين بداء الحَفَر وتعاسات أخرى، نتج عنه عدد هائل من الموتى فقررت العودة لأموت فى أرضى. وأين أستطيع أن أجد المشرف. إن لم تجده فى الحقل ستجده فى مزرعة القصر. أهنا يوجد قصر، سأل القائد متلفتاً حوله. ليس قصراً من القصور الشاهقة ذات الأبراج، هو فقط طابق أرضى وطابق آخر، لكنهم يقولون إنه يحوى بداخله ثراءً يفوق ثراء كل القصور

الكبيرة والصغيرة بلشبونة . أيمكنك أن تقودنا إلى هناك، سأل القائد. من أجل هذا أحضرتنى خطواتى إلى هنا. الكونت كونت ماذا. أجاب العجوز وأطلق القائد صيحة إعجاب، أعرفه، أعلن، ما لم أكن أعرفه أنه يمتلك أراضى فى هذه الأمكنة. ويقولون إنه لا يمتلك فقط أراضى هنا.

لم تكن القرية مثل القرى التى نراها اليوم، ففى الشتاء تكون مثل زريبة خنازير يجرى فيها ماء وسخ ويقطر منها الوحل من جميع جوانبها، الآن يظهر شىء آخر، بقايا متحجرة لحضارة قديمة، مغطاة بالغبار، كما يحدث عاجلاً أم آجلاً للمتاحف المفتوحة. نزلوا فى ميدان وهناك وجدوا القصر. دق العجوز جرس باب الخدمة، وبعد دقيقة ظهر أحد ليفتح ودخل العجوز . لم تكن الأشياء تحدث كما قد تخيل القائد، لكن ربما كان ذلك أفضل . تكفّل العجوز بالخطاب الأول وبعدها سيتكفل هو بلب الموضوع. بعد خمس عشرة دقيقة بالتمام ظهر عند الباب رجل سمين، ذو شارب كبير يشبه الشعر المنسول من مقشة مركب . وجّه القائدُ الجوادَ ليلقاه ومن فوق الجواد، لتتضح جيداً الفروق الاجتماعية، قال كلماته الأولى، هل أنت مشرف السيد الكونت. من أجل خدمة سيادتك. هبط القائد، ومبرهناً على مكره غير الشائع، استغل ما جاء فى الصينية، فى هذه الحالة ستكون خدمتك لى هى خدمة للسيد الكونت ولجلالة الملك . هل تصنع سيادتك فىَّ معروفاً وتشرح لى ما

تـريـده، وأنـا تحت أمـرك فى كل شىء مـا عـدا مـا يتناقض مع نجاة روحى ومصالح سيدى الذى وعدته بالدفاع عنها، فأنا رجله. من جانبى لن أهين مصالح سيـدك ولن أفـقـدك روحـك، والآن نـدخل فى الأمـر الذى جـاء بى إلى هنـا. توقف بـرهـة، وأعطى إيماءة لـراعى الـثيـران لـيقـتـرب، وبدأ، أنـا ضـابط بـسلاح الفروسية الخـاص بجلالة الملك، وقد وضع ثقته فىَّ وكلفنى بالذهـاب إلى بلد الـوليد، بإسبانيا، لأسلّم فيلاً إلى ماكسيميليانو أرشيدوق النمسا الذى يقيم هناك، فى قصـر حماه الإمبراطور كارلوس الخامس. جحظت عينـا المشرف من حدقتيه، وفتح فمه فوق لـغده، وهـى علامـات مشـجّعة تدل على أن القـائـد علّم فى ذهـنه. وواصل، أحضـرت معـى فـى القـافـلـة عـربـة ثيران لنقل جعبـات الزاد التى يأكلها الفيل وبرميل الماء الذى يقتل عطشه، ويشد العـربة زوج من الثيران التى عملت حتى الآن بكفـاءة، لـكننـى أخشـى كثيـراً ألا يكون هـذا الـزوج كافيـاً عنـدمـا يتحتم علينـا مواجهـة منـحـدرات الجبال الـكبيـرة. وافـقه المشـرف بهـزة رأس، لـكنـه لم ينبس بكلمة. أخذ القـائـد نفسـاً عميقـاً، قـال بعض العبارات الـزائـدة، التى كـانت تـدور بـرأسه ودخل مـبـاشـرة فى الموضوع، أحتاج زوجـاً آخر من الثيران لأقرنه بالعربة وأعتقـد أننـى سـأستطيع العثور عليه هنـا. السيد الـكونت لـيس مـوجـوداً، وهـو وحـده من يـسـتـطيـع... قـاطعه الـقـائـد، يـبدو أنك لم تـسـمـع أننـى هـنـا بـاسـم الملك، لست أنـا من أطلب منك أن تـعيـرنـى زوجـاً من الثيران لـعدة أيام، إنمـا جلالـة ملك الـبـرتـغال. لقد

سمعتك يا سيدى، لقد سمعتك، لكن سيدى... ليس موجوداً، أعرف ذلك، لكن مشرفه الذى يعرف واجباته نحو الوطن، موجود . الوطن، يا سيدى . ألم تره من قبل، سأل القائد وألقى بيتاً شعرياً، أترى هذه السحب التى لا تعرف أين تذهب، إنها الوطن، أترى الشمس التى تشرق حيناً وتغرب حيناً، إنها الوطن، أترى صف الأشجار هذا الذى منه، بسراويلى لأسفل، رأيت القرية هذا الفجر، إنه الوطن، بالتالى لا تستطيع أن ترفض أو تضع العقبات أمام مهمتى. إن قلت سيادتك هذا... أعدك بكلمة ضابط فروسية، والآن كفى حواراً، هيا بنا إلى الإسطبل لنرى ما لديكم من ثيران . داعب المشرف شاربه الريفى كما لو كان يستشيره، وفى النهاية قرر، الوطن فوق الجميع، لكن، لأنه مازال خائفاً من عواقب تراجعه، سأل الضابط إن كان سيترك له ضماناً، فأجابه القائد، أترك لك ورقة مكتوبة بيدى وبخطى أؤكد لكم فيها أننى سأعيد لكم بنفسى زوج الثيران بمجرد تسليم الفيل لأرشيدوق النمسا، وأنكم لن تنتظروا سوى ذهابنا إلى بلد الوليد وعودتنا إلى هنا. هيا بنا إذًا إلى الإسطبل، حيث توجد ثيران العمل، قال المشرف. هنا يوجد راعى الثيران، سيصطحبك، فأنا أفهم فقط فى الجياد والحرب، عندما توجد، قال القائد . فى الإسطبل كان هناك ثمانية ثيران. لدينا أربعة أخرى، قال المشرف، لكنها فى الحقل . بإشارة من القائد، اقترب راعى الثيران من الحيوانات، اختبرها بعناية، حيواناً حيواناً، جعل اثنين منها ينهضان بعد أن كانا

راقدين، واختبرهما أيضاً ، وفى النهاية صرّح، هذا وهذا. اختيار جيد، هما أفضل ثورين، قال المشرف. شعر القائد بموجة من الكبرياء تصعد من الضفيرة الشمسية إلى حنجرته . حقيقة، كل إيماءة منه، كل خطوة يخطوها، كل قرار يتخذه، يبرهن على أنه عقلية تكتيكية من الطراز الأول، وجدير بكل امتنان رفيع، وترقية سريعة لدرجة كولونيل، لكى يبدأ. المشرف، الذى كان قد خرج، عاد بورقة وقلم ريشة وهناك كتب ما اتفقا عليه. عندما تلقّى المشرف المستند، كانت يداه ترتجفان من الانفعال، لكنه عاد إلى صفائه عندما سمعه يقول لراعى الثيران، تنقص العُدَد . إنها هنا، أشار المشرف . لم نتجنب فى هذه الحكاية اعتبارات شبه يقينية عن الطبيعة البشرية، ودوناها بإخلاص وعلقنا عليها طبقاً للموضوع المطروح وفكاهة اللحظة. ما لم نكن ننتظره، بصراحة، هو أن يصل يوم يتحتم علينا فيه أن نسجل فكرة كريمة للغاية، شديدة السمو، فى غاية الرفعة، مثل تلك التى عبرت بذهن القائد بومضة البرق، وهى أنه يجب أن يضيفوا إلى شعار أسلحة الكونت مالك هذه الحيوانات، فى ذكرى هذا الحدث، ناقوسين، أو جرسين، كما يسمونه أيضاً. يا ليت هذا النذر يتحقق. ربط الثورين، وسحبهما راعى الثيران خارج الإسطبل، عندما سأل المشرف، والفيل . مطروحاً بهذه الطريقة الريفية والمباشرة، كان من الممكن تجاهل السؤال ببساطة، لكن القائد فكّر أنه مدين لهذا الرجل بمعروف وبالتالى شعور قريب من الامتنان جعله يقول، إنه وراء تلك الأشجار حيث

قضينا الليلة. لم أر فيلاً فى حياتى، قال المشرف بصوت حزين، كما لو أن سعادته وسعادة ذويه تتوقف على رؤية فيل. يا رجل، هذه قضية لها حل، تعال معنا. اذهب سيادتك، وأنا سأسوق البغلة وألحق بك. خرج القائد إلى الميدان، حيث كان الجاويش ينتظره، وقال، لقد حصلنا على زوج الثيران. نعم يا سيدى، لقد مرا من هنا، وكان راعى الثيران يبدو بالعاً عصا من كثرة زهوه بنفسه وهو يجرهما . هيا، قال القائد وهو يمتطى جواده. أمرك يا سيدى، قال الجاويش ممتطياً أيضاً. لحقوا بالطليعة فى وقت قليل، وهناك ظهرت للقائد معضلة جادة، إما أن يسرع حتى المعسكر، ويعلن القصة لقوات الحملة مجتمعة، أو يواصل بزوج الثيران ويتلقى التصفيق بحضور مكافأة عبقريته الحية. احتاج مئة متر من التفكير المكثف ليجد الجواب لمشكلته، وهى الطريقة التى كان من الممكن أن نسميها الطريق الثالث، لو تقدمنا خمسة قرون، بمعنى، إرسال الجاويش أولاً بالنبأ بهدف تجهيز الأنفس بالحماس اللازم للاستقبال. هذا ما سيفعله . لم يكونوا قد ساروا مسافة طويلة عندما سمعوا صوت جرس البغلة الخشن، التى لم يطلبوا منها أبداً أن تركض، ولا حتى أن تسرع . توقف القائد تأدباً، كذلك الجاويش لسبب لا يعلمه، فقط واصل راعى الثيران وزوج الثيران خطواتهم المعتادة، بمعنى، سير الهوينى، كما لو أنهم ينتسبون لعالم آخر وتحكمه قوانين مختلفة . أعطى القائد أمراً بأن يتقدم الجاويش، لكنه سريعاً ما ندم على ذلك . ضيق صدره

كان يزيد من دقيقة لأخرى . كان خطأ غليظاً إرسال الجاويش أولاً . فى هذه الساعة لابد أنه سيتلقى التصفيقات الأولى، الأكثر حرارة، هذه التى ترحب بحماس بالنبأ السار، ولو ظهر البعض، أو حتى الأغلبية بعد ذلك، سيكون مذاقهم مثل الطعام المعاد تسخينه . كان مخطئاً . عندما وصل القائد للمعسكر، ربما ليناقش أمر تقدم راعى الثيران أو مرافقته لزوج الثيران، كان الرجال واقفين مشكّلين صفين، الأجراء فى جانب، والعسكريون فى الآخر وفى الوسط الفيل بفياله جالس أعلاه، كلهم يصفقون بحماس، مطلقين هتافات سرور، إن كان هذا المكان مركب قراصنة لكانت هذه لحظة قولهم: صب رون دبل للجميع. هذا لا يمنع أنه، بعد ذلك، ربما تلوح مناسبة فيأمر بتقديم ربع نبيذ أحمر للصحبة بأكملها . بعد أن هدأت انشراحات الصدر، بدأت القافلة فى تنظيم نفسها . ضم راعى الثيران ثورى الكونت للعربة، كانا أكثر قوة ونشاطاً، وأمامهما وضع الثيران القادمة من لشبونة كى تستريح. ربما كان للمشرف رأى معارض، لكنه، من فوق بغلته، لم يكن يفعل سوى التصليب على نفسه وإعادة التصليب من جديد، دون أن يصدق ما تراه عيناه . إنه فيل، هذا الواقف هناك فيل، كان يدمدم، لا يبلغ طوله سوى أربع عصى، وزلومته، وأسنانه، وأرجله، كم هى أرجل غليظة. عندما شرعت القافلة فى السير، تابعها حتى الطريق . ودّع القائد، وتمنى له سفراً سعيداً وعودة حميدة، وظل ينظر إليها حتى ابتعدت . أدى إشارات وداع كبيرة . لا يظهر لنا فيل كل يوم فى حياتنا .

ليس صحيحًا أن السماء غير مبالية بهمومنا ورغباتنا. فالسماء تبعث لنا باستمرار علامات وإنذارات، وإن لم نلتفت للنصائح المفيدة فهذا لأن الخبرة من جانب وجانب آخر، بمعنى جانبنا وجانب السماء، برهنت أنه لا يستحق العناء إجهاد الذاكرة شبه الضعيفة لدينا جميعًا. العلامات والإنذارات سهلة التفسير إن فتحنا أعيننا، مثل حال القائد عندما هطل مطر سريع لكنه غزير فى نقطة ما من المسيرة. كان هذا المطر بركة بالنسبة إلى رجال الحِمل، المكلفين بالعمل الشاق لدفع عربة الثيران، فهو فعل إحسان على المعاناة التى تخضع لها الطبقات الدنيا . تمتع الفيل سالومون وفيّاله سوبهرو بالطراوة المفاجئة، وهو ما لم يمنع الدليل عن التفكير فى فائدة أن يأتى فى المستقبل بشمسية لمواقف مثل هذه، خاصة فى الطريق إلى فيينا، حتى يستطيع أن يقى نفسه، وهو فى أعلى الفيل جالس، من المطر المتساقط من السحب . من لم يقدر السائل السماوى هم جنود الفروسية، هؤلاء الذين اعتادوا على الزهو بملابسهم

الرسمية الملونة، التى صارت الآن ملطخة ومبللة، كما لو أنهم عائدون بهزيمة من معركة. أما بالنسبة إلى القائد، الذى يتمتع بمرونة روحية مختبرة، فقد أدرك فى الحال أن هناك مشكلة جادة جدًا. مرة أخرى يتم البرهنة على أن الاستراتيجية المرسومة لهذه المهمة كانت مصممة من قبل فريق غير كفء، عاجز عن توقع الأحداث العادية، مثل مطر أغسطس، بينما الحكمة الشعبية تنذر منذ ظلام الأزمنة بأن الشتاء يبدأ بالتحديد مع بداية أغسطس. إن لم يكن وابل المطر مجرد أمر طارئ بعده يعود اعتدال الطقس، ستكون الليالى التى ينامونها فى الهواء الطلق تحت القمر أو القوس المهشم بطريق سانتياجو، قد انتهت. ليس هذا فقط . فعندما يتحتم عليهم البيات فى أماكن مأهولة، كان ضروريًا أن تحتوى تلك الأماكن على مساحة مغطاة لحماية الجياد والفيل، والأربعة ثيران، وبعض عشرات من الرجال، وهذا، كما يمكن أن نفترض، كان أمرًا يصعب الحصول عليه فى برتغال القرن السادس عشر، حيث لم يكونوا قد تعلموا بعد تشييد بواخر صناعية ولا فنادق صغيرة من أجل السياحة. وماذا لو فاجأنا مطر فى الطريق، ليس وابلاً مثل هذا، وإنما مطر مستمر، هذا الذى لا يتوقف خلال ساعات وساعات، سأل القائد، وختم، ليس أمامنا حل آخر سوى أن نحتمله على ظهورنا . رفع رأسه، فحص المكان بعينيه وقال، يبدو أن المطر انقطع الآن، نتمنى ألا يعاود تهديده من جديد. لسوء الطالع عاود التهديد

من جديد . مرتان، قبل الوصول إلى بر الأمان، إن أمكن أن نطلق هذا الاسم على البيوت الصغيرة التى يبلغ عددها العشرين، والتى يبتعد بعضها عن بعضها الآخر، وعلى كنيسة مقطوعة الرأس، أقصد أن بها نصف برج، بلا مركب صناعى على مدى البصر، جادت السماء بوابلين من الأمطار، فى الحال فسّرها القائد، الخبير فى نظام الاتصالات هذا، كإنذارين جديدين من السماء، وشعر بضيق صدر كافٍ عندما رأى أن الوسائل الوقائية اللازمة لم تتخذ، هذه الوسائل التى كانت ستوفر على القافلة المبللة الأنفلونزا والزكام والرشح والالتهابات الرئوية الممكنة . هنا نجد أكبر التباس على السماء، فبما أنها لا تعرف المستحيل، تفكر أن الرجال، والأحداث، طبقًا لما يُقال، على صورة وشبه مستأجرهم القدير، يتمتعون بنفس المزية . كنا نود أن نرى ماذا سيخطر على بال السماء فى موقف القائد، الذى ذهابًا وإيابًا من بيت لبيت بنفس الكلام المكرر، يقول، أنا ضابط سرية الفروسية فى مهمة خدمة أمر بها جلالة ملك البرتغال، والمهمة هى اصطحاب فيل إلى مدينة إسبانية اسمها بلد الوليد، ولا يرى سوى وجوه مرتابة، من ناحية أخرى أكثر منها مبررة، حيث إنه فى تلك الأمكنة لم يسمعوا أبدًا عن سلالة الفيلة وليس لديهم أدنى فكرة عن كيف يكون شكل الفيل . كنا نود أن نرى السماء متسائلة إن كان هناك إسطبل كبير أو، فى حالة عدمه، مركب صناعى، حيث يستطيع الرجال

والحيوانات أن يستريحوا خلال ليلة واحدة، وهو ما لا يعد مستحيلا يكفى أن نتذكر التأكيد الجازم للشهير يسوع ابن الجليل أنه، فى أفضل أوقاته، تباهى بأنه قادر على هدم المعبد وإعادة تشييده بين ليلة وضحاها . ونجهل إن كان لنقص فى الأيدى العاملة أو فى الأسمنت لم يقم بذلك، أو لأنه توصل إلى نتيجة رصينة مفادها أن العمل لا يستحق العناء، معتبرًا أنه لو كان سيهدمه من أجل تشييده مرة أخرى، فمن الأفضل أن يتركه على حاله . مأثرة، هكذا كانت حادثة مضاعفة الخبز والسمك، الذى إن جاء ذكره هنا فذلك ببساطة لأنه، بأمر من القائد وبجهد من فريق الإمدادات بالفروسية، سيقدمونه اليوم كوجبة ساخنة لعدد من الرجال السائرين فى المسيرة . وهو ما لا يعد معجزة صغيرة إن وضعنا فى الاعتبار غياب الراحة واضطراب الطقس . لحسن الطالع لم تمطر. خلع الرجال ثيابهم الثقيلة ونشروها لتجف فوق عصى بطريقة خاصة استغلوا بها حرارة النيران، التى كانت مشتعلة . بعدها لم يكن أمامهم سوى انتظار وصول قدر الطعام، وملاحظة سلوى تقلص المعدة عندما اشتمت أن جوعها سيشبع فى النهاية، والشعور أنهم رجال مثل هؤلاء الذين، فى أوقات مناسبة، كما لو أنه حتمية قدرية نافعة، يأتيهم من يقدم لهم طبق طعام وشريحة خبز .هذا القائد لا يشبه الآخرين، فهو يفكر فى رجاله، بمن فيهم الإضافيون، كما لو كانوا أبناءه . فضلاً عن ذلك، لا يهتم بأمر التدرج الوظيفى، خاصة

فى ظروف مثل هذه، وبالتالى لم يأخذ جانبًا ليأكل بمفرده، فهو هنا، يشغل مكانًا حول القبس، وإن لم يشارك فى الحوارات إلا بقدر قليل فذلك فقط لكى يتيح للرجال فرصة الإحساس بالراحة . فى هذه اللحظة سأل أحد رجال الفروسية سؤالا يدور فى خلد الجميع، وأنت أيها الفيال، أى مصيبة ستفعلها مع الفيل فى فيينا . ربما نفس ما أفعله فى لشبونة، لا شىء مهم، أجاب سوبهرو، سيصفقون له بشدة، سيخرج الكثيرون فى استقباله، وبعدها سينسونه، هذا هو قانون الحياة، نصر ونسيان . ليس دومًا. دومًا ما يحدث هذا للفيلة والإنسان، رغم أننى لا يصح لى أن أتحدث عن الإنسان، إلا أننى لا أكف عن كونى هنديًا فى أرض ليست أرضى، لكن، حسب معرفتى، لم يفلت من هذا القانون إلا فيل واحد فقط. أى فيل هذا، سأل أحد رجال الحمل . إنه فيل كان يحتضر وقطعوا رقبته بعد موته. إذًا انتهى كل شىء هناك. لا، فهم وضعوا رأسه فى رقبة إله كانوا يسمونه جانيش وكان قد مات. حدثنا عن جانيش هذا، قال القائد. سيدى القائد، الديانة الهندية غاية فى التعقيد، لا يدركها سوى رجل هندى، ولا حتى يفهمها جميع الهنود. أعتقد أننى أتذكر أنك أخبرتنى بأنك مسيحى. وأتذكر أننى أجبتك بأننى تقريبًا مسيحى، أيها القائد، تقريبًا . ماذا يعنى هذا فى الواقع، هل أنت مسيحى أم لا . عمّدونى فى الهند وأنا صغير. وبعد ذلك. بعد ذلك، لا شىء، أجاب الفيال ضامًا

كتفيه . ولم تمارس طقوسه أبدًا . لم يستدعونى سيدى، ولابد أنهم قد نسونى . ألم تفقد شيئًا بهذا، قال صوت مجهول لم يكن ممكنًا تحديد مكانه، لكن، مع أن ذلك لا يصدق، كان يبدو نابعًا من لهيب القبس. سادت حالة من الصمت العميق لم يقطعها سوى فرقعات الحطب المضطرم . طبقًا لدينك، مَنْ خلق الكون، سأل القائد. براهما، يا سيدى. هذا هو الإله إذًا. نعم، لكنه ليس الإله الأوحد. اشرح لى. كونه خلق الكون لا يكفى ليكون إلهًا أوحد، فمن الضرورى أيضًا وجود من يحافظ عليه، وهذه مهمة إله آخر، يسمى فيشنو .أهناك آلهة أخرى بالإضافة لهؤلاء، أيها الفيال. لدينا آلاف، لكن الثالث فى الأهمية هو شيفا، المدمر. أتقصد أن ما يحافظ عليه فيشنو يدمره شيفا. لا، سيدى القائد، مع شيفا، يُفهم الموت كعنصر مجدد للحياة .إن كنت أفهم جيدًا، الثلاثة يشكلون ثالوثًا، إنهم ثالوث، مثلما فى المسيحية. فى المسيحية أربعة، يا سيدى القائد، ومعذرة على جرأتى. أربعة، صاح القائد، مدهوشًا، مَن الرابع. العذراء يا سيدى. العذراء خارج هذا، لدينا الأب والابن والروح القدس. والعذراء. إن لم تفسر سأقطع لك رأسك، كما فعلوا مع الفيل . لم أسمع أبدًا عمن يطلب من الرب شيئًا، ولا من يسوع، ولا من الروح القدس، لكن العذراء ليس لديها قدرة لتحكى عن الرجاءات الكثيرة، والحلوات والتوسلات التى تصلها من كل بيت فى كل ساعات الليل والنهار. احذر، فلدينا هنا محاكم

التفتيش، من صالحك ألا تدخل نفسك فى طرق وعرة. إن وصلت إلى فيينا، لن أعود ثانية . ألا تعود إلى الهند، سأل القائد. أنا لم أعد هنديًا. على أية حال أرى أنك تعرف كثيرًا عن دينك الهندى . تقريبًا يا سيدى القائد، تقريبًا. لماذا. لأن كل ذلك كلام، مجرد كلام، وبعيدًا عن الكلام لا يوجد شىء. هل جانيش كلمة، سأل القائد. نعم، هو كلمة تشبه الكلمات الأخرى، فقط يمكن تفسيرها بوجود كلمات إضافية، لكن، مثل الكلمات التى تحاول أن تفسر سواء حققت ذلك أم لا، ويجب عليها فى الوقت نفسه أن تكون مفسَرة، خطابنا سيتقدم بلا قبلة، سيتعاقب الخطأ مع الصواب كما لو أنها لعنة، دون أن يتاح لنا أن نرى الخير من الشر. احك لى عن جانيش. جانيش هو ابن شيفا وبارفاتى، التى تسمى أيضًا دورجا أو كالى، إلهة المائة ذراع . إن كان لها أقدام بدلاً من الأذرع، أكان يمكن أن نطلق عليها أم أربع وأربعين، قال أحد الرجال ساخرًا فى خفاء، كما لو أنه ندم على التعليق بمجرد خروجه من فمه. لم يعره الفيال انتباهًا وواصل، يجب أن أقول، مثلما حدث للعذراء عندكم، إن جانيش جاء من أمه بارفاتى، دون تدخل من الزوج شيفا، وهو ما يفسر أمر أنه، لكونه خالدًا، لم يشعر بالحاجة للإنجاب. ذات يوم، عندما قررت بارفاتى أن تغتسل، أرادت الصدفة ألا يوجد حرس هناك لحمايتها ممن يريد أن يدخل الصالة. حينئذ خلقت تمثالا فى شكل طفل، من معجون قد أعدته لغسلها، ولم يكن ذلك شيئًا آخر غير الصابون.

ونفخت الإلهة حياة فى الدمية، وكان هذا أول ميلاد لجانيش. أمرت بارفاتى ابنها ألا يسمح بدخول أحد، واتبع أوامر أمه بحذافيرها . بعد مرور بعض الوقت، عاد شيفا من الغابة وأراد دخول البيت، لكن جانيش لم يسمح له، وهو، كأمر طبيعى، ما أثار غضب شيفا. عندئذ دار الحوار التالى، أنا زوج بارفاتى، وبالتالى بيتها بيتى. لا أحد يدخل هنا إلا من أرادت أمى، وهى لم تخبرنى أنك تستطيع الدخول . فقد شيفا صبره وأشعل المعركة الحامية مع جانيش، وانتهت بأن قطع الإله رأس خصمه برمح ثلاثى. عندما خرجت بارفاتى ورأت جسد الابن بلا حياة، صارت صرخاتها عواءات غضب، وأمرت شيفا أن يعيد الحياة سريعًا إلى جانيش، لكن، لسوء الطالع، كانت الضربة التى ذبحته شديدة لدرجة أن رأسه خرج منطلقًا لبعيد ولم يجدوها بعد ذلك أبدًا . حينئذ، كملاذهم الأخير، طلبوا العون من براهما، الذى اقترح عليهم أن يستبدلوا برأس جانيش رأس أول كائن حى يجدونه فى الطريق، شريطة أن يكون فى جهة الشمال. أمر شيفا حينذاك جيشه السماوى ليأخذ رأس أى مخلوق يعثرون عليه نائمًا برأسه جهة الشمال. شاهدوا الفيل المحتضر، الذى كان نائمًا بهذه الطريقة، وبعد موته قطعوا رأسه. عادوا حيث كان شيفا وبارفاتى وسلموا إليهما رأس الفيل، الذى وضع فى جسد جانيش، معيدين إليه الحياة من جديد. وهكذا ولد جانيش بعد أن كان قد حيا ومات. حكايا الزمن القديم، دمدم

جندى. مثل تلك الحكايا التى بُعث فيها بعد ثلاثة أيام من كان قد مات، رد سوبهرو. احذر أيها الفيّال، إنك تشطح أكثر من اللازم، أجابه القائد. أنا أيضًا لا أؤمن بقصة طفل الصابون الذى تحول لإله بجسد رجل أكرش ورأس فيل، لكنك طلبت منى أن أشرح من كان جانيش، وأنا لم أفعل سوى طاعتك. حقًا، بقلة احترام مزعج حول يسوع والعذراء لم يقع موقعًا حسنًا فى نفس الحاضرين هنا. ألتمس المعذرة ممن شعر بالإهانة، لكن ذلك لم يكن بسوء نية، أجاب الفيّال. سمع همهمة سكينة، الحق أن هؤلاء الرجال، الجنود منهم والمدنيون، لا يهتمون إلا قليلا بالمجادلات الدينية، وما كان يقلقهم هو أن يتناولوا أمورًا غاية فى الجدلية تحت قبتهم السماوية . عادة ما يقال إن للحوائط آذانًا، فلنتخيل حجم آذان النجوم . فليكن ما يكون، إنها ساعة النوم، حتى ولو كانت ملاءاتهم وبطاطينهم هى الثياب التى يرتدونها، فأهم شىء ألا تمطر فوقهم، وهذا ما استطاع القائد تحقيقه عندما ذهب من بيت لبيت ملتمسًا مأوى لهذه الليلة، لاثنين أو ثلاثة من رجاله . سينامون فى المطابخ، فى الإسطبلات، فى المتابن، لكنهم هذه المرة ببطن ممتلئة، وهو ما يعوض هذه المضايقات والمضايقات الأخرى. بحضورهم بعثروا عددًا من سكان القرية، معظمهم رجال، كانوا يسيرون مأخوذين بالفيل، الذى لم يستطيعوا أن يقتربوا منه خوفًا وظلوا على مسافة عشرين خطوة . كانت التواءة زلومته تحوى كمًا من الطعام الكافى لإشباع الشهية الأولى لسرب من البقر،

فألقى عليهم سالومون نظرة حادة، رغم قصر نظره، ليفهموا بوضوح أنه ليس فيل مسابقة، وإن كان عاملا شريفًا جارت عليه الدنيا بمصائبها، التى سيكون إسهابًا حكايتها، فتركته بلا عمل، أو بقول آخر، مستسلمًا للإحسان العام. فى البداية، تقدم أحد رجال القرية، صلفًا، عدة خطوات عن الخط غير المرئى، الذى تحول فيما بعد إلى حد مغلق، لكن سالومون أرسل إليه ركلة تحذير، أعطت، رغم أنها لم تحقق هدفها، مكانًا لجدال مثير بينهم حول عائلات الحيوانات وعشيرتها. فالبغلة والبغل، والحمار وأنثاه، والحصان والفرسة، من ذوات الأربع، كما يعرف الجميع، وبعضها لخبرتها المؤلمة يرفس، وهو أمر مفهوم جيدًا، حيث إنها لا تتمتع بأسلحة، سواء للهجوم أو للدفاع، لكن الفيل، بهذه الزلومة والأسنان، بهذه الأرجل الكبيرة التى تذكرنا بالمهاريس، كما لو أن ما عنده قليل، فهو قادر على الرفس. تظهر عليه الوداعة فى هيئته عندما يُنظر إليه، ومع ذلك، فى حالات الضرورة، من الممكن أن يتحول لحيوان وحشى. الغريب أنه، مع كونه ينتمى لعائلة الحيوانات السابق ذكرها، أقصد العائلة التى ترفس، إلا أنه ليس له حدوة . فى النهاية، قال أحد الفلاحين، لا يمتلك الفيل كثيرًا لنراه، إن استدار مرة واحدة انتهى الأمر. اتفق معه الآخرون، لو استدار مرة واحدة سنراه بأكمله. كان من الممكن أن ينصرفوا إلى بيوتهم، إلى راحة منازلهم، لكن أحدهم قال إنه مازال يتبقى القليل

هناك، فقد كان يريد أن يسمع تعليقاتهم وهم حول النار . بقوا جميعهم . فى البداية لم يدركوا فيما يتحدثون، لم يفهموا الأسماء، كان لديهم نبرة غريبة، حتى اتضح لهم الأمر عندما توصلوا لمعرفة أنهم يتحدثون عن الفيل وأن الفيل كان إلهًا. الآن يسيرون صوب بيوتهم، إلى راحة منازلهم، يصطحب كل منهم معه ضيفًا أو ضيفين أو ثلاثة بين عسكريين أو رجال الحمل. بقى مع الفيل لحراسته جنديان من الفروسية، وهو ما قوّى فيهم فكرة أنه من الضرورى التوجه للحديث مع القس . أغلقت الأبواب وآوت القرية للسرير فى وسط الظلمة. بعد ذلك بقليل عادوا ليفتحوها فى الخفاء وخرج منها خمسة رجال وساروا ناحية ساحة البئر، وهى نقطة اللقاء التى اتفقوا عليها . كانت فكرتهم التحدث مع القس، الذى سيكون فى سريره فى هذه الساعة وربما نائمًا. كان الموقر معروفًا بمزاجه العصبى عندما يوقظونه فى ساعات غير مناسبة، وهى بالنسبة إليه كل الساعات التى يكون فيها بين أحضان مورفيو. غامر أحدهم بحل بديل، وإن جئنا مبكرًا، سأل. لكن آخر، أكثرهم تحديدًا، أو ببساطة أكثرهم ميلا لمنطق التبصر، اعترض. إن رحلوا هم عند الفجر، سنخاطر بفقدانهم، وسنكون بوجوه الحمقى حينئذ. وقفوا أمام باب الأبرشية، وكان يبدو أن أحدًا من زوار الليل لن يتجرأ على رفع مقرعة الباب. كان لباب مسكنه أيضًا مقرعة لكنها أصغر من أن توقظ المستأجر. فى النهاية، كطلقة مدفع فى صمت القرية الحجرى،

انطلقت مقرعة الأبرشية بصوت الحياة . كان يجب أن تنطلق مرتين قبل أن يسمع من الداخل صوت القس الخشن والساخط . مَنْ بالباب . بكل وضوح، لم يكن من الكياسة والراحة الكلام عن الرب فى وسط الشارع، خاصة لو كان بينهم حوائط وباب من الخشب السميك . لن يمر وقت طويل دون أن يرهف الجيران السمع للأصوات العالية، التى سيضطر المتحدثون لاستخدامها فى حوارهم، محولين بذلك قضية لاهوتية خطيرة إلى أسطورة الموسم. فُتح باب السكن أخيرًا وظهر رأس القس المستدير . ماذا تريدون فى هذه الساعة من الليل. ترك الرجال باب الأبرشية وتقدموا، على أطراف أصابعهم، حتى وصلوا للباب الآخر. أيحتضر أحد، سأل القس. قالوا جميعهم لا يا سيدى. إذًا، ألح خادم الرب، متدثرًا بالبطانية الملقاة على كتفيه بشكل أفضل. لا نستطيع الحديث بالشارع، قال أحدهم . تأفف القس، إن لم تستطيعوا الحديث بالشارع، تعالوا غدًا إلى الكنيسة. يجب أن نتحدث الآن يا سيدى القس، فغدًا سيكون الوقت قد فات، فالأمر الذى جئنا من أجله إلى هنا غاية فى الجدية، إنه أمر يتعلق بالكنيسة. بالكنيسة، ردد القس، مصابًا فجأة بالقلق، معتقدًا أن كمرة السقف قد سقطت. نعم يا سيدى، بالكنيسة. ادخلوا إذًا، ادخلوا. دفعهم حتى المطبخ، الذى لا يزال تتبقى به جمرات حطب محترق، أشعل شمعة، وجلس على مقعد وقال، تحدثوا . تبادل الرجال النظر بعضهم لبعض، مترددين حول من يجب أن يكون المتحدث، لكن كان

اضحًا أن الوحيد الذى يمتلك الشرعية فى الواقع هو من قال إنه سيذهب ليسمع التعليقات فى المجموعة التى تضم القائد والفيّال. لم يكن ضروريًا التصويت، فالرجل المشار إليه كان قد بدأ الحديث. يا سيدى القس، الرب فيل. تنفس القس الصعداء، كان هذا أفضل من أن يسقط عليه السقف . الإله يتمثل فى جميع مخلوقاته، قال. حرّك الرجال رءوسهم موافقة، لكن المتحدث، أكثرهم اطلاعًا على حقوقه ومسئولياته، ألح، لكن ولا واحدة فيها هى الإله. هذا ما كان ينقص، أجاب القس، لدينا هناك عالم مفعم بالأرباب، ولن يتفاهموا فيما بينهم، فكل واحد فيهم يعتنى بمصلحته. يا سيدى القس، ما سمعناه بآذاننا هذه التى سيأكلها الدود، هو أن الفيل الواقف هناك إله. مَنْ تفوه بهذه الفظاعة، سأل القس مستخدمًا كلمة غير معتادة فى القرية، وهو ما يعنى إشارة غضب واضحة. قائد الفروسية والرجل الجالس فوق. فوق ماذا. فوق الإله، فوق الحيوان. تنفس القس بعمق، احتوى الرغبات التى كانت تتسع بداخله بشكل متطرف، وسأل، هل أنتم سكارى. لا يا سيدى القس، أجابته الجوقة، فمن الصعب أن نكون سكارى فى مثل هذه الأيام، فالخمر غالى السعر. إذًا، إن لم تكونوا سكارى، وإن ما زلتم مسيحيين طيبين رغم هذه الأكذوبة، فاسمعونى جيدًا. اقترب الرجال حتى لا يفقدوا كلمة واحدة، والقس، بعد أن تنحنح ليزيل خشونة الحلق، التى ظن أنها نتيجة خروجه المفاجئ من دفء الملاءات لبرودة الجو الخارجى، بدأ

خطبته، بوسعى أن أرسلكم للبيت بعمل تكفيرى، ببعض الصلوات وبعض الكلام الملائكى، وألا أفكر مجددًا فى هذا الأمر، لكن بما أنكم جميعًا تبدون لى من ذوى العقيدة النقية، فغدًا، قبل طلوع الشمس، سنذهب معًا، بصحبة عائلاتنا، وجيراننا الآخرين فى القرية، إلى من يتحتم عليكم إبلاغهم، حتى مكان الفيل، لا لنحرمه كنسيًا، لأنه، لكونه حيوانًا، لم يتلق سر التعميد المقدس ولا يستطيع أن يرحب بالخيرات الروحية التى تمنحها الكنيسة، وإنما لتنقيته من أى تملك شيطانى قد دخله عن طريق خبث فى طبيعته الحيوانية، كما حدث للألفى خنزير التى غرقت فى بحر الجليل، كما تتذكرون بالتأكيد . فتح مجالاً لوقفة، وبعدها سأل، مفهوم. نعم، يا سيدى، أجابوا جميعًا، باستثناء المتحدث الذى كان يتناول مع الوقت مهمته بجدية أكبر. يا سيدى القس، قال، هذه الحالة كثيرًا ما دارت فى رأسى . لماذا. لا أفهم لماذا كان يجب أن تموت هذه الخنازير، حسنًا أن يقوم يسوع بمعجزة طرد الأرواح النجسة من جسد جيراسين، لكن قبول أن تدخل فى الخنازير المسكينة التى لا علاقة لها بالأمر، فهذا لا يبدو لى طريقة مثالية لإنهاء العمل، بخاصة لكونها شياطين خالدة، ولو لم تكن كذلك لقضى الرب على السلالة بمجرد مولدها، ما أريد أن أقوله إنه قبل أن تسقط الخنازير فى الماء لابد أن الشياطين قد هربت، فى رأيى أن يسوع لم يحسبها جيدًا . وأنت من تكون لتقول إن يسوع لم يحسبها جيدًا . إنه مكتوب، يا سيدى البابا. لكنك لا تعرف

القراءة. لا أعرف القراءة، لكننى أعرف الإنصات. ألديك الكتاب المقدس فى بيتك. لا يا بابا، فقط العهد الجديد، الذى كان جزءًا من كتاب مقدس، لكن أحدًا انتزعه منه . ومَنْ يقرؤها عليكم. ابنتى الكبيرة، الحق أنها لا تستطيع إلى الآن أن تقرأها بإجادة، لكن بفضل تكرارها لنفس ما تقرأ، نفهمها فى كل مرة بشكل أفضل. توازنًا مع هذه الأفكار والآراء، وهى أسوأ ما يكون، إن جاءت محاكم التفتيش هنا ستكون أول من يشنقونه. لابد للموت من سبب، سيدى البابا. لا تقص على مسامعى هراءات، دعك من العهد الجديد وانتبه لما أقوله أنا فى الكنيسة، فإرشادكم للطريق القويم هى مهمتى ولا تهتم بأحد غيرى، وتذكر أن من يدخل يده فى عش الدبابير لابد أن يقرصه دبور. حقًا يا بابا. ومن الآن فصاعدًا، لا أود أن أسمع كلمة، وإن جاءنى أحد، غير الموجودين هنا، ليحدثنى فى هذه الأمور، التى هربت من ألسنتكم سيتعرض لعقوبة الحرم الكنسى الأكبر، حتى لو تحتم عليه الذهاب سيرًا على القدمين إلى روما ليقدم اعترافًا شخصيًا . قام القس بوقفة دراماتيكية، وبعدها سأل بصوت خشن، أفهمتم. نعم يا بابا، فهمنا . غدًا، قبل طلوع الشمس، أريدكم جميعًا فى باحة الكنيسة ، وأنا، راعيكم، سأتقدمكم، ومعكم، بكلمتى وحضورى، سنقاتل من أجل ديننا المقدس، وتذكّروا، الشعب المتحد أبدًا لا يُهزم.

أشرق النهار مغيمًا، لكن أحدًا لم يته، وعثروا جميعهم، فى وسط ضباب كثيف مثل البطاطس

المهروسة، على الطريق نحو الكنيسة، كما عثروا من قبل على معسكر الضيوف حيث استضافوهم فى مساكنهم . اجتمعوا جميعهم هناك، من أصغر مخلوق يرضع بين ذراعى أمه حتى أكثر رجال القرية شيخوخة ومازال يستطيع السير بفضل الاتكاء على عكاز كان يستخدم كساق ثالثة. الحمد لله أنه ليس لديهم أرجل مثل أم أربع وأربعين، التى عندما تصل للشيخوخة تحتاج إلى عدد كبير من العكاكيز، وهكذا النتيجة النهائية تنتهى فى مصلحة الجنس البشرى، الذى لا يحتاج سوى لثلاثة، باستثناء الأحوال الحرجة، التى فيها تغيّر تلك العكاكيز اسمها فتصير عكاكيز العرج . وهذا النوع من العكاكيز ـ بفضل العناية الإلهية الساهرة ـ لا يوجد فى القرية . كان الطابور يسير بخطى شديدة الثبوت، ساحبين قوتهم من هزالهم، المستعد لكتابة صفحة جديدة من البطولة المتفانية فى حوليات القرية، بينما القرى الأخرى ليس لديها ما تقدمه ليقرأه المتظاهرون بالعلم، الذين فقط نولد ونعمل ونموت. سارت أغلب النساء مسلحات بالمسبحات يدمدمن بالأمجاد، أغلب الظن لكى يدعمن حماس القس، الذى كان يتقدم عليهن، مزوداً بالمرشة وقارورة الماء المقدس. وبسبب الضباب، لم يتبعثر رجال القافلة كما يفرض المنطق، بل انتظروا فى مجموعات صغيرة وجبة الصباح، بمن فيهم العسكريون، وهم أول من استيقظوا عند الفجر، حيث كانوا قد ألبسوا الجياد أطقمها. عندما بدأ الجيران

يخرجون من بوريه البطاطس، تحركت المجموعة المسئولة عن الفيل بشكل فطرى لملاقاتها، يتقدمهم عسكر الفروسية لطبيعة مهمتهم . وعندما صاروا فى متناول الصوت، توقف القس، رافعًا يده فى إيماءة سلام، ألقى عليهم التحية وسأل، أين الفيل، نريد أن نراه . اعتبر الجاويش أن السؤال والطلب منطقيان وأجاب، خلف تلك الأشجار، لكن لمشاهدة الفيل عليكم أولا التحدث مع قائد القافلة ومع الفيال. مَنْ الفيال. هو الرجل الجالس أعلى. أعلى ماذا. أعلى الفيل، ماذا كنت تظن . لا أعرف ماذا تعنى، فقط أعرف أنه أعلى، تبدو الكلمة قادمة من الهند. الحوار، بصورته هذه، كان يهدد بأبدية عدم إعطاء السبب لاقتراب القائد والفيال، اللذين جاءا بفضولهما عندما لاح لهما، عبر الضباب الذى بدأ فى الزوال رويدًا رويدًا، ما يمكن أن يكون جيشين متواجهين. ها هو القائد قد حضر، قال الجاويش، سعيدًا بوجوده خارج حوار كان يثير أعصابه. قال القائد، صباح الخير عليكم جميعًا، وسأل، بماذا يمكننى مساعدتكم. كنا نود أن نرى الفيل . هذه ليست الساعة المناسبة، تدخل الفيال، لقد استيقظ الفيل بحالة سيئة. رد القس على هذا، بالإضافة لرؤيتى ورؤية شياهى له، أريد أيضًا أن أباركه للمسيرة، وأحضر معى القماشة والماء المقدس . إنها فكرة رائعة، قال القائد، فحتى الآن ولا كاهن ممن قابلناهم فى الطريق عرض علينا مباركة سالومون . من سالومون، سأل القس. الفيل

يسمى سالومون، أجاب الفيّال . لا يبدو لى ملائمًا تسمية الحيوان باسم إنسان، فالحيوانات ليسوا أناسًا والناس ليسوا حيوانات كذلك. من هذا الأمر لست متيقنًا، أجاب الفيّال، الذى بدأ يغضب من المخاطبة. هنا يكمن الفرق بين من تعلم ومن لم يتعلم، أضاف القس بغطرسة مذمومة. بعدها توجه للقائد وسأله، أتعطينى سيادتك الإذن لأتم واجبى ككاهن. من جانبى نعم أيها الأب، رغم أن الفيل لا يقع تحت سلطتى، بل سلطة الفيال . وبدلاً من أن ينتظر ليتوجه إليه القس، اقترب سوبهرو بنبرة صوت لطيفة وبشكل مرتاب، لكونك قسًا، سيدى الأب، فسالومون كله لك. حسنًا، لقد حان الوقت لأنبه القارئ أنه هناك شخصان لا يتمتعان بالنية الحسنة . أولهما، القس، الذى على عكس ما يؤكد لا يحضر ماءً مقدسًا، بل ماء بئر سحبه مباشرة من دورق المطبخ، بدون أى اعتبار، واقعى أو رمزى، لما هو سماوى، وثانيهما، الفيال، الذى ينتظر حدوث شيء ويصلى للإله جانيش ليحدث حقيقةً. لا تقترب أكثر من ذلك، حذره القائد، انظر فطوله ثلاثة أمتار ووزنه أربعة أطنان، إن لم يكن أكثر. لا يمكن أن يكون خطيرًا مثل حيوان لوباثان، الذى قهروه من أجل حياة الدين المقدس، كاثوليكيًا وحواريًا ورومانيًا والذى أعتنقه. لقد حذرتك، والمسئولية مسئوليتك، قال القائد، الذى بخبرته العسكرية قد سمع عن خطوات شجاعة كثيرة ونتائج ثابتة وحزينة لأغلبها. أغرق القس القماشة فى الماء،

وتقدم ثلاث خطوات، ورش بها رأس الفيل فى الوقت نفسه الذى كان يدمدم بكلمات تبدو فى ظاهرها لاتينية، لكن لم يفهمها أحد، ولا حتى الجزء القليل المستنير من الحضور، بمعنى، القائد، الذى قضى بعض سنوات فى المدرسة الإكليركية، نتيجة لأزمة صوفية ربما سينتهى من الشفاء منها بنفسه. واصل الرجل الورع عمله، ورويدًا رويدًا، مضى يقترب من الطرف الآخر للحيوان، وهى الحركة التى وافقت سلسلة صلوات الفيال للإله جانيش والاكتشاف المفاجئ، من قبل القائد، بأن كلمات القس وإيماءاته تنتمى لكتاب طرد الأرواح الشريرة، كما لو أن الفيل المسكين ممسوس بشيطان. هذا الرجل مجنون، فكّر القائد، وفى اللحظة نفسها التى واتته هذه الفكرة، رأى القس هاويًا على الأرض، والقماشة فى جانب والقارورة فى الجانب الآخر، والماء المقدس المزيف مسكوبًا . تقدمت الشياه لمساعدة راعيها، لكن الجنود تدخلوا لتجنب الصدامات والارتباكات، ولو فكروا جيدًا، لكان أفضل أن يفعلوا، لأن القس، الذى ساعده أبطال محليون، كان يحاول النهوض، بألم ظاهر فى فخذه الأيسر لكن، طبقًا لكل الأعراض، دون أى كسر فى عظمه، وهو ما يمكن اعتباره، إن وضعنا فى حسباننا سنه المتقدمة وجسده المترهل، واحدة من أكثر المعجزات المنتهية للقديسة راعية المكان. ما حدث حقيقةً، ولن نصل أبدًا لمعرفة السبب، أمر غامض لا يمكن تفسيره يمكن ضمه لأمور أخرى كثيرة، فسالومون، عندما كان على بعد أقل من شبر ليسدد

رفسة فظيعة بدأ فى إطلاقها، كبحها وخفف الصدمة، لهذا لم تكن الآثار أكثر من آثار دفعة جادة، لكنها تُعرض للخطر وتحمل نية القتل. ولأنه كان ينقصه هذه المعلومة المهمة، مثلنا تمامًا، اقتصر القس، المرعوب، على قول، إنه عقاب السماء، إنه عقاب السماء. وبداية من اليوم، عندما يتحدثون عن الفيلة فى حضوره، ولابد أنها ستكون مرات كثيرة، بعد أن رأوا ما جرى هنا، فى صباح مغيم، أمام عدد هائل من الشهود العيان، سيقول دومًا إن هذه الحيوانات، الوحشية بشكل ظاهر، لحيوانات ذكية، وفضلا عن أنها تدرك اللاتينية، هى قادرة على تمييز الماء المقدس من غيره. سائرًا بعرج، ترك القس نفسه ليحملوه على كرسى بذراعين من الأبنوس الأسود، مصنوع على طراز كراسى الدير، وهو عمل ثمين من الخشب، ذهب أربعة من أكثر خدامه رقة ليحضروه من الكنيسة. ولن نكون هنا عندما ينظمون العودة للقرية. ستكون المناقشة حادة، كما هو متوقع من أناس قليلا ما يمارسون تمارين لعقولهم، رجال ونساء يصلون لاستعمال أياديهم لأمور تافهة، حتى عندما، كما هو الحال، يكون الأمر مجرد قرار حول عمل خيرى مثل حمل راعيهم إلى بيته وتركه فى فراشه. لن يقدم لهم القس مساعدة كبيرة لفض النزاع؛ لأنه سيقع فى سبات سيشغل الناس أجمعين، باستثناء ساحرة المنطقة، اهدءوا، قالت، ليس هناك علامات لموت قريب، لا اليوم ولا الغد، والأمر قد يحل بدعك الأجزاء المضرورة بشكل جيد وبعض الماء المغلى

لإيقاف النزيف وعدم ترك الجرح للتلوث، والآن كفوا عن المشادات التى تنتهى دومًا بتهشيم الرءوس، فما يتحتم عليكم فعله هو التناوب كل خمسين خطوة، وكلكم أصدقاء . وكانت الساحرة محقة .

كانت القافلة برجالها وجيادها، بثيرانها وفيلها، مختبئة بشكل قاطع وراء الشبورة، حد أنه لا يمكن تمييز المسيرة التى تشكل نتوءًا هائلا فى المنظر. سيتوجب علينا أن نركض لنلحق بها. لحسن الطالع، إن وضعنا فى الاعتبار الوقت القليل الذى بقينا فيه لحضور الجدال بين هراقلة القرية، لم تستطع القافلة السير بعيدًا جدًا. فى وضع الرؤية الطبيعى أو الضباب الأقل من هذا الضباب الذى يشبه البوريه، كان سيكفى تقفى أثر أخاديد عجلات عربات الثيران الغليظة وعربات التموين فى الأرض اللينة، لكن، الآن، حتى لو حككنا أنوفنا فى الأرض لن نتمكن من اكتشاف أنه من هنا قد عبر بشر. وليس فقط بشر، بل حيوانات أيضًا ـ كما سبق وقلنا ـ بعضها يحمل أثقالا، مثل الثيران والجياد، وبخاصة صفيق الجلد كما يُقال فى القصر البرتغالى مثل سالومون، الذى لابد أن قدميه تتركان فى الأرض آثارًا هائلة، شبه مستديرة، مثل آثار ديناصورات ذات أقدام دائرية، إن وجدوها ذات يوم . وبما أننا نتحدث عن حيوانات، فقد يبدو مستحيلاً أن يخطر ببال أحد فى لشبونة إرسال كلبين أو ثلاثة. فالكلب تأمين للحياة، دليل اتجاهات، بوصلة لها أربع أرجل. يكفى أن نقول له،

ابحث، وفى أقل من خمس دقائق نراه عائدًا، محركًا ذيله وبعينين لامعتين من السعادة . لم تهب ريح، مع ذلك تبدو الغمامة متحركة فى زوبعات بطيئة كما لو كان إله الريح الشمالية بنفسه ينفخ فيها من أكثر نقطة مختبئة فى الشمال حيث الثلوج الأبدية. السيئ فى الأمر، نعترف بذلك، هو أنه فى موقف حساس مثل هذا يأتى شخص ويبدأ فى تلميع النثر بإضافة بعض الانعكاسات الشعرية دون إطلالة من الأصالة . فى هذه الساعة لاحظ رفقاء المسيرة غياب الغائبين، اثنان تبرعا بالتراجع لإنقاذ الغريق التعيس، وهذا أمر يشكران عليه إن لم يكن بسبب شهرة الكرسى، الذى سيبقى معه ما تبقى من حياته. تخيلوا، يقول الصوت العام، الرجل الجالس هناك ينتظر أن يظهر أحد لإنقاذه، هناك بشر لا حياء لهم . الحق أنه بقى جالسًا، لكنه الآن نهض وخطى بكل شجاعة خطوته الأولى، بقدمه اليمنى أولاً، ليطرد أذى الطريق وحلفاءه الأقوياء، الحظ والصدفة، وقدمه اليسرى مترددة فجأة، ولم يكن الحال أقل من ذلك، فقد اختفت الأرض تحت قدميه، كما لو أن دوران غمامة جديدًا بدأ فى الصعود. فى الخطوة الثالثة لا يستطيع حتى أن يرى يديه الممتدتين للأمام، مثل من يود أن يحمى أنفه من صدمة باب مفاجئة. حدث ذلك عندما لاحت له فكرة أخرى، فكرة أن الطريق به منحنيات فى جانب والجانب الآخر، وأن الطريق المختار، وهو خط لا يريد فقط ألا يكون مستقيمًا، بل لا يريد أيضًا أن يحتفظ بثباته فى هذا الاتجاه، سيحمله فى النهاية

إلى صحراوات حيث تكمن تيهة كينونته، تيهة روحه وجسده على السواء، وسيكون مؤمّنًا، فى الحالة الأخيرة بعواقب فورية . وكل هذا، آه أيها الحظ الملعون، بلا كلب ليجفف الدموع عندما تصل لحظة البكاء . كان يفكر فى العودة للخلف لا يزال، وطلب الحماية فى القرية حتى يذوب لوح الضباب من تلقاء نفسه، لكن، فاقدًا حاسة التوجه، ملتبسة أمامه الاتجاهات الأساسية كما لو كان فى فضاء خارجى لا يعرف عنه شيئًا، لم يجد إجابة أفضل من الجلوس على الأرض من جديد وانتظار أن يقوم القدر، الصدفة، الحظ، أى منها أو كلها مجتمعة، بإحضار المتفانين المتطوعين حتى الشبر الصغير فى الأرض التى ينام فوقها، مثل جزيرة فى المحيط، منعزلة. أو بتعبير آخر، إبرة فى كوم قش. بعد مرور ثلاث دقائق، كان نائمًا . كائن غريب هذا الحيوان المسمى إنسان، لديه قدرة هائلة على الأرق لأسباب لا معنى لها وله أسباب مساوية لينام فاردًا ساقيه ليلة المعركة. وهذا ما حدث . توغل فى النوم، وقابل للتصديق أنه حتى اليوم كان سيظل نائمًا إن لم يطلق سالومون، فجأة، فى أى مكان من الغمامة، قُباعًا مسببًا للصمم يمكن أن تصل أصداؤه حتى الضفاف البعيدة بجانجا . مصعوقًا من يقظته بشكل وحشى، لم يستطع أن يميز أى اتجاه من الممكن أن يكون مصدر الصوت الرنان الذى قرر أن ينقذه من تجمد حتمى، أو الأسوأ من ذلك، أن يصير ملتهمًا، لأن هذه أرض ذئاب. ورجل وحيد وأعزل ليس أمامه طريق للنجاة أمام سرب من

الكلاب أو واحد من الفصيلة نفسها . كانت الصيحة الثانية لسالومون أكثر قوة من الأولى، بدأت بنوع من القرقرة الصماء فى هوات حنجرته، مثل قرع الطبول، وتبعه صوت البوق المنبور الذى يكوّن صيحة هذا الحيوان. مضى الرجل عابرًا الضباب مثل فارس يطلق الرمح من فوق مسنده، بينما يتضرع فى سره، سالومون مرة أخرى، من فضلك، مرة أخرى. فيجيب عليه سالومون بإطلاق قباع جديد، أقل حدة، كتأكيد بسيط، لأن الغريق الذى كان لم يصر غريقًا، ها هو يقترب، هاهى عربة تموين الفروسية، لا يمكنهم تمييز التفاصيل لأن الأشياء والأشخاص مثل البقع الملتبسة، هناك فكرة أخرى تخطر ببالنا، ليست مريحة على الإطلاق، نظن أن هذا الضباب من النوع الذى يأكل الجلد، جلد الأفراد، جلد الجياد، جلد الفيل نفسه رغم سمكه، ضباب تعجز النمور أن تلتهمه، فليس كله سواء، وذات يوم سيصرخ جاس، وآه من هذا الذى لا يحمل فى رأسه خوذة مضبوطة . يسأل الغريق جنديًا مارًا، ممسكًا بزمام جواد، إن كان المتطوعون قد عادوا من مهمة الإنقاذ والنجدة، فيجيب على سؤاله بنظرة ريب، كما لو كان أمامه محرض، وأمثاله كانوا كثيرين فى القرن السادس عشر، ويكفى أن نبحث فى أرشيفات محاكم التفتيش، ثم يرد بجفاء، من أين جاءتك هذه الخيالات، لم يكن هنا أى طلب لمتطوعين، فمع ضباب كهذا ليس هناك سوى الحل الوحيد الرصين الذى تناولناه، فضلاً عن ذلك، لا يتوافق

طلب متطوعين مع طريقة القائد، وبشكل عام نقتصر على تسجيلك أنت، أنت وأنت، أنتم، للأمام، سر، فالقائد يقول يا أبطال، يا أبطال، وإما أن نكون جميعنا أبطالاً أو لا أحد. ولكى يبدى رغبته الحقيقية فى إنهاء الحوار، امتطى الجندى فرسه، وقال إلى اللقاء واختفى فى الغيمة . لم يكن راضيًا عن نفسه. لقد أعطى تفسيرات لم يطلبها منه أحد، وقال تعليقات لم يكن مصرح له بها. مع ذلك، رغم أنه لا يتمتع بالجسم المناسب، لابد أنه كان ينتمى، وليس هناك احتمالية أخرى، ولنعرف ذلك، إلى المجموعة التى تعاقدوا معها للمساعدة فى دفع عربات الثيران فى الخطوات الشاقة، وهم أناس قليلو الحديث، ضيقو الخيال فى البداية . فى البداية، قلها هكذا، لأن الرجل الذى يتوه فى الغمام لا يبدو أنه ينقصه خيال، فبعد رؤية الخفة التى جذبها من لا شىء، عما لم يحدث، كان يجب أن يذهب المتطوعون لإنقاذه. ولحسن الطالع ولأجل إيمانه العام، لم يكن الفيل شيئًا آخر. فالفيل، بكل بساطة، إما أنه يوجد أو لا يوجد، وبالتالى فهذه ساعة زيارته، ساعة تقديم الشكر له على الطاقة التى استخدم بها زلومته المنقذة التى وهبها له الرب، فلو كان هذا المكان هو وادى جوسافات لبُعث الموتى، لكن بما أنه ليس كذلك، هو فقط قطعة بدائية لأرض برتغالية غارقة فى الضباب حيث يوجد بها شخص، أحد، كان على وشك الموت من البرد والهجر، سنقول، حتى لا نفقد كلية التشبيه

المفيد الذى مثلنا به، إنه هناك بعث يدار بشكل ممتاز ومن الممكن تنفيذه قبل أن يقع للهدف نفسه . كما لو كان الفيل قد فكر هكذا، هذا الشيطان المسكين سيموت، سأبعثه. وها نحن نرى الشيطان المسكين يتمزق شكرًا، يوجه امتنانه للحياة كلها، حتى قرر الفيّال أن يسأله، ما الذى فعله الفيل لتشكره بهذا الشكل. لولاه، لمت بردًا والتهمتنى الذئاب. كيف ذلك إن كان الفيل لم يخرج من هنا منذ استيقظ. لم يكن فى حاجة للخروج من هنا، كان يكفى أن ينفخ بزلومته، لقد كنت تائهًا فى الضباب ولم ينقذنى سوى صوته. إن كان من حق أحد أن يتحدث عن أعمال وأفعال سالومون، فهو أنا، فمن أجل هذا أنا فيّاله، وبالتالى لا تأت بهذه الحيل قائلاً إنك سمعت قباعه. قباع واحد، لا، هى قباعات ثلاث سمعتها بأذنىّ هاتين اللتين سيأكلهما التراب. فكّر الفيّال، هذا الفلان مجنون لابد من وثاقه، ذهب عقله على الأرجح مع حمى الغمامة، لقد سُمع من قبل عن حالات مشابهة . بعدها، بصوت مرتفع، حتى لا نبقى هنا فى نقاش حول قباع حدث، قباع لم يحدث، قباع ربما، اسأل هؤلاء الرجال القادمين إن كانوا قد سمعوا شيئًا. كان منظر الثلاثة رجال المرتجف والمهتز فى كل خطوة يثير الرغبة الفورية فى سؤالهم. أين تريدون أن تذهبوا فى هذا الطقس. نعلم أن هذا ليس السؤال الذى يود طرحه مجنون القباعات فى هذه اللحظة، كما نعلم الإجابة التى سيتفوهون بها. ما لا نعلمه هو إن كان بعض هذه

الأشياء مرتبطًا ببعضها الآخر، وما هى، وكيف. الحق أن الشمس، مثل مكنسة مضيئة وهائلة، مزقتْ الضباب فجأة ودفعته بعيدًا. ظهرت الطبيعة بشكل واضح كاشفة منظرها الدائم، أحجار، أشجار، هوات، جبال. واختفى الثلاثة رجال من هنا. يفتح الفيَّال فمه ليتكلم، لكنه يضمه من جديد. بدأ مجنون القباعات فى فقد ثباته وصوته، وانكمش، وعاد مستديرًا، شفافًا مثل مضخة الصابون، إن كان الصابون السيئ، الذى كان يصنع فى تلك الأزمنة قادرًا على تشكيل هذه الكريستالات العجيبة التى اخترعها أحدهم بعبقريته، واختفى فجأة عن الرؤية. أصدر صوت طقطقة وتبخر. هى محاكاة أصوات العناية الإلهية. تخيلوا لو أنه توجب علينا كشف عملية تبخر الهدف بكل تفاصيلها . ربما تكون ضرورية، وتستهلك، على الأقل، عشر صفحات. طقطقة .

أرادت الصدفة، ربما بسبب بعض تغيرات الطقس، أن يجد القائد نفسه يفكر فى زوجته وولديه، هى حامل فى شهرها الخامس، وهما صبى وطفل، فى السادسة والرابعة تباعاً. وكان أهل هذه الأزمنة حديثى الخروج من الوحشية الأولى، يعيرون قليلاً من الاهتمام للمشاعر الرقيقة التى نادراً ما يستخدمونها. ومع أنه يلاحظ هنا شىء من ثوران العواطف فى بناية الهوية القومية المتماسكة والملتحمة والمنهكة، إلا أن الحنين وتبعاته الثانوية لم تكن قد دخلت البرتغال بعد مع فلسفة الحياة المعتادة، وهو ما أعطى أصلاً لصعوبات ليست هينة فى الاتصال بين المجتمع بشكل عام، وأيضاً لحيرات ليست هينة فى علاقة كل فرد بنفسه. على سبيل المثال، باسم العقل ناصع الوضوح، ليس من المنصوح به أن نقترب حتى ركاب القائد لنسأله، قل لى أيها القائد، أتشعر بحنين لزوجتك وولديك . ومع أن المستجوَب مجرد تماماً من الذوق والحساسية، كما استطعنا أن نستنبط من مشاهد مختلفة فى هذه القصة، ملاحظين دوماً وبوضوح

تحفظه المتزمت حتى لا يهين حشمة شخصيته، إلا أنه قد ينظر إلينا بدهشة أمام جراءتنا الجلية ويتفوه بإجابة عائمة، هوائية، لا بداية لها ولا نهاية، فيتركنا، على الأقل، بهموم جادة حول حياة الأزواج الحميمية . حقاً لم يعزف القائد أبداً سريناد ولم يكتب سوناتا، ولنعرف ذلك، ولا مرة واحدة على الأقل، لكن ذلك لا يعنى ألا يكون قادراً جداً، ولنقل بالفطرة، على احترام الأشياء الجميلة التى ابتدعها عقل عبقرى من أمثاله . كان من الممكن أن يحضر معه واحدة منها على سبيل المثال، ولفها داخل قماش فى حقيبته، كما فعل ذلك فى حملات أخرى شبه حربية، لكنه هذه المرة فضّل أن يتركها آمنة فى البيت . ولأن مرتبه ضئيل، و يأتى متأخراً فى بعض الأحيان، فضلاً عن أن ميزانية الحملات لا تسمح بالرفاهية كما هو واضح، فكان على القائد، إن أراد جوهرته، التى اشتراها منذ أكثر من عشر سنوات، أن يبيع حمالة سيفه ذات العناصر الثرية، رقيقة التصميم ورفيعة الزينة، التى كان يستخدمها لتزيين الصالون أكثر من أرض المعركة، وهى قطعة طقم عسكرى ثمينة، ورثها عن جده من أمه، ومنذ ذلك الحين صارت غواية لكل من يراها . وبدلاً منها، لكن ليس لنفس الأغراض، نجد مجلداً ضخماً، يحمل عنوان أماديس دى جاولا، ويبدو أن مؤلفه ـ حسب ما يقسم المتخصصون الأكثر وطنية ـ رجل من إقليم الباسك من لوبييرا، برتغالى من القرن الرابع عشر، مع أن العمل منشور فى سرقسطة، بترجمة إسبانية تمت سنة ١٥٠٨ أنجزها

جارثى رودريجيث الذى أضاف إليها عدة فصول عن المغامرات والعشق وعدّل ونقّح النصوص القديمة. يشتبه القائد أن قدوته ابن سفاح، كما ورد فى طبعة من تلك التى نسميها قرصنة، وهو ما يبرهن أن الممارسات التجارية المحرمة تأتى من زمن بعيد. سالومون، كما قلنا من قبل عدة مرات، ونتكلم هنا عن سالومون ملك اليهود، لا عن الفيل، كان محقاً عندما كتب أنه لا جديد تحت الشمس. ومن الصعب أن نتخيل أن كل شىء كان يماثل كل شىء فى تلك الأزمنة الحربية، عندما كانت براءتنا العنيدة تصر على أن نتخيلها أزمنة شعرية، ريفية ورعوية، ربما لأنها قريبة من التجربة الأولى لحضارتنا الغربية.

يقرأ القائد للمرة الرابعة أو الخامسة كتاب أماديس . ومثل أية رواية فروسية، لا ينقصها معارك دموية ولا سيقان وأذرع مبتورة من أصلها ولا أجساد مقطوعة من خصرها، وهو ما يعبر عن القوة الغاشمة لهؤلاء الفرسان الروحيين، ففى تلك الفترة لم تكن معروفة، ولا يمكن تخيل، خواص القطع للمناشير المعدنية بالفاناديوم والموليبدينوم، ومن السهل العثور عليها اليوم فى أى سكين مطبخ، وهو ما يبرهن أننا تقدمنا كثيراً فى هذا الاتجاه . يروى الكتاب بالتفصيل واللذة حكاية العشق الحزين الذى عايشه جاولا وأوريانا، وكلاهما من أسرة ملكية، وهو ما لم يكن عائقاً لتقرر أم الطفل نكرانه، وبأمر منها حملوه إلى اليم وتركوه هناك فى صندوق خشبى وبجواره سيف. تركوه تحت رحمة تيارات البحر واندفاعات الأمواج.

أما أوريانا، المسكينة، فقد زوّجها أبوها ضد إرادتها من إمبراطور روما، عندما كانت كل رغباتها وأحلامها تدور حول أماديس، الذى كانت تعشقه منذ كانت ابنة السابعة وكان الصبى فى الثانية عشرة، وإن كان يبدو فى الخامسة عشرة لبنيته الجسمانية. حدثت الرؤية والعشق المتبادل فى لحظة انبهار واستمر مصوناً طوال العمر. كان ذلك فى زمن قررت فيه الفروسية المتجولة أن تنهى عمل الرب، نقصد القضاء على شر العالم . كان أيضاً الزمن الذى فيه يتحتم أن يكون العشق متطرفاً وراديكالياً ليتحقق، وأن يكون الإخلاص المطلق سيداً للروح وغاية فى الطبيعية مثل الأكل والشرب للجسد. ولأننا ذكرنا الجسد، فهناك سؤال يطرح نفسه حول جسد أماديس، الملىء بجروح مختاطة، بينما يعانق جسد أوريانا الكامل الذى لا شبيه له . قليلاً ما كانت تنفع الدروع بلا فاناديوم ولا موليبدينوم، وراوى الحكاية لا يتجنب الإشارة لهشاشة الصفائح و زرود الستر. فضربة سيف بسيطة كانت تشق الخوذة وتفتح الرأس بداخلها. من المدهش كيف تمكن هؤلاء الناس من الوصول أحياء للقرن الحالى. أتمنى ذلك، تنهد القائد. فعلى الأقل لا يهمه أن يتنازل فى وقت ما عن امتيازه كقائد مقابل أن يمتطى فرسه، صانعاً من نفسه أماديس دى جاولا جديداً، ليتنزه على شواطئ جزيرة راسخة أو فى الغابات والجبال حيث يترقب أعداء الرب. فحياة قائد فروسية برتغالى فى زمن السلم ثقيلة تماماً، ويجب أن يشغل ذهنه باستمرار ليعثر على شىء مسل يشغل به ساعات اليوم

الميتة. القائدُ يتخيل أماديسَ ممتطياً جواده فى الصخور الريفية، يمر بالطرق الحجرية الوعرة فيعذب أرجل جواده جندالين حامل سلاحه الذى يقول لصديقه إنه وقت الراحة . يجعله الصوت الخيالى يغيّر قبلة تفكيره صوب قضية خارج الأدب، قضية متعلقة بالانضباط العسكرى الذى يقوم أساساً على تنفيذ الأوامر. إن كان القائد استطاع أن يدخل فى تفكير الملك جوان الثالث فى اللحظة التى وصفناها من قبل، والتى فيها كان الرجل الملكى يتخيل سالومون وقافلته يطأون أرض قشتالة الشاسعة والرتيبة، ما كان هنا الآن يصعد ويهبط من هذه الهوات ويتجول بهذه المنحدرات الخطيرة، بينما يحاول راعى الثيران أن يكتشف طرقاً لا تؤدى كثيراً للتيه كلما اختفت السبل البدائية والغامضة تحت الصخور المنحدرة وفلق الاردواز. ورغم أن الملك لم يعبر عن رأيه ولم يطلبه منه أحد لأسباب قليلة جداً، إلا أن الضابط جنرال الفروسية أعطى موافقته، فالطريق عبر تلال قشتالة كان فى الواقع الأكثر يسراً، الأكثر نعومة، فهو بالفعل، حسب ما قيل، نزهة فى الحقل . هنا يكمن الأمر، وربما يقال إنه لم يكن هناك سبب لإعادة النظر فى المسيرة عندما قرر أمين السر بيدرو دى الكاسوفا كارنيرو، المطلع على الاتفاق بمحض الصدفة، أن يتناول خطابات الأمر. قال، **لا** يبدو لى حسناً يا سيدى ما تطلقون عليه نزهة بالحقل، فإن لم نلتزم الحيطة، ربما تقع عواقب وخيمة، بل وخطيرة . **لا** أرى سبباً لذلك يا سيدى أمين السر. تخيل ظهور

مشكلة فى التموين مع القافلة أثناء عبور قشتالة، سواء بسبب الماء أو القوت، وتخيل أن أهل المنطقة هناك يرفضون أى نوع من التعامل فى الشراء والبيع لنا، حتى لو كان هذا ضد مصالحهم الوقتية. حقاً، من المحتمل أن يحدث ذلك، اعترف الضابط. تخيل أية عصابة من قطاع الطرق، وهى كثيرة هناك أكثر من هنا، عندما يرون قلة الحماية حول الفيل، فهم ثلاثون جندياً من الفروسية فقط . اسمح لى أن أختلف معك سيدى أمين السر، فلو دخل ثلاثون جندياً برتغالياً فى معارك فى مكان ومكان آخر، ستكون نتيجة الصراع مختلفة معذرة سيدى، ليس فى نيتى إهانة عزم جيشنا المجيد، لكننى أكرر، تخيل أن هذه العصابات، التى بالتأكيد تعرف ما هو العاج، اجتمعت لتهاجمنا، يقتلون الفيل ويخلعون أسنانه. سمعت أن الرصاص لا يثقب جلد هذه الحيوانات. ربما، لكن لابد أن هناك وسيلة أخرى لقتله بلا شك، وما أطلبه من سموك قبل أى شىء هو أن تفكر فى الخزى الذى سيلحق بنا بفقد الهدية التى نقدمها للأرشيدوق ماكسيميليانو فى مناوشة مع قطاع الطرق الإسبان وفى أرض إسبانية. وماذا يجب أن نفعل إذًا برأى السيد أمين السر . الحل الوحيد البديل لطريق قشتالة هو الاتجاه صوب الشمال، حتى الوصول إلى كاستيلو رودريجو . إنها طرق وعرة، قال الضابط، والسيد أمين السر لا يعرف ذلك. حقاً لا أعرف، لكن ليس أمامنا حل آخر، بالإضافة إلى أن هذا الحل يتمتع بمزية إضافية. ما سيدى أمين السر. مزية

قطع أغلب المسيرة داخل أرض قومية . إنه تفصيل مهم بلا شك ـ سيدى أمين السر يفكر فى كل شىء .

بعد أسبوعين من هذا الحوار اتضح أن أمين السر بيدرو دى الكاسوفا كارنيرو لم يفكر فى كل شىء بشكل قطعى. وصل رسول أمين سر الأرشيدوق برسالة كانت فحواها، من بين صغائر أخرى بدا أنها مكتوبة من أجل تشتيت الانتباه، سؤالاً عن أية نقطة حدودية سيدخل منها الفيل، لأن هناك ستقف فى استقباله فصيلة عسكرية. فأجابه أمين السر البرتغالى أنه من الطريق نفسه، مفيداً إياه أن الدخول سيتم عبر حدود كاستيلو رودريجو، وبالتالى، سيشرع فى تنظيم الهجوم المضاد . ورغم أن هذه الكلمات ربما تبدو مبالغة خارج النص إن وضعنا فى اعتبارنا السلام الذى يسود بين دولتى شبه الجزيرة الأيبيرية، إلا أن الحقيقة تقول إن الحاسة السابعة المزود بها بيدرو دى الكاسوفا كارنيرو لم يرق لها فى شىء رؤية كلمة استقبال فى رسالة زميله الإسبانى. فقد كان بوسع الرجل أن يستخدم كلمات مثل يرحب، يهنئه بالوصول، لكن لا، إما أنه قال أكثر مما فكر، أو أنه، كما اعتدنا أن نقول ـ هربت الحقيقة من فمه. فكّر بيدرو دى الكاسوفا كارنيرو أن بعض التعليمات لقائد الفروسية حول طرق السير ستجنبه سوء الفهم، إن كان لديهم على الجانب الآخر الاستعداد نفسه. أعلن الجاويش نتيجة هذه الخطط الاستراتيجية فى مكان آخر وبعد ذلك بعدة أيام، فى هذه اللحظة بالتحديد،

يقترب من الخلف فارسان يا سيدى القائد. نظر القائد، كان من الواضح أن الفارسين، بخبب سريع وفعال، متعجلان. أمر الجاويش أن تصطف الصفوف، ووضع الزائرَين تحت عين بعض البنادق المتحفظة على سبيل الاحتياط . وبأعضاء مرتجفة وزبد يتساقط من الفم، خنفر الجوادان عندما أجبروهما على التوقف. ألقى الرجلان التحية وقال أحدهما، نحن حملة رسالة من أمين السر بيدرو دى الكاسوفا كارنيرو إلى قائد القوة التى تصطحب الفيل. وأنا هذا القائد . فتح الرجل الحقيبة وأخرج منها ورقة مثنية ثنيتين وتحمل الختم الرسمى الخاص بأمانة سر الملك، وسلمها للقائد، الذى ابتعد عشر خطوات ليقرأها. وعندما عاد كانت عيناه تبرقان. نادى للجاويش بمفرده وقال له، أيها الجاويش، أؤمر بإحضار طعام لهذين الرجلين وإعداد طعام لهما من أجل الطريق، ونبه الجميع أننا بداية من هذه اللحظة سنتقدم بخطوات قوية. أمرك يا سيدى القائد. وقلّل وقت القيلولة للنصف . أمرك يا سيدى القائد. يجب أن نصل إلى كاستيلو رودريجو قبل الإسبان، يجب أن نحقق هذا، فهم غير معدين لذلك، نحن نعم . وإن لم نحقق ذلك، تجرأ الجاويش بطرح سؤاله سنحققه، وعلى أية حال من يصل أولاً، ينتظر. إن كان الأمر بهذه البساطة، من يصل أولاً، ينتظر، فلم يكن ضرورياً أن يكتب أمين السر بيدرو دى الكاسوفا كارنيرو رسالته . لابد أن هناك شيئاً آخر.

فى اليوم التالى ظهرت الذئاب. تحدثنا عنها كثيراً هنا حتى أنها قررت أن تظهر فى النهاية. لا يبدو أنها تأتى بحماس الحرب، ربما لأن نتيجة الصيد، خلال ساعات الليل الأخيرة، كانت كافية لترضى معدتها، فضلاً عن أن وجود صف من هذه الصفوف، المكون من أكثر من خمسين رجلاً، أغلبهم مسلحون، يفرض الاحترام والحيطة، فالذئاب قد تكون شريرة، لكنها ليست غبية. ولأنها خبيرة فى التقييم النسبى للقوة الحاضرة، قوتها وقوة الغرباء، لا تتحرك بالحماس، لا تفقد رأسها، ربما لأنها لا تمتلك علماً ولا فرقة موسيقية لتسوقها إلى الجنة، فعندما تدخل فى هجوم يكون ذلك من أجل النصر، وهى القاعدة التى، فى كل الأحوال، كما سنرى بعد قليل، تقبل بعض الاستثناءات. هذه الذئاب لم تر فيلاً من قبل. وليس من الغريب أن يفكر أحدها، أكثرها خيالاً، إن كان للذئاب تفكير مواز للعمليات الذهنية الإنسانية، كان سيفترض من أجل القطيع تجهيز هذه

الأطنان من اللحم بمجرد خروجها من جحرها، لتتمتع دوماً بمائدة مفروشة، إفطاراً وغداءً وعشاءً. لا يعرف الذئب الأيبيرى العبقرى أنه حتى الرصاص لا يستطيع أن يخترق هذا الجلد، معترفاً بالفرق الكبير الموجود بين رصاصة من العصور القديمة، من تلك التى لا تعرف تقريباً هدفها، وبين أسنان ثلاثة من ممثلى شعب الذئاب، تتأمل، من قمة التل الذى تسلقته، المشهد المتحمس لرجال وجياد وثيران يعدون أنفسهم لمرحلة جديدة فى الطريق صوب كاستيلو رودريجو. أغلب الظن أن جلد سالومون لا يستطيع أن يقاوم خلال وقت طويل فعل النهش من قبل أسنان مفترسة تمارس مهنتها القاسية بأكل ما تجده لتبقى على وجه الحياة. يطلق الرجال تعليقاتهم على الذئاب، يقول أحدهم لجيرانه الملتصقين به، إن هاجمكم ذات مرة واحد من هذه الحيوانات وليس معكم سوى عصا تدافعون بها عن أنفسكم، فعليكم أن تحاولوا ألا يرشق الذئب أسنانه فى العصا. لماذا، سأل أحدهم. لأن الذئب سيتقدم رويداً رويداً بطول العصا، بأسنان مرشوقة فى الخشب، حتى يصل لهدفه ويقفز عليك. حيوان ملعون.

يجب أن نقول إن الذئاب ـ بطبيعتها، ليست أعداء للإنسان، وإن بدت كذلك أحياناً فلأننا عائق أمام المتعة الحرة التى يمتلكها العالم ليقدمها إلى ذئب شريف. على أية حال، لا يبدو أن هذه الثلاثة تقدم نموذجاً للكراهية أو للأفكار السيئة ضدنا. لابد أنها

أكلت، فضلاً عن أننا كُثُر حتى يتجرءوا للقفز ـ مثلا ـ على أحد جيادنا، الذى يعتبر بالنسبة إليهم وجبة من الدرجة الأولى. إنها تمضى، صرخ جندى. كانت حقيقة. لقد انتهى السكون الذى استمرت فيه طوال الوقت منذ وصلت. والآن، داخلة أولاً فى عمق الضباب ومتحركة كما لو أنها بدلاً من السير تنزلق، تختفى الذئاب واحدًا وراء آخر. هل سنراها مجدداً، سأل الجندى. ربما، حتى ولو كان لمجرد معرفة إن كنا لا نزال سنبقى هنا أو إن بقى فى الخلف جواد منهك، قال الرجل الذى كان يعرف عن الذئاب. بعد ذلك، قام البوّاق بإسماعهم أمر الاستعداد للسير. بعد نصف ساعة شرع الصف فى التحرك بكل تثاقل، فى البداية عربة الثيران، بعدها الفيل ورجال الحمل، يليهم الفروسية، وفى النهاية تأتى عربة التموين لتغلق القافلة. كان التعب شعوراً عاماً. أثناء ذلك، قال الفيَّال للقائد إن سالومون يأتى مرهقاً، وليس ذلك بسبب المسافة التى قطعها من لشبونة بقدر حالة الطرق السيئة، إن أمكن أن نطلق عليها طرقاً. أجابه القائد أنه خلال يوم، أو يومين على الأكثر، ستلوح لهم كاستيلو رودريجو، إن كنا أول من يصل، أضاف، سيتمكن الفيل من الراحة خلال الأيام أو الساعات التى يتأخرها الإسبان، سيستريح سالومون وكل من بالقافلة، رجال وحيوانات. وإن كنا نحن من نصل متأخرين. ستتوقف راحتنا على السرعة التى يحضرون بها، والأوامر التى لديهم، أظن أنهم

سيرغبون فى الراحة لمدة يوم على الأقل. سيادتك تعلم أننا تحت مسئوليتك، ومن جانبى أريد فقط أن تكون مصلحتك هى مصلحتنا حتى النهاية. هكذا يجب أن يكون، قال القائد. همز الفرس وسار للأمام ليحمس راعى الثيران، الذى كان يتوقف عِلم قيادته كثيراً على سرعة تقدم القافلة. هيا يا رجل، أيقظ هذه الثيران، صاح، فكاستيلو رودريجو على مقربة، وليس أمامنا الكثير لنتمكن هذه الليلة من النوم تحت سقف. والأكل مثل إنسان، أتمنى ذلك، باح راعى الثيران بصوت خفيض حتى لا يسمعه أحد.على أية حال، لم تقع الأوامر التى أصدرها القائد فى جوال مثقوب. أطلق راعى الثيران سوطه على ظهر ثيرانه، وبفاعلية ونتيجة فورية صاح بكلمات تحريض بلهجة مشتركة، كانت ضربة قاسية سيستمر أثرها لمدة عشر دقائق أو ربما ربع ساعة، وهكذا لن يترك راعى الثيران اللهب لينطفئ.

خيموا مع غروب الشمس، ومع دخول أولى خطوات الليل كانوا موتى أكثر منهم أحياءً، جوعى رغم عدم شهيتهم للأكل، لعله الإنهاك. لحسن الطالع، لم تعد الذئاب. لو كانت قد عادت ربما استطاعت أن تدور بكل طاقتها حول المخيم لتختار بين الجياد، فهى الضحايا الأكثر تغذية. الحق أن ذئباً محدد الحجم لا يمكن أن ينمو، فالحصان حيوان كبير الحجم حتى يجره ذئب هكذا، بحالته هذه، لكن لو تحتم علينا وصف رجال الحملة عندما يكتشفون وجود الذئاب

المتسللة، قد لا نجد بالتأكيد كلمات قوية، سوى إن جاءك الطوفان. نوجه الشكر للسماء؛ لأنها قد هربت من هذه التجربة، نشكر السماء لأن أبراج القلعة الهائلة قد لاحت، وتواتينا رغبة لنقول مثل الآخر، اليوم ستكون معى فى الفردوس، أو، مكرراً كلمات القائد الأكثر واقعية، اليوم سننام تحت سقف، فمن المعروف جيداً أن الجنات جميعها ليست سواء، فمنها من تتمتع بحوريات ومنها من لا تتمتع بها، رغم أننا لكى نعرف فى أية جنة نكون يكفى أن نترك أنفسنا لنلقى نظرة من الباب. جدار يقى من رياح الشمال، سقف يحمى من المطر ورطوبة الليل، فوق ذلك القليل يكون ضرورياً للحياة فى أكبر رفاهية فى العالم. أو فى متع الفردوس.

مَنْ يتابع هذه القصة باهتمام كاف قد يستغرب من أنه بعد وقوع حادثة الرفسة الطريفة من سالومون لقس القرية لم تكن هناك أية إشارة للقاءات أخرى مع سكان هذه الأراضى، كما لو أننا نعبر صحراء وليس بلداً أوروبياً متحضراً يعلم الجميع، بمن فيهم أطفال المدارس، أنه أعطى للعالم عوالم جديدة. نعم حدثت لقاءات، لكنها سريعة بكل ما تحمله الكلمة من معنى، ونقصد بذلك أن الأفراد كانوا يخرجون من بيوتهم ليروا من يأتى فيصادفون الفيل، فيشير بعضهم على نفسه بإشارة الصليب من الدهشة والخوف، أما بعضهم الآخر، الخائف أيضاً، فيموت من الضحك، ربما من شكل الزلومة. لا شىء بالتالى يقارن بحماس

وعدد الصبية وبعض بالغين لا شىء يشغلهم يركضون من القرية هكذا عند علمهم بنبأ مسيرة الفيل، الذى لا أحد يعلم كيف وصل إليهم، نقصد النبأ لا الفيل، فالأخير سيتأخر. أصدر القائد ـ عصبياً ومثاراً ـ أمراً للجاويش ليرسل فى سؤال أحد الصبية الأكبر سناً إن كان العساكر الإسبان قد وصلوا. لابد أن الصبى كان من إقليم جاليثيا، لأنه رد على السؤال بسؤال، ماذا سيفعلون هنا، هل ستنشب حرب. أجب، هل وصلوا الإسبان أم لا. لا يا سيدى، لم يصلوا. نقل المعلومة للقائد بفمه، فى اللحظة نفسها، فبدت أسعد ابتسامة فى الدنيا. لم تبق شكوك، فالحظ يبدو أنه قرر تدعيم أسلحة البرتغال.

استغرقوا ما يقرب من ساعة لدخول القرية، قافلة من الرجال والحيوانات الموتى من التعب، بالكاد لديهم قوة لرفع أذرعهم أو تحريك آذانهم فى إيماءة شكر للتصفيقات التى استقبلهم بها الجيران فى كاستيلو رودريجو. قادهم أحد ممثلى ناظر القلعة حتى ميدان السلاح بالحصن، الذى يسع على الأقل لعشر قوافل مثل هذه. هناك كان ينتظرهم ثلاثة من أعضاء عائلة القشتاليين؛ الذين سيصحبون القائد بعد ذلك لتفقد الأماكن المتاحة التى ستأوى الرجال، دون نسيان أن الإسبان قد يحتاجون أماكنهم فى حالة عدم نصب مخيم خارج الحصن. قال الناظر، الذى توجه إليه القائد ليهدى له تقديره بعد أن قام بالمعاينة، أغلب الظن أنهم سيقيمون المعسكر خارج أسوار الحصن،

فبالإضافة لمزايا أخرى، هناك الميزة الكبرى وهى تقليل احتمالية المواجهات. ولماذا تفكر سيادتك أنه من الممكن أن تكون هناك مواجهات، سأل القائد. مع هؤلاء الإسبان من الصعب أن تطمئن، فمنذ صار لهم إمبراطور يبدو أنهم يسيرون بالملك فى بطونهم، والأسوأ أن يأتى النمساويون بدلاً من الإسبان. هل هم بشر سيئون، سأل القائد. إنهم يعتقدون أنهم أفضل من الآخرين. هذه خطيئة عامة، فأنا ـ على سبيل المثال ـ أظن نفسى أعلى من جنودى، وجنودى يظنون أنفسهم أعلى من الرجال القائمين بمهمة الحمل. والفيل، سأل الناظر مبتسماً. الفيل لا يعتقد شيئاً، فهو ليس من هذا العالم، أجاب القائد. لقد رأيته قادماً من نافذة، إنه حيوان شامخ، أود رؤيته عن قرب. تحت أمرك وقتما تحب. لا أدرى ماذا أفعل معه أكثر من إعطائه الطعام. أنبه سيادتك أن هذا الحيوان يطلب كثيراً من الغذاء. هذا ما سمعتهم يقولونه، ولا أقدم نفسى لأكون مالكاً لفيل، فأنا ناظر بسيط بالداخلية. أى أنك لست ملكاً ولا أرشيدوقاً. بالضبط، لا ملك ولا أرشيدوق، أتكفل فقط بما أطلق عليه عملى. نهض القائد، لن أشغل وقتك أكثر من ذلك يا سيدى، شكراً كثيراً على الاهتمام الذى استقبلتنى به. هى خدمة للملك أيها القائد، سأقدم خدمتى لك إن قبلت أن تكون ضيفاً بهذا البيت مادمت فى كاستيلو رودريجو. أشكرك على دعوتك، التى يشرفنى كثيراً أن ألبيها أكثر مما تتخيل، لكن

يجب أن أكون مع رجالى. أتفهم ذلك، ويجب أن أتفهم ذلك، وعلى أية حال أتمنى ألا تجد عذراً لقبول عشاء فى يوم من الأيام القادمة. بكل سرور، رغم أن ذلك يتوقف على الوقت الذى سننتظره هنا. فلتتخيل أن الإسبان سيظهرون غداً، وربما اليوم. لدىّ جواسيس على الجانب الآخر يتكفلون بإنذارنا. وكيف سيفعلون ذلك. بحمام زاجل. ارتسم الشك على وجه القائد، حمام زاجل، استغرب، لقد سمعت من يتحدث عنه، لكننى حقيقة لم أؤمن أن حمامة تستطيع الطيران خلال ساعات كما يقولون، ولمسافة كبيرة، لتستقر فى النهاية فى البرج الذى ولدت فيه دون أن تخطئ. ستُتاح لك الفرصة لتتحقق من ذلك بأم عينيك، وإن سمحت لى سأرسل فى استدعائك عندما تصل الحمامة لتحضر سحب وقراءة الرسالة التى تحضرها مربوطة فى إحدى أرجلها. إن وصل الأمر لحدوث ذلك فلن ينقصنا إلا أن تصلنا الرسائل عبر الجو دون حاجة لأجنحة أية حمامة. أظن أن ذلك سيكون صعباً بعض الشىء، ابتسم ناظر القلعة، لكن ما دام هناك عالم، فمن الممكن حدوث كل شىء. ما دام هناك عالم. ليس هناك طريقة أخرى أيها القائد، فالعالم لا غنى عنه. لا ينبغى أن أسرق منك وقتك أكثر من ذلك. لقد كان من دواعى سرورى أن أتحدث مع سيادتك. لقد كنت بالنسبة إلىّ مثل كوب الماء البارد بعد هذا السفر. كوب الماء البارد الذى لم أقدمه لك. فليكن للمرة القادمة. لا تنس دعوتى، قال ناظر

القلعة عندما كان القائد يهبط درجات السلم الخارجى الحجرية. سأكون مضبوطاً فى موعدى يا سيدى.

بمجرد أن دخل القلعة، أمر بحضور الجاويش، وأعطاه تعليمات عن الوجهة القادمة للثلاثين رجلاً القادمين من أجل أعمال الحمل. لأن وجودهم لم يعد ضرورياً، سيبقون هنا ليرتاحوا حتى الغد، ويعودوا فى اليوم التالى، نبّه على مجموعة التموين لتعد كمية معقولة من الغذاء، فثلاثون رجلاً يعنى ثلاثين فماً، ثلاثين لساناً وعدداً هائلاً من الأسنان، بالطبع لن يكون ممكناً تزويدهم بطعام يكفيهم طوال الوقت حتى يصلوا إلى لشبونة، لكن عليهم أن يحكموا أنفسهم فى الطريق، يعملون أو... أو يسرقون، أضاف الجاويش لينهى الجملة المعلقة. عليهم أن يرتبوا أنفسهم قدر استطاعتهم، قال القائد، لاجئاً، أمام نقصان شىء أفضل، إلى الجمل التى تشكل الدواء العالمى، واضعاً فى ذهنه، كمثال كامل للنفاق الشخصى والاجتماعى الأكثر صفاقة، هذا الذى يوصى الفقير بالصبر بعد أن يرفض أن يعطيه صدقة. أراد الرجال الذين عملوا كمشرفين أن يعرفوا متى سيتقاضون راتبهم، فأرسل القائد من يقول لهم إنه لا يعلم، لكن عليهم أن يمتثلوا أمام القصر ويبعثوا رسالة لأمين السر أو من يقيم مقامه فى الرد، لكن أنصحكم، وكرر الجاويش العبارة كلمة كلمة، ألا تذهبوا فى جماعة تفادياً للانطباع السيئ الذى يعطيه

ثلاثون رجلاً رثو الثياب عند باب القصر، كما لو أنهم يريدون مهاجمته، فى رأيى أنه يجب أن يذهب المشرفون، ولا أحد غيرهم، وأن يحاول هؤلاء أن يكونوا مهندمين قدر استطاعتهم. بعد ذلك، قابل أحدهم القائد بالصدفة وطلب منه الإذن بالحديث، كان يريد فقط أن يقول له إنهم حزناء؛ لأنهم لن يصلوا إلى بلد الوليد. لم يعرف القائد بماذا يجيبه، تبادلا النظر عدة لحظات فى صمت، بعدها ذهب كل منهما إلى حياته.

لخص القائد سريعاً الوضع للجنود، سينتظرون هناك حتى يصل الإسبان، مازال لا يعرف متى سيصلون، فليست هناك أخبار فى هذه اللحظة، عند هذه النقطة تضمن حديثه فى الثانية الأخيرة الإشارة إلى الحمام الزاجل، واعياً لعدم مناسبة أى نوع ممكن من التراخى فى الانضباط. لم يكن يعرف أن هناك عاشقين للحمام بين المرءوسين، هاويين لتربية الحمام، وهى الكلمة التى ربما لم تكن موجودة فى تلك الفترة، إلا بالصدفة بين المبتدئين، لكن كان من المفترض أن يطرق الباب، بهذا الانطباع الشارد زيفاً الذى يأتى مع الكلمات الجديدة، طالباً أن يتركوها لتدخل. كان الجنود واقفين، فى وضع الراحة، وضع التراخى، دون الانشغال بالانسجام الجسدى. سيأتى وقت يتعذر فيه السكون الرسمى سواء بالنسبة إلى العسكرى أو الحرس الأكثر كثافة، حينما يكون العدو متربصاً على الجانب الآخر من الطريق. وفى الأرض كانت مفرودة

حزم من الحشيش المجفف بكثافة كافية حتى لا تعانى أجنحة ألواح الكتف من خشونة الأحجار التى لا يمكن الاحتكاك بها. واقفين، كانت البنادق تتكدس بطول حائط. فليشأ الرب ألا نحتاج لاستخدامها، فكر الضابط، مشغولاً باحتمالية أن يؤدى تسليم سالومون لقطع صلة جميلة بسبب نقص الكياسة من جانب أو من آخر. كان يضع نصب عينيه كلمات أمين السر بيدرو دى الكاسوفا كارنيرو، الواضحة تماماً، وبالطبع الكلمات الأخرى التى لم تكتب لكنها مفهومة، نقصد، إن بدا الإسبانيون أو النمساويون، أو بعض منهم أو من الآخرين، جافين أو مثيرين للنفور، يجب أن نتعامل معهم بصبر. لم يستطع القائد تحت أية حجة من الممكن أن يبدو الجنود القادمون فى الطريق، سواء أكانوا إسبانيين أم نمساويين، جافين أو مثيرين للفضول. لا يتمتع قائد فروسية بالبصيرة ولا بالخبرة السياسية لأمين سر الدولة، بالتالى سيكون من الخير أن يترك نفسه منقاداً بمن يعرف أكثر، حتى تصل ساعة الحدث، إن وصلت. كان القائد يدور حول هذه الأفكار عندما دخل سوبهرو فى الصالة غير المعدة حيث بعض حزم الحشيش المجفف كانت محجوزة بسبب كسل الجاويش. عند رؤيته، شعر القائد بكرب يمكن فقط أن ننسبه إلى ضميره القلِق لكونه لم يهتم بحالة سالومون الصحية، ولم يذهب لرؤيته، كما لو أنه بمجرد وصوله لكاستيلو رودريجو قد انتهت مهمته. كيف حال سالومون، سأل. عندما تركته كان

نائماً، أجاب الفيَّال. كم هو حيوان شجاع، تعجب القائد بحماس زائف. جاء حيث أحضروه، القوة والمقاومة وضعت فيه، لكنها ليست صفاته. أراك صارماً مع سالومون المسكين. قد يكون ذلك بذنب القصة التى رواها لى فى التو أحد المساعدين. أية قصة، سأل القائد. قصة البقرة. وهل للبقر قصص، سأل القائد مجدداً وبابتسامة. هذه البقرة نعم، لقد ذهبوا مدة اثنى عشر يوماً وليلة فى بعض جبال جاليثيا، حيث البرد والمطر والثلج والوحل، والحجارة التى تشبه السكاكين، والعشب شبيه الأظافر، وأوقات قليلة للراحة، وحروب أكثر وهجمات، ونباحات وخوارات، إنها قصة بقرة ضاعت فى الغيطان مع صغيرتها الرضيعة، ووجدت نفسها محاطة بالذئاب خلال اثنى عشر يوماً وليلة، وكانت مضطرة للدفاع عن نفسها وعن صغيرها فى معركة شديدة الطول، أمام احتضار الحياة على حافة الموت وبين دوائر من الأسنان والحلوق المفتوحة، والهجمات القاسية والنطحات التى لا يمكن أن تنقص، وحتمية الصراع من أجل نفسها ومن أجل حيوان كان لا يزال عاجزاً عن الشجاعة، ووسط كل هذا كان الصغير يبحث عن ثدى أمه، ويرضع بتأن، بينما كانت الذئاب تقترب، بسلسلة ظهر مشدودة وآذان مدببة. تنفس سوبهرو بعمق وواصل، وبعد الاثنى عشر يوماً عثروا على البقرة وأنقذوها ورضيعها، وحملوهما إلى القرية فى نصر، مع ذلك لا تنتهى القصة هنا، بل استمرت خلال

يومين آخرين، بعدها، لأنها تحولت إلى بقرة وحشية، لأنها تعلمت الدفاع عن نفسها، ولأن لا أحداً كان يستطيع السيطرة عليها أو الاقتراب منها، ماتت البقرة، قتلوها، لم تقتلها الذئاب التى هُزمت خلال اثنى عشر يوماً، بل الرجال أنفسهم الذين أنقذوها، وربما صاحبها نفسه، العاجز عن فهم أنها قد تعلمت القتال، وأن هذا الحيوان الذى كان من قبل طيعاً ومسالماً لن يستطيع أبداً أن يسيطر على ذاته.

ساد صمت وقور خلال عدة ثوان فى الصالة الحجرية الكبيرة. الجنود الحاضرون، رغم أنهم لم يُختبروا فى الحروب بشكل كبير، ويكفى أن نقول إن أصغرهم سناً لم يشموا من قبل رائحة البارود فى أرض المعركة، كانوا مبهورين فى منتداهم الأخير أمام شجاعة حيوان، بقرة، تخيلوا، أظهرت أنها تمتلك مشاعر إنسانية مثل حب العائلة، ملكة التضحية الشخصية، حب الغير حد التطرف. أول من تحدث كان الجندى، الذى يعرف كثيراً عن الذئاب، حكايتك جميلة، قال لسوبهرو، وهذه البقرة تستحق على الأقل نيشان شجاعة واستحقاق، لكن هناك فى حكايتك بعض الأشياء غير الواضحة بل وحتى المثيرة للريبة. مثل ماذا، سأل الفيَّال بنبرة من يستعد للقتال. مثل، من حكى لك هذه الحكاية. رجل من جاليثيا. وكيف عرفها هو. لابد أنه سمعهم يحكونها هناك. أو قرأها. لا أعتقد أنه يعرف القراءة. وأنت سمعتها وحفظتها فى ذاكرتك. جائز، أنا اقتصرت على تكرارها بأفضل

وسيلة ممكنة. لديك ذاكرة قوية، بخاصة أن الحكاية مروية بلغة غير منتشرة. شكراً، قال سوبهرو، لكننى الآن أود معرفة الأشياء قليلة الوضوح والتى تجدها مثيرة للريبة فى الحكاية. أول هذه الأشياء ما فهمناه، أو بمعنى أوضح، ما أكدته بجلاء عن أن القتال دام اثنى عشر يوماً وليلة، وهو ما يعنى أن الذئاب هاجمت البقرة من أول ليلة وتراجعت فى الليلة الأخيرة، ربما مرهقة. لم نكن هناك، لم نتمكن من رؤية ذلك. حقاً، لكن من يعرف شيئاً عن الذئاب يعرف أن هذه الحيوانات، رغم أنها تعيش فى قطعان، تصطاد بمفردها. إلى أين تود أن تصل، سأل سوبهرو. أريد أن أصل إلى أن البقرة لا تحتمل مقاومة هجوم محدد لثلاثة أو أربعة ذئاب، ولا اثنى عشر يوماً، بل ولا ساعة واحدة. إذًا، فحكاية البقرة المقاتلة محض أكذوبة. لا، الأكذوبة تكمن فى المبالغات، فى الزخرفات اللغوية، فى أنصاف الحقائق التى تريد أن تصير حقائق كاملة. ماذا تظن أنت إذًا عما حدث، سأل سوبهرو. أعتقد أن البقرة تاهت بالفعل وأن ذئباً هاجمها، إنها قاتلته وأجبرته على الفرار ربما مجروحاً، بعدها بقت هناك فأكلت وأرضعت صغيرها، حتى تم العثور عليها. أليس من المحتمل أن يأتى ذئب آخر. حقاً، لكن ذلك يعد خيالاً واسعاً، فمن أجل تبرير نيشان الشجاعة والاستحقاق يكفى ذئب واحد. صفق الحضور مفكرين، بعد اتضاح الأمور، أن البقرة الجليقية كانت تستحق الحقيقة كما تستحق النيشان.

مجتمعة فى الساعة الأولى من الصباح، قررت اللجنة العامة للحمّالين، بدون أصوات معارضة، أن العودة إلى لشبونة ستكون فى طرق أقل وعورة وخطورة من طرق الذهاب، ستكون طرقاً أنعم وأملس دون الخوف من نظرات الذئاب الصفراء والدورانات المتعرجة التى تفزع رويداً رويداً عقول ضحاياها. ليست الحكاية أن الذئاب لا تظهر فى مناطق شواطئ البحر، بل على العكس، تظهر، وكثيرة، وتصنع ضجيجاً بين القطعان، لكن هناك فارقاً بين السير بين الصخور التى مجرد النظر إليها يرجف القلب وبين وطء رمال شواطئ الصيّادين الناعمة، وهم قوم طيبون على الدوام وقادرون على مد أيديهم ومنح نصف دستة سردين على سبيل المساعدة عند انحناءة المركب، حتى لو كانت مساعدة رمزية. يمسك الحمّالون بجوالقهم وينتظرون الآن أن يأتى سوبهرو والفيل للتوديع . خطرت هذه الفكرة ببال أحد، بالتأكيد هو الفيّال نفسه . ولا أحد يعرف كيف خطرت بباله، فليس هناك مكتوب حول الأمر .

يستطيع الفيل أن يعانق شخصاً، لكن ليس هناك طريقة لتخيل الإيماءة المضادة المناسبة . أما بالنسبة إلى قيود الأيدى، ستكون مستحيلة بكل بساطة، فخمسة أصابع بشرية لا معنى لها لن تستطيع الإحاطة برجل غليظة تشبه جذع شجرة . يأمرهم سوبهرو بالوقوف فى صفين، خمسة عشر فى الأمام ومثلهم فى الخلف، تاركين مسافة عصا بين كل رجلين، وهو ما يشير لاحتمالية أن ما سيقوم به الفيل هو السير بينهم كما لو أنه يفتش على القوات. تحدث سوبهرو من جديد ليقول إنه يجب على كل رجل، عندما يتوقف أمامه سوبهرو، أن يمد يده اليمنى بكفها لأعلى وينتظر التوديع. ولا تخافوا، فسالومون حزين، لكنه ليس غاضباً، لقد تعود عليكم ويعرف الآن أنكم راحلون . وكيف يستطيع أن يعلم ذلك . إنه أمر لا يستحق السؤال، فلو سألناه مباشرة، فأغلب الظن أنه لن يجيبنا . هل لأنه لا يعلم أم لأنه لا يريد. أعتقد أنه يختلط فى رأس سالومون معنى عدم الإرادة بعدم المعرفة فى سؤال كبير حول العالم الذى وضعوه فيه لكى يعيش، أعتقد أننا جميعاً نوجد داخل هذا السؤال، نحن والفيل. على الفور فكر سوبهرو أنه نطق تواً عبارة حمقاء، واحدة من تلك العبارات التى من الممكن أن تشغل مكان الشرف فى قائمة الكلام المبتذل، لحسن الطالع لم يفهمنى أحد، همهم بينما كان يبتعد ليحضر الفيل، من بين مزايا الجهل أنه يحمينا من المعارف المزيفة . يقبع الرجال هنا بالخارج بصدر ضيق، لا يرون ساعة السير، سيمضون على

طول الضفة اليسرى لنهر دويرو لتأمين أنفسهم بشكل أكبر، حتى يصلوا لمدينة أوبورتو، المشهورة بحسن استقبال الناس والتى فيها سيستقر البعض، وهكذا ستحل مسألة قبض الرواتب التى لن يتقاضوها إلا فى لشبونة. كانوا على حالتهم هذه، كل منهم مع أفكاره، عندما ظهر سالومون، محركاً بتثاقل أربعة أطنان لحم وعظم وثلاثة أمتار طول. بعض الرجال الأقل جراءة شعروا بضربية فى فم المعدة لمجرد تخيل أن شيئاً سيئاً قد يقع فى هذا الوداع، فموضوع الوداعات بين الأنواع الحيوانية المختلفة، كما قلنا، لم يسجل من قبل فى أى بيبليوجرافيا. ومتبوعاً بمساعديه، الذين لا ينقصهما الإرهاق الشديد منذ خرجوا من لشبونة، جاء سوبهرو جالساً فوق ظهر سالومون العريض، وهو ما يفيد فقط فى مضاعفة اضطراب الرجال المتحدين. والسؤال الذى كان يجول فى جميع الرءوس، كيف يمكنه أن يساعدنا إن كان فى مكان شديد العلو. اهتز الصفان مرة وأخرى، كان يبدو أن ريحاً شديدة القوة قد نفضتهما، لكن الحمّالين لم يتبعثروا . عملية عبثية، من جانب آخر، لأن الفيل كان يقترب بالفعل. جعل سوبهرو الفيلَ يتوقف أمام الرجل الواقف فى الطرف الأيمن من الصف الأول وقال بصوت واضح، **مد** يدك، وارفع كفك لأعلى . فعل الرجل ما أمر به، وها هى اليد راسخة فى ظهورها . حينئذ مرر الفيل فوق اليد المفتوحة طرف زلومته واستجاب الرجل بإيماءة فطرية، ضاغطاً إياها كما لو أنها يد بشرية، فى

الوقت نفسه كان يحاول أن يسيطر على انقباض يتكون داخل حنجرته، انقباض لو ترك له العنان لأمكن للدموع أن تتفجر . كان يرتجف من قدميه إلى رأسه، بينما كان سوبهرو، من علاه، ينظر إليه بود. تكرر نفس المشهد تقريباً مع الرجل المجاور، لكن وجدت أيضاً حالة رفض متبادل، فلا الرجل أراد مد ذراعه، ولا الفيل قدّم زلومته، هو نوع من النفور القاصف، الفطرى، نفور لا أحد يعرف تفسيره، فخلال المسيرة لم يحدث بينهما شىء يمكن أن يعلن هذه الكراهية. ولتعويض ذلك، كانت هناك لحظات عواطف متفجرة، مثل حالة الرجل الذى انفجر فى بكاء تشنجى كأنه التقى من جديد بعزيز لم يكن يعرف أخباره منذ سنوات طوال، لذا عامله الفيل برضا خاص. مرر زلومته على كتفه ورأسه فى حنو يبدو إنسانياً، فى نعومة و رقة تبدو واضحة من أقل حركة. ولأول مرة فى تاريخ الإنسانية يودع حيوان بعض الكائنات البشرية بالمعنى الحرفى للكلمة، كما لو أن بينهم صداقة واحتراماً مازالت المبادئ الأخلاقية لتشريعاتنا السلوكية بعيدة عن تأكيدها، لكن ربما يعثرون عليها مكتوبة بحروف من ذهب فى القوانين الرئيسية لفصيلة الفيلة . فقراءة مقارنة للوثائق الخاصة بكلا الطرفين، بكل تأكيد، ستكون مصباحاً لنا ولعلها تساعدنا على إدراك رد الفعل السلبى المتبادل الذى ـ رغماً عنا، وحباً فى الحقيقة ـ تحتم علينا أن نصفه من قبل . فى العمق، من يدرى، ربما لا يصل البشر والفيلة أبداً لفهم بعضهم البعض. على أية حال، أطلق

سالومون فى التو صيحة قد تُسمع على بعد فرسخ حول فيجيرا دى كاستيلو رودريجو، ليس فرسخاً من فراسخنا، وإنما من الفراسخ الأخرى، الأكثر قدماً والأشد قصراً . أما عن أسباب وأهداف الصيحة المدوية التى خرجت من رئتيه فليس من السهل على أشخاص مثلنا فك شفرتها، فنحن نعرف قليلاً عن الفيلة . ولو ذهبنا لنسأل سوبهرو عن رأيه، بصفته خبيرًا، فأغلب الظن أنه لن يرغب فى توريط نفسه وسيعطينا جواباً متملصاً، من تلك التى يوصد بها الباب أمام أية محاولة أخرى. ومع ذلك فإن الشكوك، الحاضرة دوماً عندما نتحدث عن لغات مختلفة، تبرر لنا قبول أن الفيل سالومون قد راق له أن يؤدى طقساً للرب . شرع الحمّالون فى سيرهم بالفعل . التعايش مع العسكريين أكسبهم، دون أن ينتبهوا لهذا تقريباً، بعض عادات الانضباط، مثل هذه التى تشتق من أمر التشكيل ـ على سبيل المثال ـ الاختيار بين نظم طابور واحد بفردين أو ثلاثة بالعرض، لأنه لا يعد الشىء نفسه أن يقف ثلاثون رجلاً بطريقة أو بأخرى، ففى الحالة الأولى سيكون الطابور من خمسة عشر صفاً، وهو ما يعد إفراطاً فى مساحة سهلة التكسير بسهولة مع أصغر اضطراب شخصى أو جماعى، بينما فى الحالة الثانية ستتضاءل الصفوف إلى بلوك من عشرة أفراد، لا ينقصهم سوى شعار ليبدوا سلحفاة رومانية. على أية حال، الفارق مسألة نفسية. علينا أن نفكر أنه أمام هؤلاء الرجال مسيرة طويلة وأن الشىء الطبيعى ـ خلالها ـ أن يثرثروا ليسلوا وقتهم. حسن،

رجلان ممن يتحتم عليهما أن يتجاورا فى السير خلال ساعتين أو ثلاث، ظناً أن الرغبة فى الحديث كبيرة، سينتهيان بشكل حتمى، عاجلاً أم آجلاً، ساقطين فى صمت غير مريح، ومن يدرى، ربما يتبادلان الكراهية. من الممكن ألا يقاوم بعض هؤلاء الرجال غواية أن يدفع زميله من فوق تل عالٍ. وبالتالى فقد أصاب من قال إن ثلاثة هو الرقم الذى اختاره الرب، رقم السلام، رقم الاتفاق. فلو كانوا ثلاثة، على الأقل، سيتمكن أحدهم من الصمت خلال بضع دقائق دون أن يلاحظ ذلك كثيراً. أسوأ ما فى الأمر أن أحدهم، هذا الذى فكّر فى هزم الآخر ليفوز بطعامه، على سبيل المثال، يدعو الثالث إلى التعاون معه فى الحدث المذموم، فيجيبه الأخير - متأسفاً - لا أستطيع، لقد تعاهدت على المساعدة فى قتلك أنت.

سُمِع خبب الجواد السريع. كان القائد الذى جاء لتوديع الحمّالين وتمنيه لهم سفراً سعيداً، وكان اهتماماً غير متوقع من ضابط الجيش مهما كان معروفاً بحسن أخلاقه، لكن هذا السلوك ينظر إليه رؤساؤه باحتقار، وهم مدافعون لدودون لمبدأ قديم مثل كاتدرائية براغ، مضمونه أنه هناك مكان بالضرورة لكل شىء، بحيث يبقى كل شىء فى مكانه ولا يخرج عنه. وكمبدأ رئيسى لمنظومة أسرية فعالة ليست الأكثر مثالية، يقع الشر عندما يُطمح فى توزيع الأشخاص لطبقات بالطريقة نفسها. وما يبدو أكثر من جلى أن الحمّالين، فى حالة توصلهم لتحديد

مؤامرات الاغتيال التى تنبت فى بعض هذه الرءوس، لا يستحقون هذه الرقة. فلنتركهم إذًا فى يد مصائرهم ولنر ماذا يريد الرجل الذى يقترب مسرعاً، رغم سنه، وبدون مساندة كبيرة من قدميه. كانت الكلمات المرتجفة التى تفوه بها عندما اقترب هى تلك، أرسلنى السيد ناظر القلعة لأنبه سيادتكم أن الحمامة قد وصلت. إذًا، الأمر حقيقة، الحمام الزاجل يعود لبيته. لم يكن بيت الناظر بعيداً عن هناك، لكن القائد همز الجواد ليسير بسرعة كما لو أنه يحاول دخول بلد الوليد قبل ساعة الإفطار. بعد أقل من خمس دقائق كان ينزل من فرسه أمام باب المسكن، يصعد السلم ركضاً، ويطلب من أول خادم يلاقيه أن يسوقه إلى الناظر . لم يكن ضرورياً البحث عنه؛ لأنه كان قادماً فى المواجهة، جالباً فى ملامحه انطباع رضا يشبه ما يفترض أن يرتسم على وجوه عشاق الحمام أمام انتصارات تلامذتهم. لقد وصل، لقد وصل، هيا معى، قال بحماس. خرجا لشرفة واسعة ومغطاة بها قفص هائل من القصب يشغل جزءًا كبيراً من الجدار المسنود عليه. هنا البطلة موجودة، قال ناظر القلعة . كانت الرسالة ما زالت مربوطة برجل الحمامة، وهو الموقف الذى اعتقد ناظر القلعة أنه من المناسب أن يوضحه، بشكل عام، أسحب الرسالة بمجرد أن تجثم الحمامة وأفعل ذلك لأننى لا أريد أن يعتبر جهداً سيئ التوظيف، لكن فى هذه الحالة فضّلت أن أنتظر وصولك لأهب لك الرضا الكامل لا أدرى كيف أشكرك، سيدى ناظر القلعة، صدقنى أن

هذا اليوم بالنسبة إلى يوم عظيم. لا شك لدىّ، أيها القائد، فليس كل ما فى الحياة رماحًا، رماحًا، بنادق، بنادق. فتح ناظر القلعة باب القفص، أدخل ذراعه وأمسك بالحمامة، التى لم تقاوم ولم تحاول الهرب، بل على العكس، كانت مذهولة من أنه لم يعرها اهتماماً من قبل . استطاع ناظر القلعة بحركات سريعة لكنها محتاطة أن يفك العُقَد، ويفرد الرسالة التى كانت ورقة صغيرة كان لابد من قصها حتى لا تضايق حركات الطائر. بعبارات مختصرة، كان الجاسوس يفيد بأن الجنود فرسان، عددهم أربعون، كلهم نمساويون، نمساوى أيضاً القائد الذى يقودهم، وأنه لا يصحبهم أية فرقة مدنية أو لم يلحظ ذلك. حقائبهم خفيفة، علق قائد الفروسية البرتغالى. هكذا يبدون، قال ناظر القلعة. وعن أسلحتهم. عن أسلحتهم لم يتحدث، أتخيل أنه لم يعتبر ذلك مناسباً لذا لم يذكر معلومة من هذا النوع، ولتعويض ذلك يقول إنه، بناءً على طريقة سيرهم، قد يصلون غداً على الحدود، فى نحو الثانية عشرة ظهراً. سيأتون مبكراً. لعله يجب علينا أن ندعوهم إلى تناول الغداء. إنهم أربعون نمساوياً يا سيدى ناظر القلعة، لا تفكر فى ذلك، فرغم حقائبهم الخفيفة التى يحضرونها، إلا أنهم سيحضرون أيضاً غذاءهم، أو النقود التى سيدفعونها، بالإضافة لذلك، فإن أغلب الظن أنهم لن يروق لهم طعامنا، هذا بدون الحديث عن أن إطعام أربعين فماً ليس بالأمر الهين الذى يصنع بطقطقة الأصابع، ومن جانبنا سنبدأ فى توفير طعامنا، وفى رأيى يا سيدى

أن على كل منا أن يتكفل بنفسه، بينما يتكفل الرب بالجميع. فليكن ما يكون، وعن عشاء الغد. يمكنك أن تعتمد عليّ، لكن، إما أننى مخطئ أو أنك تفكر فى دعوة القائد النمساوى. إنها فطنة جديرة بالثناء. ولماذا هذه الدعوة، إن لم أكن بسؤالى سيئ الاستغلال لثقتك. هى تعبير عن الرضا السياسى. فى الواقع هل تنتظر أن يكون هذا التعبير عن الرضا ضرورياً، أراد القائد أن يعرف. لقد علمتنى الخبرة أن كل شىء يمكن توقعه عند مواجهة عسكريين بارزين على الحدود. سأفعل كل ما فى وسعى لتجنب ما هو أسوأ، فأنا لا أريد فَقْد أى من رجالى، لكن لو تحتم استخدام القوة، لن أتردد لحظة، والآن يا سيدى ناظر القلعة، اسمح لى بالانصراف، ففرقتى أمامها الكثير لتقوم به، بدءًا من تنظيف الزى الرسمى بأفضل ما يمكن، فقد قضينا أسبوعين تقريباً فى الشمس والمطر، معهما نمنا، ومعهما استيقظنا، فأصبحنا نشبه طليعة من الشحاذين أكثر منا سرية عسكرية. اتفقنا يا سيدى القائد، غداً، عندما يصل النمساويون سأكون معك، كما هو واجبى . اتفقنا يا سيدى ناظر القلعة، وإن احتجت منى شيئاً حتى ذلك الحين، فأنت تعرف أين من الممكن أن تجدنى .

عند العودة للقلعة، أمر القائد بجمع القوات. لم يكن الخطاب مطولاً، لكنه قال كل ما يتحتم معرفته. فى المقام الأول، مهما كانت الحجة، ليس بمسموح دخول النمساويين القلعة حتى لو استوجب الأمر

اللجوء إلى السلاح . ستكون هى الحرب إذاً، واصل، وأتمنى ألا نصل لهذه النقطة، لكن سنحصل على ما نريد كلما كنا أكثر سرعة فى القدرة على إقناع النمساويين أننا نتحدث بجدية. سننتظر وصولهم وراء الأسوار، ومن هناك لن نتحرك حتى ولو أظهروا نية الدخول . وكقائد، سأتكفل أنا بالمخاطبة، نيابة عنكم، فى هذه اللحظات الأولى، فقط أرغب أن يكون وجه كل منكم مثل الكتاب المفتوح على صفحة مكتوب فيها هذه الكلمات، لا أحد يدخل هنا . لو حققنا ذلك، سيضطر النمساويون إلى المبيت خارج الأسوار، وبذلك نضعهم ـ من البداية ـ فى موضع الأقل. من الممكن ألا تجرى كل الأمور بالسهولة التى تحملها كلماتى الواعدة، لكننى أضمن لكم أننى سأفعل كل شىء حتى يسمع النمساويون من فمى جواباً لا ينتقص من سلاح الفروسية الذى نكرس له حياتنا. حتى فى حالة عدم الصدام، وعدم وصول الأمور لإطلاق النار، سيكون النصر حليفنا، كما سيكون حليفنا أيضاً إن اضطررنا لاستخدام السلاح . فهؤلاء النمساويون ـ فى البداية ـ يأتون إلى فيجيرا دى كاستيلو رودريجو فقط ليرحبوا بنا ويصحبونا إلى بلد الوليد، لكن لدينا أسبابنا لنشتبه فى أن تكون نيتهم هى صحبة سالومون بمفرده وتركنا نحن هنا كالبلهاء. لكنى واثق من نفسى، كما أثق أننا سنخيب أملهم . غداً، قبل العاشرة صباحاً، أريد أن يصعد مراقبان فى أكثر الأبراج علواً بالقلعة، لا أود أن يحدث انتشار أمر أنهم سيصلون عند

الظهيرة فيفاجئوننا ونحن نسقى الجياد. مع النمساويين لا يمكن توقع شىء، أنهى القائد، دون أن يتوقف عن تفكيره، بخصوص هؤلاء، أنهم أول نمساويين يعرفهم فى حياته وربما الأخيرون.

كان القائد محقاً فى شكوكه، فقرب العاشرة تقريباً ومن أعلى نقطة فى البرج دوت صيحات إنذار المراقبين، عدو على مرمى البصر، عدو على مرمى البصر . الحق أن النمساويين، على الأقل فى روايتهم العسكرية، لا يتمتعون بسمعة طيبة بين هذه القوات البرتغالية، لكن مجرد إطلاق اسم عدو عليهم يخلق مسافة لا يستطيع العقل أمامها سوى الشعور بالعنصرية بشكل قاس، ويلفت انتباه غير المحتاطين لخطورة الأحكام المتسرعة والميل للإدانة بلا براهين. المسألة، رغم ذلك، لها تفسير . لقد تلقى المراقبان أمراً بإطلاق صيحة إنذار، لكن لم يخطر ببال أحد، ولا حتى القائد الحذر بشكل عام، أن يقول لهما مضمون هذه الصيحة . وأمام معضلة تحتم الاختيار بين عبارة عدو على مرمى البصر، التى يفهمها أى مدنى، والعبارة العسكرية الزيارات على وصول، حل زى النمساويين المسألة فقررا أن يفعلا ما يتراءى لهما، معبرين بالمفردة والصوت المناسبين بالنسبة إليهما . كان صدى الإنذار الأخير لا يزال يهتز فى

الهواء والجنود يركضون نحو الشرفات ليروا هذا العدو، الذى لم يكن على هذه المسافة، أربعة كيلومترات أو خمسة، سوى بقعة شبه سوداء بالكاد يمكن رؤية تحركها، وعلى عكس التوقعات، لم تكن تلمع بالدروع التى يحضرونها . أنهى جندى حالة التردد، ليس ذلك بغريب، فالشمس تأتى فى ظهورهم، ولنعترف أنه من الأجمل والأكثر أدبية أن نقول، إنهم ضد الضوء. كانت الجياد، الغدارة والصهباء، تتقدم بخبب قصير، بشعر بنى متدرج اللون، وبقعة غامقة. وربما كانت قادمة ببطء أكبر، فالفارق لن يلاحظ، رغم أنها بذلك ستفقد التأثير النفسى لتقدم يبغى أن يقدم نفسه باعتباره لا يمكن إيقافه، لكنه فى الوقت نفسه يعرف كيف يدير الوسائل المزود بها. من الواضح أن عدّواً سريعاً بأسياف مشهرة، من نوعية عبئوا فرقة الجيش خفيفة الحركة، سيهب للمشهد عناصر خاصة أكثر روعة، لكن، من أجل نصر سهل كما تعد هذه، سيكون من العبث إرهاق الجياد على هذه المسافة دون ضرورة جذرية. هذا ما قد فكر فيه القائد النمساوى، وهو رجل ذو باع طويل فى أراضى المعارك بأوروبا الوسطى، ونقله لعساكره بأوامر منه. أثناء ذلك، كانت كاستيلو رودريجو تستعد للقتال. فالجنود، بعد أن أسرجت الحيوانات، ساقتها ببطء حتى الخارج، وتركوها هناك يراقبها نصف دستة من الزملاء، هم أقدر الناس على مهمة قد تبدو كرعى بسيط إن كان هناك شىء يؤكل على بوابات كاستيلو.

ذهب الجاويش لينبه الناظر أن الجيش النمساوى يقترب، مازال أمامه بعض الوقت، لكن يجب أن نكون مستعدين، قال . اتفقنا، أجاب الناظر، أنا أرافقك. عندما وصلا للقلعة، كانت القوات مشكّلة أمام المدخل، مغلقين البوابة، وكان القائد يستعد لنطق خطبته الأخيرة. اجتمع فى الميدان جزء كبير من سكان فيجيرا دى كاستيلو رودريجو، رجال ونساء، أطفال وشيوخ، مشدودين لعرض الجياد المجانى ولاحتمالية أن يخرج الفيل أيضاً، وهو ما جعل القائد يقول لناظر القلعة بصوت خفيض، مع كل هؤلاء الحاضرين، تتضاءل إمكانية الاعتداءات . أعتقد الشىء نفسه، لكن مع النمساوى من الصعب التوقع. هل كان لك من قبل تجارب سيئة معهم، سأل القائد. لا سيئة ولا حسنة، أبداً، لكننى أعرف دوماً أن الجيش النمساوى موجود، وهذا بالنسبة إلىّ أكثر من كافٍ. ورغم أنه هز رأسه فى إيماءة تفهم، لم يستطع القائد أن يلتقط مغزى الكلام، باستثناء أنه فهم أن النمساوى مرادف للخصم، للعدو. هكذا قرر أن يلقى فوراً خطبته التى كان يتمنى أن توقظ حماس بعض رجاله الخامل. أيها الجنود، قال، الفرقة النمساوية اقتربت. سيأتون فى طلب الفيل ليحملوه إلى بلد الوليد، لكننا لن نلبى طلبهم حتى لو أرادوا اللجوء إلى فرض القوة، فالجنود البرتغاليون يخضعون بانضباط لأوامر الملك والسلطات العسكرية والمدنية، لا لأحد آخر، سيتم الوفاء بوعد الملك بتقديم الفيل سالومون إلى سمو أرشيدوق النمسا فى موعده، فقط إن اتبع

النمساويون قواعد الاحترام فى المعاملة، وعندما نعود برأس مرفوع إلى بيوتنا، سنشعر بالأمان؛ لأن هذا اليوم سيكون محفوراً فى الذاكرة للأبد، ولأن كل واحد منا سيفخر بأن يقول ما دامت البرتغال، لقد كنت فى فيجيرا دى كاستيلو رودريجو. لم تستطع الخطبة أن تصل لمفهومها الطبيعى، بمعنى، عندما تنفد البلاغة وتتوه فى أماكن جمعية، فهذا أسوأ، فالنمساويون كانوا يدخلون الميدان، على رأسهم قائدهم. انطلقت تصفيقات الشعب المجتمع، لكنها كانت قليلة وبقليل من الاقتناع. بجانبه الناظر، تقدم قائد الفرقة البرتغالية بجواده الأمتار القليلة الضرورية ليُفهم بذلك أنه يستقبل الزوار متفقاً مع قواعد التربية رفيعة المستوى . كان فى هذه اللحظة عندما لمعت فجأة مناورة من الجنود النمساويين، تحت الشمس، بالدروع الفولاذية المصقولة . كان أثر ذلك بين الحضور مداهماً . أمام التصفيقات وصيحات الدهشة التى ظهرت فى كل جانب، كان من الواضح أن الإمبراطورية النمساوية، دون إطلاق رصاصة واحدة، كانت قد انتصرت فى المناوشة المبدئية. أدرك القائد البرتغالى أنه يجب أن يقوم بهجوم مضاد فى الحال، لكنه لم يجد الوسيلة . أنقذه الناظر من وقت الحرج عندما قال له بصوت خفيض، لأننى الناظر يجب أن أكون أول من يتحدث، علينا أن نهدأ . قهقر القائد جواده قليلاً واعياً للفارق الهائل، فى القوة والجَمال، بين مطيته والجواد الأصهب الذى يمتطيه النمساوى.

تناول العمدة الكلمة، باسم قرية فيجيرا دى كاستيلو رودريجو، التى يشرفنى أن أكون ناظرها، أرحب بالعساكر النمساويين الشجعان القادمين فى زيارتنا وأتمنى لكم أفضل الانتصارات فى تحقيق المهمة التى جئتم من أجلها إلى هنا، وأنا على يقين أنكم ستعملون على تقوية أواصر الصداقة التى تجمع بين بلدينا. فمرحباً بكم إذًا فى فيجيرا دى كاستيلو رودريجو. تقدم رجل كان يمتطى بغلة عدة خطوات للأمام وتحدث هامساً للقائد النمساوى، الذى أشاح بوجهه فى ضيق صدر . كان المترجم، المترجم الفورى . عندما انتهت الترجمة، رفع القائد صوته الجهور، الذى لم يعتد أن يصل إلى آذان غير مصغية ولا غير مطيعة، تعرفون لماذا نحن هنا، تعرفون أننا جئنا لنبحث عن الفيل لنأخذه إلى بلد الوليد، ومن المهم ألا نضيع الوقت ولنبدأ بالفعل فى استعدادات النقل، بحيث نتمكن من الرحيل صباح غد فى أبكر وقت ممكن، وهذه هى التعليمات التى تلقيناها من صاحب الأمر والتى سأنفذها بالاتفاق مع السلطة المخولة إلىّ. كان واضحاً أنها ليست دعوة إلى رقصة فالس. دمدم العمدة، لقد حانت اللحظة. يبدو هذا، قال القائد. بعدها جاء دوره ليرفع صوته، تعليماتى مختلفة، فالتعليمات التى تلقيتها من صاحب الأمر أيضاً تقول ببساطة مصاحبة الفيل حتى بلد الوليد وتسليمه لأرشيدوق فيينا شخصياً، بدون وسيط . بداية من هذه الكلمات، المثيرة بشكل متعمد والتى

ربما يكون لها عواقب جادة، سيتم إلغاء صوت المترجم من القصة ليس فقط بهدف تيسير الحوار، وإنما أيضاً لنلمح بمهارة لفكرة رائدة مضمونها ان المبارزة بالبراهين من جانب والجانب الآخر يجب أن تحس من كلا الجانبين فى وقتها الواقعى . الآن يُسمع صوت القائد النمساوى، أرتاب أن يقف موقفكم قليل التفاهم عائقاً أمام حل سلمى للخلاف الذى يواجهنا، فمن الواضح أن المحور الأساسى يتمركز فى أن الفيل يجب أن يذهب لبلد الوليد، بغض النظر عمن يصطحبه، مع ذلك، هناك تفاصيل أولية يجب علينا أن نضعها فى الاعتبار، أولها أن الأرشيدوق ماكسيميليانو عند إعلانه قبول الهدية صار بهذا الفعل مالكاً للفيل، وهو ما يعنى أن أفكار سمو الأرشيدوق بهذا الشأن يجب أن تسود فوق الأفكار الأخرى، مهما ظهر أنها جديرة بالتقدير، وأصرُ أنه عليكم أن تسلمونى الفيل حالاً، بلا مماطلة أكثر، وهذه هى الوسيلة الوحيدة لتتجنبوا اختراق جنودى للقلعة بالقوة وامتلاك الفيل . أود أن أرى كيف سيحققون ذلك، فلدىّ أربعون رجلاً يغطون مدخل القلعة ولا أفكر أن أقول لهم انسحبوا أو لموا أجنحتكم ليتركوا رجالك الأربعين يمرون . فى هذه اللحظات كان الميدان شبه خال من أهله، وبدأ يشيع فى الجو رائحة أرض محترقة، وفى أحوال مثل هذه عادة ما نجد احتمالية طلقة طائشة أو ضربة سيف عمياء من الظهر، بينما تكون الحرب مجرد عرض، حسناً، الأمر السيئ يقع عندما يطمحون أن يحولونا

إلى كومبارسات، والأدهى دون أن يعدونا وبلا خبرة منا . ولهذا، كانوا قلة من استطاعوا أن يستمعوا إلى رد القائد النمساوى على جراءة البرتغالى، الفرسان الذين تحت إمرتى يستطيعون بأمر بسيط منى، وفى أقل من الوقت الذى يستغرقه نطق الأمر، تنظيف أرض المعركة من القوة العسكرية الهزيلة التى تضعها، وهى قوة رمزية أكثر منها فاعلة، وهذا ما سيحدث إن لم يتم التنازل عن العند الطائش الذى يقدم قائدك نموذجاً له، وهو ما يجبرنى أن أحذرك بأن الخسائر البشرية التى لا يمكن تجنبها، فى الجانب البرتغالى، حسب درجة المقاومة، ربما تكون كاملة، وأن المسئولية الوحيدة والكاملة تلقى على كتفه، حتى لا تشتكوا بعد ذلك. بما أن سيادتك، إن كنت قد فهمت ما قلته، ستحاول قتلنا جميعاً، لا أرى كيف سنشتكى بعد ذلك، وعلى أية حال أظن أن لديك صعوبة ما فى تبرير لجوئك للعنف لهذه الدرجة ضد جنود لم يفعلوا شيئاً سوى الدفاع عن حق ملكهم فى ترسيخ قاعدة لتسليم الفيل المُهدى لماكسيميليانو أرشيدوق فيينا، الذى، فى هذه الحالة، يبدو لى مضللاً، سواء على المستوى السياسى أو العسكرى . لم يرد القائد النمساوى فى الحال، ففكرة أنه يتحتم عليه أمام فيينا ولشبونة تبرير لجوئه لعنف له عواقب عنيفة كانت تجول برأسه، وفى كل جولة كانت المسألة تزداد تعقيداً . فى النهاية أعتقد أنه عثر على مناص للتصالح، فاقترح أن يُسمح له ولرجاله بدخول القلعة ليتحقق من حالة

الفيل الصحية . أظن أن جندك ليسوا أطباء بيطريين، أجابه قائد البرتغال، بالنسبة إلى سيادتك، لا أعرف، لكننى لا أعتقد أنك تخصصت فى فن علاج الحيوانات، وبالتالى لا أرى فائدة فى السماح لك بالدخول، على الأقل قبل أن تعترف بحقى فى الذهاب إلى بلد الوليد؛ لأقوم شخصياً بتسليم الفيل إلى سمو أرشيدوق النمسا. صمت جديد من جانب القائد النمساوى . وعندما رأى أن الإجابة لم تخرج، قال الناظر، أنا أتحدث معه. وبعد عدة دقائق عاد بتعبير السرور على وجهه، لقد وافق. قل له إذًا، طلب القائد البرتغالى، إنه يشرفنى أن أصطحبه فى الزيارة. وبينما كان الناظر يذهب ويعود، أعطى القائد البرتغالى أمراً إلى الجاويش ليوجه أمراً بتشكيل القوات فى صفين . تقدم الجواد عندما انتهت المناورة، حتى انتهى بجوار الفرس النمساوى، وطلب من المترجم أن يترجم، فمرحباً بكم من جديد فى كاستيلو رودريجو، هيا لنرى الفيل.

باستثناء مناوشة ليست ذات أهمية كبيرة بين الجنود، ثلاثة من كل جانب، لم تقع حوادث بارزة فى المسيرة إلى بلد الوليد. وفى إيماءة سلام جديرة بالذكر، تخلى القائد البرتغالى عن تنظيم القافلة، بمعنى، عن قرار من يسير فى المقدمة ومن فى المؤخرة، متفقاً مع إرادة القائد النمساوى، الذى كان واضحاً جداً فى اختياره، نحن سنسير فى المقدمة، أما الباقون فلتنظمهم كأفضل من يفهم فى ذلك، أو لأن لديك الخبرة، حسب وضع الطابور الذى خرجوا به من لشبونة. هناك سببان واضحان وممتازان لاختياره أن يكون على رأس القافلة، أولهما أنه الضيف بشكل عملى، ثانيهما، رغم عدم الاعتراف بذلك، أنه فى حالة السماء المكشوفة، مثل الآن، وحتى تبلغ الشمس أوجها، نقصد، خلال ساعات الصباح، سيكون أمامهم فى الصف الأول النجم المسمى بالملك، وهى الفائدة الجلية لتحقيق بريق الدروع. أما بخصوص إعادة الطابور، فنحن نعلم أن ذلك غير

ممكن، فرجال الحمل فى طريقهم إلى لشبونة، وسيستريحون، فى مستقبل بعيد، بمدينة أوبورتو المخلصة دوماً والتى لا تُقهر . على أية حال، لن يستدعى الأمر اللف والدوران، إن تم تطبيق قاعدة أن الأكثر بطئاً فى القافلة سيكون هو من يحدد الخطوة، وبالتالى سرعة المقدمة، سيترتب عليها بلا أدنى شك سير الثيران خلف الفرسان، الذين سيتمتعون بالطبع بطريق مفتوح لتسرع جيادهم كلما راق لهم، بهدف ألا يتمكن الناس الذين يقتربون من الطريق ليروا العرض من خلط النظيف بالمتسخ، وهو تعبير قشتالى نستخدمه بالتحديد لإننا فى قشتالة ولنعرف القدرة الإيحائية بلمسة طفيفة للون المحلى، والمقصود بالعبارة بالتحديد، لمن لا يعرف، عدم خلط الصوف النظيف بالصوف المتسخ. أو، بكلمات أخرى، عدم خلط الجياد، تلك المتطاة من قبل فرسان مصفحين ضد الشمس، بزوجىّ الثيران النحيلة، التى تجر عربة محملة ببرميل من الماء وعدد من جعبات الغذاء لفيل يأتى فى الخلف ويحمل على ظهره رجلاً متسلقاً. وراء الفيل يأتى فريق الفروسية البرتغالية، المرتعد من الفخر لموقفه الشجاع بالأمس، عندما غطوا مدخل القلعة بأجسادهم. ولن ينسى أحد من الجنود السائرين الآن، مهما طالت سنوات عمرهم، اللحظة التى فيها أعطى القائد النمساوى، بعد زيارته للفيل، أمراً للجاويش بنصب المخيم هناك فى المكان نفسه، بالميدان . لمدة ليلة واحدة، برّر، بحماية بعض

السنديان المزنّد، ورغم أننا رأينا فى حياتنا أشياءً كثيرة، إلا أننا لم نر أبداً جنوداً نائمين فى رطوبة الليل بجانب قلعة يمكن أن يقيم بها ثلاث فرق مشاه وما يخصهم من فرق موسيقية. كذلك كان النصر المطلق على طموحات النمساويين المتعسفة شيئاً نادراً فى حالات مثل هذه، نصراً للعقل، ففضلاً عن حقن الدماء الكثيرة التى كانت ستجرى على أرض كاستيلو رودريجو، فأى حرب بين البرتغال والنمسا لن تكون فقط عبثية، بل أيضاً غير قابلة للتحقيق، إلا إذا استأجرت إحدى الدولتين ـ من فرنسا على سبيل المثال ـ جزءًا من أرضها، فى وسط الطريق تقريباً بين المتخاصمتين، حتى يمكن صف القوات وتنظيم القتال. فى النهاية، كل شىء يصير على ما يرام عندما ينتهى على ما يرام.

سوبهرو ليس على يقين أنه يستطيع أن يستفيد من المثل المسكّن. فالحمقى الذين يرونه عابراً الطريق، فوق قمة طولها ثلاثة أمتار ومرتدياً ثوبه الجديد الملون، ثوب الذهاب لرؤية عرابته، إن كان له عرابة، ليس بقصد تباه شخصى وإنما ليظهر البلد القادم منه بمظهر حسن، يظنون أن هناك شخصاً مزوداً بسلطات فوق العادة، عندما يقول الواقع إن الهندى يرتجف لمجرد تفكيره فى مستقبله القريب. يعتقد أنه حتى فى بلد الوليد سيكون مضمون الوظيفة، إن أحداً لابد أن يدفع له مقابل وقته وعمله، يبدو السفر فوق ظهر فيل أمراً هيناً، لكن لا يقول ذلك إلا من لم يعان

أبداً تجربة إجباره مثلاً على التوجه إلى اليمين عندما يريد هو الذهاب إلى اليسار. لهذا، ستضطرب الأحوال من الآن فصاعداً. لابد أنه فكّر منذ اليوم الأول أن مهمته هي مرافقة سالومون حتى فيينا، واعتقد أن لديه أسبابه، لأن ذلك يدخل تحت سيطرة ما هو ضمنى، فلو كان للفيل فيّاله الشخصى، فمن الطبيعى أن يذهب أحدهما حيث يذهب الآخر. لكن كان يجب أن يخبروه، ناظرين إلى عينيه، إن ذلك لم يحدث إطلاقاً. لبلد الوليد، نعم، لكن ليس أكثر من ذلك. ولهذا كان من الطبيعى أيضاً أن يحرضه خياله على تمثيل أسوأ المواقف الممكنة، وهى الوصول لبلد الوليد ومقابلة فيّال آخر فى انتظاره كشاهد لمواصلة اليوم، وعند وصوله إلى فيينا، يعيش ببطن شبعى فى قصر الأرشيدوق ماكسيميليانو. مع ذلك، وعلى عكس ما من الممكن أن يفكر فيه أى منا، نحن - المعتادين - على وضع الاهتمامات المادية فوق القيم الروحانية الحقيقية، لم يكن الطعام والشراب، والسرير المرتب كل يوم، هو ما أخرج تنهيدة سوبهرو، بل إلهام مفاجئ، ولكونه إلهاماً لم يكن مفاجئاً بالمعنى الحرفى للكلمة، ذلك لأن الحالات المستترة يمكن عدها أيضاً، مثل الحب لهذا الحيوان وعدم الرغبة فى مفارقته. نعم، لكن إن كان هناك فى بلد الوليد راع آخر ينتظر ليتولى الوظيفة، فلن تزن أسباب قلب سوبهرو شيئاً فى ميزان الأرشيدوق المنصف. كان ذلك عندما قال سوبهرو بصوت عالٍ من قمته وهو يتأرجح على إيقاع

خطوات الفيل، دون أن يمكن أن يسمعه أحد، أحتاج أن أتحاور معك بجد يا سالومون. ولحسن الطالع لم يكن أحد حاضراً، وإلا لظنوا أن سوبهرو مجنون، وبالتالى فأمن القافلة يتعرض للخطر . بداية من تلك اللحظة، اتخذت أحلام سوبهرو طريقاً آخر. ومثل حالات الحب المتعارضة، هذه التى لا يعرف أحد فى العالم لماذا لا يمكن تجنبها، كان سوبهرو يهرب مع الفيل من خلال المنحدرات والتلال والجبال، عابراً بضفاف لاجوس، مجتازاً الأنهار والغابات خادعاً مطاردة الفرسان، الذين لم تكن سرعة جيادهم الصهباء تنفعهم كثيراً، لأن الفيل، عندما يود، يصير قادراً أيضاً على الخبب . فى تلك الليلة، التى لم ينم فيها أبداً بعيداً عن سالومون، اقترب من الفيل حريصاً على ألا يوقظه، وبدأ يدمدم فى أذنه . كان يصب الكلمات فى سمعه، فى همس غامض من الممكن أن يبدو هندياً أو بنغالياً على السواء، أو لغة لا يعرفها سواهما، لغة ولدت وترعرعت فى سنوات العزلة، تلك التى كانت تقطعها صيحات أبطال قصر لشبونة أو قهقهات أوباش المدينة وما حولها، أو قبل ذلك، فى رحلتهما الطويلة فى مركب حملهما إلى البرتغال، وسط سخريات البحّارة. وبسبب جهلنا المطلق للغات، لا يمكننا أن نكشف ما قاله سوبهرو فى أذن سالومون، لكن، لأننا نقف على الآمال المقلقة التى تشغل بال الفيال، ليس من المستحيل تخيل مضمون الحوار . كان سوبهرو، بكل بساطة، يطلب مساعدة

سالومون، مقترحاً عليه بعض اقتراحات السلوك العملية، على سبيل المثال، كيف يُظهر، بأكثر الأساليب التعبيرية التى يمتلكها أى فيل، بما فيها الأساليب الراديكالية، شعوره بعدم الرضا لمفارقته الاضطرارية للفيال، إن وصل الأمر لهذا. سيعترض أحد المتشككين بأنه لا يمكن انتظار الكثير من حوار من تلك الحوارات لمجرد أن الفيل لم يعط أى رد على الطلب، بل ظل نائماً بهدوء . هو الجهل بطبيعة الفيلة. فلو تحدثنا فى آذانها بالهندية أو بالبنغالية، بخاصة أثناء نومها، فهى مثل جن المصباح، بمجرد خروجه يسأل، لبيك يا سيدى. على أية حال، نحن فى ظروف تسمح لنا أن نقول إنه لن يحدث شىء فى بلد الوليد. وفى الليلة التالية، يحركه الندم، ذهب سوبهرو إلى سالومون ليقول له ألا يعير انتباهاً لما طلبه منه، فلقد كان أسوأ من أسوأ أنانى، فهذه ليست الوسائل لحل الأمور، لو حدث ما أخشاه، فأنا من عليه أن يتحمل المسئولية ويحاول إقناع الأرشيدوق بأن يتركنا برفقة بعضنا البعض، اسمعنى، ليحدث ما يحدث، أتسمعنى، لا تفعل شيئاً . نفس الرجل المتشكك، لو كان موجوداً هنا، لن يجد أمامه حلاً آخر سوى أن يترك ريبه جانباً ويعترف، إنها إيماءة جميلة، وهذا الفيَّال حقاً رجل طيب، ولا من شك فى أن أفضل الدروس تأتينا دوماً من أبسط الناس . بسلام روحى، عاد سوبهرو إلى مرتبته المحشوة بالقش ونام خلال دقائق قليلة . وعندما استيقظ فى الصباح التالى وتذكر القرار الذى

اتخذه، لم يستطع أن يتجنب سؤالاً طرحه على نفسه، ولماذا سيريد الأرشيدوق فيالاً إن كان لديه من يخدمه. وظل يعرض أسبابه فى تحد، لدىّ قائد الفرسان شاهداً وضامناً، رآنا فى القلعة ومن المستحيل ألا يكون قد انتبه أنها مرات قليلة تلك التى يرى فيها ألفة بين حيوان وإنسان، من الحق أنه يفهم قليلاً فى الفيلة، لكنه يعرف كثيراً فى الجياد، وهذا يكفى. فكون سالومون لديه طباع طبيعية، فهذا أمر يعرفه الجميع، لكننى أسأل هل كان من الممكن أن يفعل مع فيالّ آخر ما فعله يوم وداع رجال الحمل . الأمر ليس أنه تعلم ذلك، أريد أن أوضح هذا، فهو شىء قد خرج من روحه بشكل تلقائى، فأنا نفسى كنت أعتقد أنه سيصل إلى هناك، وسيفعل على أقصى تقدير حركة بزلومته، وسيطلق صيحة، ويخطو خطوتين راقصاً والوداع، إلى اللقاء، لكننى، رغم أننى أعرفه خير معرفة، بدأت أرتاب أنه هناك شىء ينبت فى رأسه وسيتركنا جميعاً فى دهشة . أتخيل أنه قد كتب كثيراً عن الفيلة كفصيلة ومازال الكثير ليكتب فى المستقبل، لكننى أشك أن يكون أحد هؤلاء المؤلفين قد شاهد أو ببساطة قد سمع من يتحدث عن معجزة فيل يمكن مقارنتها بما حدثت وحضرتها فى كاستيلو رودريجو، دون أن أصدق ما تراه عيناى .

هناك اختلافات فى الرأى فى صف الفرسان. بعضهم، لعلهم الأصغر سناً والأكثر جرأة، الذين مازالت الدماء تجرى فى عروقهم، يدافعون عن أن

قائدهم كان يجب، مهما كلفه الأمر، أن يحافظ حتى المتراس الأخير على الخط الاستراتيجى الذى دخل به إلى كاستيلو رودريجو، بمعنى، استلام الفيل الفورى وبلا شروط، حتى لو احتكم الأمر لضرورة الاستخدام الرادع للقوة. كل شىء إلا الخنوع المفاجئ أمام الإثارات اللاحقة من قبل القائد البرتغالى، الذى بدا أنه مشتاق للمعركة، رغم أنه على يقين حسابى من أنه سيلقى الهزيمة فى المجابهة. كان هؤلاء يفكرون أنه تكفى إيماءة فعالة بسيطة، مثل إشهار أربعين سيفاً مستعدة للهجوم بشكل فورى، حتى تتسرب الصلابة الظاهرة للبرتغاليين الهزيلين وتفتح أبواب القلعة على مصراعيها أمام النمساويين المنتصرين. والبعض الآخر، الذين وجدوا بالتساوى موقف القائد المتخاذل غير مفهوم، اعتبروا أن الغلطة الأولى تكمن فى الوصول للقلعة، وفرض أنفسهم بالقوة بدون حديث، أحضروا الفيل إلى هنا، فليس لدينا وقت لنضيعه. فأى نمساوى، ولد وتربى فى أوروبا الوسطى، يعلم أنه فى حالة مثل هذه، يجب الحوار، واللطف، والاهتمام بصحة العائلة، والتعليق الرخيم على منظر الجياد البرتغالية والأناقة الهائلة لقلاع كاستيلو رودريجو، وبعد ذلك، نعم، مثل رجل تذكر فجأة أمراً أكثر منه يتناوله، حقاً، إنه الفيل . وبرهن عسكريون آخرون، أكثر انتباهاً لواقع الحياة القاسى، أنه لو جرت الأمور كما أراد زملاؤهم، لصاروا الآن فى الطريق بصحبة الفيل وبدون أن يكون لديهم ما يطعمونه به، حيث إنه

لا معنى لأن يترك البرتغاليون عربة الثيران ترحل بجعبات الزاد وبرميل الماء، إن كانوا هم أنفسهم سيبقون فى كاستيلو رودريجو، ولا أحد يعلم عدد الأيام المنتظرة من أجل العودة. هذا ليس له إلا تفسير واحد، تمم أمباشى يبدو من وجهه أنه قد درس، أن القائد لم يتلق أمراً من الأرشيدوق أو ممن له الأمر ليطالب بتسليم الفيل الفورى، وأنه فقط، خلال الطريق أو حتى بعد وصوله لكاستيلو رودريجو، خطرت الفكرة بباله، لو استطعت أن أستثنى البرتغاليين من لعبة السفر هذه، فكّر، سيكون كل الشرف لى أنا ورجالى. من المشروع أن يسألوا أنفسهم كيف من الممكن أن يصل لمرتبة ضابط فرسان نمساوى بأفكار مثل هذه بل وتنقصه الصراحة كذلك بشكل خطير، فحتى الطفل الصغير سيدرك أن التلميح الودى لجنده لم يكن سوى تكتيك صرف ليدارى طموحه الشخصى والمقتصر عليه. يا للحسرة. نحن، مع مرور الوقت، العيوب التى تشكلنا، لا المزايا.

قررت مدينة بلد الوليد أن تظهر بأجمل زيناتها من أجل استقبال الفيل المنتظر منذ وقت طويل، حتى أنها وصلت للحد الأقصى، كما لو أنه موكب عظيم، فقامت بتعليق متدليات فى الشرفات وبعض البيارق التى لم تفقد ألوانها كلية والتى يموّجها نسيم شبه خريفى. ارتدت العائلات ثياباً نظيفة قدر المتاح فى هذه الفترة من نظافة، وجالوا فى الشوارع الأقل نظافة بكثير، تدفعهم فكرتان رئيسيتان، معرفة أين يعثرون على الفيل وماذا سيحدث بعد ذلك. كانت هناك معكرات الأفراح التى تؤكد أن الفيل مجرد إشاعة، ربما يظهر ذات يوم، نعم، لكن لم يكن فى المستطاع معرفة متى سيحدث ذلك. هناك من أقسم إن الحيوان المسكين، المنهوك، يستريح منذ وصوله بالأمس، بعد أن تحتم عليه قطع مسافات طويلة وقاسية حتى يصل لبلد الوليد، أولها بين لشبونة وحتى فيجيرا دى كاستيلو رودريجو، وبعدها بين الحدود البرتغالية وهذه المدينة التى تشرف بأنها استضافت منذ عامين، بصفته حاكماً إقليمياً على

إسبانيا، صاحب السعادة والسمو الملكى الأرشيدوق ماكسيميليانو وحرمه ماريا، ابنة الإمبراطور كارلوس الخامس. ندوّن ذلك حتى نرى مدى أهمية هذا العالم من الشخصيات، كلهم ينتسبون إلى الملكية الأعلى، وعاشوا فى زمن سالومون، ولم يتعرّفوا فقط على وجوده مباشرة بشكل أو بآخر، بل أيضاً عرفوا المآثر التى كان بطلها رغم أنها كانت مآثر سلمية. الآن، يحضر الأرشيدوق وحرمه مفتونين لمكان زينة الفيل، بحضور أعضاء بارزين من القصر ورجال الدين وبعض الفنانين المدعوين خصوصاً لتخليد هيئة الحيوان وهيكله القوى على الورق أو الخشب أو القماش. تقود الأنا العليا لسالومون، وهى الهندى سوبهرو، جميع العمليات التى لا ينقصها، مرة أخرى، الماء بوفرة والفرشاة المصنوعة من ألياف النخل والعصا الطويلة. يشعر سوبهرو بسعادة؛ لأنه لم ير منذ وصل، منذ أكثر من أربع وعشرين ساعة، أية علامة على تطفل فيال آخر، لكن وكيل الأرشيدوق أخبره بشكل رسمى أن سالومون، من الآن فصاعداً، سيكون اسمه سليمان. ضايقه بعمق تغيير الاسم، لكن - كما يقول المثل - فقد الخواتم أفضل من فقد الأصابع. تحسن كثيراً منظر سليمان، فلنسجل اسمه هكذا، ليس أمامنا حل آخر، بعد الاستحمام العام الذى خضع له، لكنه صار شيئاً براقاً، سنقول حد الإبهار، عندما قام بعض الخدم، بجهد كبير، بإلباسه ثوبًا طرزته له أكثر من عشرين مطرزة خلال عدة أسابيع، بلا توقف، وهو عمل من الصعب أن نجده فى

مكان آخر من العالم، حيث احتوى على أحجار غزيرة، ورغم أنها لم تكن كلها ثمينة إلا أنها كانت تبرق كما لو كانت كذلك، بالإضافة لخيوط من الذهب والقطيفة الثرية. يا له من إسراف، همهم المطران لنفسه، جالساً على مسافة قريبة من الأرشيدوق، فكل ما تم إنفاقه على هذا الحيوان كان يمكن أن يطرز به رداء رائع للكاتدرائية، حتى لا يجب علينا أن نخرج دوماً بالرداء نفسه، كما لو كنا فى قرية متوسطة الحال، مثل هذه القرى، ولسنا فى بلد الوليد. إيماءة من الحاكم قاطعت تفكيره المتمرد. لم يكن ضرورياً فهم الكلام، فتكفى لعبة الأيدى الملكية، مشيرة، نازلة، صاعدة، كان الأمر فى غاية الوضوح، الأرشيدوق كان يريد الحديث مع الفيَّال. برفقة أحد الرجال من ذوى المقام الرفيع بالقصر، بدا لسوبهرو أنه كان يحلم حلماً رآه من قبل عندما، خلف الحاجز الدنس فى بيلين، ساقوه أمام رجل طويل اللحية كان ملك البرتغال، جوان الثالث. هذا الرجل الذى بعث فى طلبه الآن ليس ملتحياً، بل حليق اللحية بشكل كامل، وبدون أية مجاملة هو رجل جميل الصورة . تجلس بجانبه زوجته شديدة الجمال الأرشيدوقة ماريا، التى لن يدوم جمال وجهها وقوامها وقتاً طويلاً؛ لأنها ستلد ست عشرة مرة، عشرة ذكور وست إناث. فعلة وحشية. يتوقف سوبهرو أمام الأرشيدوق، وينتظر الأسئلة. ما اسمك؟ كان هذا هو السؤال الأول كما كان متوقعاً. اسمى سوبهرو يا سيدى. سوب ماذا. سوبهرو يا سيدى، هذا هو اسمى. وهل لاسمك معنى . إنه يعنى أبيض

يا سيدى. بأية لغة بالبنغالى يا سيدى، إحدى اللغات الهندية. التزم الأرشيدوق الصمت لعدة ثوان، بعدها سأل، وهل أنت من أصول هندية . نعم يا سيدى، ذهبت إلى البرتغال مع الفيل منذ عامين . هل يروق لك اسمك . لم أختره، هم من أعطوه لى يا سيدى وهل ستختار آخر لو استطعت. لا أعرف يا سيدى، لم أفكر فى هذا مطلقاً. ما رأيك إن جعلتك تغير اسمك . لابد أن لدى سموك سبباً . نعم عندى. لم يرد سوبهرو، فهو يعرف جيداً أنه غير مسموح توجيه الأسئلة إلى الملوك، وربما يكون هذا هو السبب الذى جعل نيل إجابة على شكوك وحيرات رعاياه أمراً شديد الصعوبة دوماً، وأحياناً حد المستحيل . حينئذ قال الأرشيدوق ماكسيميليانو، اسمك صعب النطق. لقد قلت ذلك لى يا سيدى. وأنا متأكد أنه لا أحد فى فيينا يمكنه فهمه. الخطأ خطئى يا سيدى. لكن لهذا الخطأ حلاً، سيصير اسمك فريتس فريتس، ردد سوبهرو بصوت مجروح. نعم، إنه اسم سهل الحفظ، فضلاً عن أنه اسم منتشر فى النمسا، وأنت ستكون إضافة جديدة، لكنك الوحيد بفيل. لو سمح لى سموك، أنا أفضّل أن أبقى باسمى الدائم. لقد قررت، وأحذرك أننى سأغضب منك إن طلبت ذلك مجدداً، ضع فى رأسك أن اسمك فريتس وليس اسماً آخر . أمرك يا سيدى . حينئذ نهض الأرشيدوق من كرسيه الفخم وقال بصوت عالٍ ورنّان، انتبهوا، هذا الرجل قَبِلَ فى التو اسم فريتس الذى أسميته به،

وهذا يعنى أنه فضلاً عن مسئولية كونه راعى الفيل سليمان أود أن أحدد أن عليكم جميعاً أن تعاملوه باحترام وتقدير، وبكل أسف، فى حالة عدم تقديره، سأصب جم غضبى على المسئولين عن ذلك . لم يقع الإنذار موقعاً حسناً فى الأرواح، وجرى كل نوع من الهمهمات بعده، احترام مضبوط، سخرية متسامحة، غضب مهان، تخيلوا، يجب احترام فيال، مروض حيوانات، رجل يعدى الحيوانات المتوحشة، كما لو كان الشخص الأول فى المملكة، لن ينجدنا سوى أن تمر سريعاً نزوة الأرشيدوق. قل، مع ذلك، حباً فى الحقيقة، إن همهمة أخرى لم تتأخر فى سماعها، همهمة لا تحمل مشاعر كراهية أو متناقضة، لأنها كانت إعجاباً خالصاً، عندما نهض الفيل بزلومته ووضع أحد أنيابه فى قفا الفيَّال الواسع، الرحب مثل حوض الزرع . حينها قال الفيال، كنا سوبهرو وسالومون، والآن صرنا فريتس وسليمان . لم يوجه عبارته لأحد على وجه الخصوص، كان يقولها لنفسه، عالماً أن هذين الاسمين لا معنى لهما، بخاصة أنهما جاءا ليشغلا مكان اسمين آخرين لهما معنى. لقد ولدت لأكون سوبهرو، لا فريتس، فكّر . قاد خطوات سليمان حتى المكان المخصص له، إحدى أفنية القصر الذى، رغم أنه داخلى، إلا أنه سهل الاتصال بالشارع، وهناك تركه مع أعلافه ومشربه، بالإضافة لرفقة مساعدين كانا قد جاءا من لشبونة . سوبهرو، أو فريتس، سيكون من الصعب بمكان أن نعتاد اسمه الجديد، يحتاج أن يتكلم مع القائد، قائدنا، فالقائد

النمساوى لم يظهر مجدداً، ولابد أنه يقدم اعترافاً عن الدور السيئ الذى أداه فى فيجيرا دى كاستيلو رودريجو . لم يحن وقت الوداع، فالبرتغاليون سيرحلون غداً، وسوبهرو يحاول الحديث قليلاً عن الحياة التى تنتظره، وإعلان أنهم غيروا لهما الاسم، هو والفيل . وتمنيه لهم، للقائد وجنوده، رحلة عودة سعيدة، وفى النهاية، الوداع، عسى ألا ألقاكم. العسكريون يعسكرون على مسافة قريبة من المدينة، فى مكان مشجر، به جداول مياه صافية تجرى، استحم فيها أغلبهم . ذهب القائد للقاء سوبهرو، وعندما رآه بوجه قاتم سأله، أحدث شىء. غيروا لنا اسمينا، أنا الآن فريتس، وسالومون صار سليمان. مَنْ فعل ذلك . فعله من بيده الأمر، الأرشيدوق. ولماذا. هو من يدرى، فى حالتى لأن اسم سوبهرو يبدو له صعباً فى نطقه. حتى نتعود. حقاً، لكنه ليس لديه من يقول له إنه يجب أن يتعود . ساد صمت غير مريح، كسره القائد بأفضل طريقة ممكنة، سنرحل غداً، قال . كنت أعلم، رد سوبهرو، وجئت لأودعكم . وهل سنتقابل بعد ذلك، سأل القائد .أغلب الظن أنه لا، ففيينا بعيدة عن لشبونة. هذا يؤسفنى، فالآن قد صرنا صديقين. صديق كلمة كبيرة يا سيدى، وأنا لست إلا فيَّالاً غيروا له اسمه . وأنا قائد فروسية تغير بداخله شىء فى هذه المسيرة. أظن لرؤيتك الذئاب للمرة الأولى . رأيت أحدها منذ سنوات كثيرة، لما كنت صغيراً، لكننى لا أتذكر. لابد أن خبرة الذئاب تغير كثيراً فى الأشخاص. لا أعتقد أن هذا كان

السبب . إذاً هو الفيل. احتمال كبير، فلو كان من الممكن أن نفهم الكلب والقط، فالأمر ليس كذلك لفهم فيل. الكلاب والقطط تعيش بجوارنا، وهذا يسهل كثيراً العلاقة، حتى لو أخطأنا، فالتعايش سيحل المسألة، فنحن لا نعرف إن كانت تخطئ وكانت مدركة لهذا. والفيل. الفيل، لقد أخبرتك فى يوم آخر، شيء مختلف، فداخل الفيل يعيش فيلان، أحدهما يتعلم ما يعلمونه له وآخر يستمر فى جهله كلية. كيف تعرف ذلك . اكتشفت أننى مثل الفيل، جزء منى يتعلم، والجزء الآخر يجهل ما تعلمه الجزء الأول، وكلما زاد الجهل زاد الوقت الذى نعيشه. ليس بوسعى أن أتبعك فى هذا اللعب بالكلمات. لست أنا من يلعب بالكلمات، بل هى من تلعب بى. متى سيرحل الأرشيدوق. سمعته يقول من الآن ثلاثة أيام. سأشعر بغيابك. وأنا كذلك، قال سوبهرو، أو فريتس . مد له القائد يده، فضغط عليها سوبهرو بقوة، كما لو أراد ألا يحزنه، غداً نلتقى، قال. غداً نلتقى، ردد العسكرى. أعطى كل منهما ظهره للآخر وابتعدا. ولم ينظر أحدهما خلفه.

فى اليوم التالى، مبكراً، عاد سوبهرو للمعسكر، بصحبة الفيل. كان يصطحبه أيضاً المساعدان، اللذان صعدا إلى عربة الثيران فى الحال، حيث فكّرا فى الاستمتاع بأجمل النزهات . كان الجنود ينتظرون الأمر بالركوب . اقترب القائد من الفيَّال وقال، هنا سنفترق. أتمنى لكم سفراً سعيداً أيها القائد، لك ولرجالك. مازال أمامك أنت وسالومون طريق طويل

للسير من هنا حتى فيينا، أظن أن الشتاء سيكون قد أطل عندما تصلون. سالومون سيحملنى على ظهره، فلن أتعب فى شىء . بقدر معرفتى، هذه الأراضى يسودها البرد والثلج والصقيع، وهى مضايقات لم تتعرض لها فى لشبونة. بعض البرد، يجب أن نقولها كذلك، يا سيدى . لشبونة هى أكثر مدن العالم برداً، قال القائد مبتسماً، ما ينقذها هو مكانها حيث تكون . ابتسم سوبهرو أيضاً، كان الحوار شائقاً، وكان من الممكن أن يبقيا هناك بقية الصباح والمساء، والرحيل فقط فى اليوم التالى، فما الفرق، أسأل نفسى، إن وصلوا لبيوتهم متأخرين أربعًا وعشرين ساعة . كان فى هذه اللحظة عندما قرر القائد نطق خطبة الوداع، أيها الجنود، لقد جاء سوبهرو لتوديعنا ويحضر معه الفيل الذى كان أمنه مسئوليتنا خلال الأسابيع الأخيرة، من أجل إسعادنا. لقد كانت صحبة هذا الرجل خلال هذه الساعات إحدى تجارب حياتى الأكثر سعادة، ربما لأنهم يعرفون فى الهند أشياءً نجهلها نحن . لست على يقين أننى قد توصلت لمعرفته حق المعرفة، لكننى على يقين أننا من الممكن أن نكون، أكثر من صديقين بسيطين، أخوين. فيينا بعيدة، ولشبونة أبعد، وربما لن نلتقى مرة أخرى، وربما يكون ذلك أفضل، فعلينا أن نحتفظ بذكرى هذه الأيام بحيث نتمكن من أن نقول نحن أيضاً، هؤلاء الجنود البرتغاليون البسطاء، نتمتع بذاكرة فيل . واصل القائد حديثه خمس دقائق أخرى، لكنه قد قال الشىء الأساسى . بينما كان يتحدث كان سوبهرو يفكر فيما

قد يفعله الفيل. هل سيخطر بباله شيء شبيه بما حدث في توديع رجال الحمل، لكن الحقيقة أن التكرار يخيب الأمل دوماً، يجعل الشيء يفقد جماله، يلاحظ أنه ينقصه التلقائية، وإن غابت التلقائية، غاب كل شيء. قد يكون الأفضل ببساطة أن نفترق، فكر الفيَّال . مع ذلك، لم يكن الفيل متفقاً معه . وعندما انتهت الخطبة، دنا القائد من سوبهرو ليعانقه، فتقدم الفيل خطوتين ولمس بطرف زلومته، هذا النوع من الشفاه النابضة، كتف الرجل . كان توديع رجال الحمل، علينا أن نقولها هكذا، أكثر سينمائية، لكن هذا، ربما لأن الجنود اعتادوا على نوع آخر ممن الوداعات، نوع شرفوا وطنكم، فالوطن ينظر إليكم، قد لمس أوتارهم الحساسة، ولم يكن واحداً أو اثنين ممن جففوا دموعهم، بخجل، في طرف المعطف أو السترة، أو أياً كان اسم هذه القطعة العسكرية في هذه الفترة. رافق سوبهرو سالومون في عرضه، مودعاً أيضاً. لم يكن هو هذا الرجل الذي يسمح لقلبه بالانفطار أمام العامة، حتى عندما، مثل الآن، تنزلق دمعاته غير المرئية على خديه . شرع الصف في الحركة، وتقدمت عربة الثيران، وانتهى كل شيء، ولن نراهم مجدداً في هذا المسرح، هكذا الحياة، يظهر الممثلون وبعدها يخرجون من المشهد، لأن الأمر المناسب، الشائع، ما يحدث دوماً عاجلاً أم آجلاً، هو أن يلقوا العبارات التي تعلموها ويخرجوا من باب الخلفية، الذي يفضي إلى الحديقة. سيكون الطريق بعد ذلك منعطفاً، فيوقف الجنود الجياد ويرفعون ذراعاً كي يؤدوا الوداع

الأخير . يبادلهم سوبهرو الحركة نفسها، ويترك سالومون حنجرته ليخرج قباعًا أكثر حساً، وعندما يكون ممكناً، ينزل الستار ولا يرفع عليهم من جديد.

أشرق اليوم الثالث ممطراً، وهو ما أغضب الأرشيدوق بوجه خاص لأنه ـ رغم عدم نقصان فريق ينظم القافلة بطريقة حرفية وفعالة ـ ألح فى أن يكون هو من يقرر فى أى مكان من المسيرة يجب أن يسير الفيل . كان الأمر بسيطاً، بالضبط أمام العربة التى تنقله هو والأرشيدوقة. ترجاه أحد المحظيين من ذوى الثقة أن ينتبه إلى أن الفيل، مثله كمثل الجياد، يغيضون ويتبولون أثناء الحركة، وقد يؤذى المنظر بشكل لا يمكن تجنبه إحساس سموكما، قال المحظى راسماً على وجهه قلقاً وطنياً، فأجابه الأرشيدوق ألا يشغل باله بهذا الأمر، فدوماً هناك أفراد فى القافلة يتكفلون بتنظيف الطريق كلما حدث غائط طبيعى. أسوأ ما فى الأمر كان المطر . تاريخياً، الفيل معتاد على الريح الموسمية، لدرجة أنه اشتاق إليها فى العامين الأخيرين، فلا الرطوبة ولا إيقاع الخطى سيؤثران فيه، المشكلة، التى تحتاج إلى حل بشكل واقعى، تكمن فى الأرشيدوق . هذا أمر مفهوم. فاجتياز نصف إسبانيا خلف فيل من أجله طرزوا هذا الغطاء الذى ربما يكون أبهى غطاء فى العالم وعدم التمكن من استخدامه؛ لأن المطر يفسده بشكل جاد لدرجة أنه لن ينفع ليكون حتى رداءً قروياً، كان أشد خيبات الأمل التى من الممكن أن تصيب الأرشيدوق.

وبالتالى، لن يتحرك ماكسيميليانو خطوة واحدة إلا إذا دثروا سليمان، وزينوه بزينات الثوب التى تبرق فى الشمس. لدينا هنا بالتالى ما قاله، هذا المطر لابد أنه سيتوقف، سننتظر حتى ينقطع. وهذا ما حدث. لم يتوقف المطر خلال ساعتين، بعد هذا الوقت بدأ صفاء السماء، وبقت سحابات شبه قاتمة، وفجأة توقف المطر، وأصبح الهواء أكثر خفة وشفافية مع ضوء الشمس الأول، وأخيراً انكشفت. ومن كثرة سروره، سمح الأرشيدوق لنفسه أن يوجه ضربة كف حقيرة عالمياً إلى فخذ حرمه. وعندما أخذ وضعه، أمر بمجيء مساعد من الميدان أمره بالركض حتى رأس الطابور، حيث كان يلمع الفرسان بدروعهم، فلينطلقوا فى الحال، قال، علينا أن نعوض الوقت المفقود. فى هذه اللحظة، كان الخدام المكلفون قد أدنوا الثوب الهائل بكل جهد، ومتبعين تعليمات فريتس، غطوا به ظهر سليمان القوى. مرتدياً زيه الذى لجودة نسيجه وفخامة صنعه وضع الزى الذى أحضره من لشبونة فى درجة بدائية وأثر بشدة على توازن الخزانة العامة المحلية، صعد فريتس حتى ظهر سليمان، حيث كان باستطاعته أن يستمتع برؤية القافلة المهيبة بكل أبعادها. أعلى منه لم يكن أحد من المسافرين، ولا حتى أرشيدوق النمسا نفسه مع كل سلطته . ورغم أنه قادر على تبديل اسم إنسان وفيل، لكن عينيه كانتا مثل بقية البشر، وكان مساقاً داخل عربته المعبأة بالعطور دون أن تمنع اقتحام الروائح الخارجية المقززة.

من المنطقى أن هناك رغبة فى معرفة إن كانت كل هذه القافلة متجهة إلى فيينا. علينا أن نوضح أنه لا. فجزء كبير من المسافرين هنا سيتجه أبعد من ميناء بحر لا بييا دى لاس روساس، بجانب الحدود الفرنسية. وهناك سيودعون الأرشيدوق وزوجته، وربما يحضرون التحميل، وسيرون بشكل خاص وبانشغال بال نتيجة الشحن المفاجئ لأربعة أطنان ثقيلة هى وزن سليمان، وإن كان سطح المركب سيحتمل هذا الوزن، وفى النهاية، إن كانوا سيعودون إلى بلد الوليد بحكاية غرق تسرد. أكثر المتطيرين يتوقعون أضراراً فى الإبحار وفى أمن المركب ناتجة عن وجود الفيل، الخائف أثناء اهتزازات الشحن، وغير الشاعر بالأمان، وغير القادر على الاحتفاظ بتوازنه فوق أرجله، لا أريد أن أفكر فى ذلك، كانوا يقولون بأسف لجيرانهم، متفاخرين بأنفسهم لتمكنهم من أن يقولوا، اللهم إنى بلغت . وتتناسى المنغصات مثل أن هذا الفيل قد جاء من بعيد، من الهند القديمة، متحدياً ببسالة عواصف المحيط الهندى والأطلنطى، ليصل إلى هنا، راسخاً، قاطعاً، كما لو لم يفعل فى حياته شيئاً آخر سوى الإبحار. حتى الآن، ومع ذلك، لم يفعل سوى السير. حتى الآن. فهناك شخص ينظر فقط فى الخريطة ومن مجرد النظر يرهق. ومع ذلك، يبدو أن كل شىء قريب، لنقل ذلك بطريقة ما، فى متناول اليد، وتفسير ذلك نجده بشكل واضح فى النسبة القياسية. فمن اليسير أن نقبل بأن سنتيمتراً واحداً فى الخريطة

يساوى عشرين كيلومتراً فى الواقع، لكن ما لم نتعود على التفكير فيه هو أننا أنفسنا نعانى فى العملية من تصغير بعدى مساو، لهذا، بما أننا شيء ضئيل فى العالم، نكون فى الخرائط أقل صغراً بشكل غير متناه. قد يكون من المهم أن نعرف، مثلاً، مقياس قدم بشرية فى نفس هذا المقياس. أو رجل فيل. أو قافلة أرشيدوق النمسا ماكسيميليانو بأكملها.

لم يمر يومان وفقدت القافلة جزءاً كبيراً من بهائها. كان لمطر الصباح المستمر عند خروجهم فعل الشؤم فى زينات العربات، لكن أيضاً فى ثياب من اضطروا للتعرض للعراء فى وقت طويل أو قصير، وهم رجال الحمل . الآن تتقدم القافلة فى منطقة يبدو أنها لم تعرف المطر منذ بدء الخليقة . يشرع الغبار فى النهوض مع خطوات الفرسان المدرعين، الذين لم تسامحهم الأمطار، فالدرع ليس صندوقاً محكم السد ولا الأجزاء التى تكونه يطابق بعضها البعض الآخر بشكل جيد، كما أن الوحدات المصنوعة من الأحزمة تترك مسافة تخترقها السيوف والرماح بلا مانع تقريباً، فى النهاية لم ينفع كثيراً فى الحياة العملية كل هذا البريق، الذى عرض بكل فخر فى فيجيرا دى كاستيلو رودريجو. بعد ذلك يأتى صف هائل من العربات من كل نوع وهدف، عربات الحمل، وسرايا الخدم، وكل هذا يثير الغبار، الذى يستمر معلقاً فى الهواء، لنقص الريح، حتى تغيب الشمس. هذه المرة لم تنفذ القاعدة التى تقول إن سرعة الأكثر

بطئاً تحدد السرعة العامة. صارت عربتا الثيران اللتان تحضران طعام الفيل وشرابه منفية فى ذيل القافلة، وهو ما يعنى أنه من الضرورى أحياناً وقف كل شيء حتى يمكن لم شمل القافلة. وما يبعث السأم والغضب فى نفوس الجميع، بدءًا من الأرشيدوق، الذى يدارى تناقضه بشكل سيئ، هو نوم سليمان الإجبارى وقت القيلولة، وهى الراحة التى لا يستفيد منها، ظناً، إلا هو، لكن الجميع يستغلها، رغم أنهم يلحون فى انتقاداتهم، قائلين، هكذا لن نصل أبداً. فى المرة الأولى التى توقفت القافلة وبدأ يذاع خبر أن السبب هو حاجة سليمان للراحة، أمر الأرشيدوق باستدعاء فريتس ليسأله من يعطى الأوامر هناك، لكن السؤال لم يكن هكذا بالضبط، فأرشيدوق النمسا لن يتنازل ليسمح بوجود شخص آخر يمكن أن يأمر دونه أياً كان المكان الموجود فيه، لكن، أمام العبارة التى سجلناها، وبتعبير يحمل نبرة شعبية قاطعة، فالرد الوحيد الذى يتفق مع الموقف يفترض أن فريتس ستنشق الأرض لتبلعه من الخجل . كان لدينا الفرصة لنتحقق، مع ذلك، خلال هذه الأيام، من أن سوبهرو ليس هو الرجل الذى يرتعب بسهولة، والآن، فى مصيبته الجديدة، من الصعب، إن لم يكن من المستحيل، تخيله صامتاً محاطاً بنوبة خجل، بذيله بين ساقيه، قائلاً، أعطنى أوامرك يا سيدى . لقد كان جوابه مثالاً يحتذى به، إن لم يكوّن الأرشيدوق وفداً من السلطة، فالأمر المطلق ينتسب إليه بالحق والتقليد والاعتراف من الرعايا الطبيعيين أو المكتسبين، مثل

حالتى . أنت تتحدث كأديب. أنا بكل بساطة مجرد فيّال قرأ بعض الأشياء عن الحياة. ماذا حدث لسليمان، وماذا عن هذه الراحة التى يجب أن يأخذها فى الجزء الأول من الظهيرة . إنها عادات الهند يا سيدى. لكننا فى إسبانيا ولسنا فى الهند لو كان سموك يعرف الفيلة مثلما أطمح أنا أن أعرفها، كنت ستعرف أنه بالنسبة إلى الفيل الهندى، ولا أتحدث عن الأفارقة فليسوا من اختصاصى، يعتبر أى مكان فى العالم هو الهند، الهند التى مهما حدث ستظل دوماً فى داخله محفوظة . كل هذا جميل، لكننى أمامى سفر طويل وهذا الفيل يفقدنى ثلاث أو أربع ساعات يومياً، بداية من اليوم سيرتاح سليمان ساعة واحدة وتكفى . أشعر بالتعاسة؛ لأننى لا أستطيع أن أتفق مع سموك، لكن، ثق فى وفى خبرتى، ليست كافية. سنرى. تم إصدار الأمر وإلغاؤه فى اليوم التالى. من الضرورى أن نكون منطقيين، كان يقول فريتس، وهكذا سنضع فى اعتبارنا فكرة تقليل ثلث كمية الطعام والشراب التى يحتاجها سليمان ليعيش، كذلك لا أستطيع أن أرضى دون اعتراض بأن يسلبوه الجزء الأكبر من راحته المشروعة، والتى دونها لن يستطيع أن يبقى على وجه الحياة مع الجهد الجبار المطلوب منه كل يوم، حقاً أن فيلاً فى الغابة الهندية يسير كيلومترات كثيرة من الصباح حتى الغروب، لكنه فى أرضه، وليس فى بادية مثل هذه، لا يطل عليها ظل يرحب بقط .علينا ألا ننسى أنه عندما كان فريتس يسمى سوبهرو لم يقدم أى اعتراض على تقليل راحة

سالومون من أربع ساعات لساعتين، لكن ذلك كان فى أوقات أخرى، فقائد الفروسية البرتغالية كان رجلاً يمكن الحديث معه، كان صديقاً، وليس أرشيدوقاً متسلطاً مثل هذا، الذى بعيداً عن كونه صهر كارلوس الخامس، لا يُرى أن له جدارة أخرى . كان فريتس يشعر أنه ظالم، فعلى الأقل يجب أن يعترف أن أحداً لم يعامل سليمان مثل أرشيدوق النمسا هذا الذى فجأة صار قليل الاحترام. الثوب، على سبيل المثال. ولا حتى فى الهند تدلل الفيلة المنتسبة للأمراء هكذا . أياً كان الوضع، لم يكن الأرشيدوق مسروراً، وكان هناك تمرد زائد فى الهواء الذى يتنفسه . عقاب فريتس على جراءته فى الحديث كانت أكثر من مبررة، لكن الأرشيدوق كان يعرف تماماً أنه لن يجد فى فيينا فيَّالاً آخر . وإن جرت المعجزة ووجدت هذه المهنة النادرة، فلا بد من فترة تفاهم متبادل بين الفيل وراعيه الجديد، وغير ذلك يدفع للخوف من سلوك حيوان بهذه القوة الجسمانية، ومخه، بالنسبة لأى إنسان، بما فيهم الأرشيدوقات، لا يمر من رهان تكون فيه نسبة الأمل فى المكسب شبه ملغية. كان الفيل حقيقة كائناً آخر. مختلف لدرجة أنه لا علاقة له بالعالم، يُحكم بقواعد لم تدون فى أى سلوكيات أخلاقية معروفة، حتى أنه، كما رأينا فيما بعد، كان غير مبال بالسفر أمام أو خلف عربة الأرشيدوق. حقيقة، لم يكن فى وسع الأرشيدوق وحرمه تحمل منظر فضلات سليمان المتكررة، فضلاً عن

اضطرارهما ليتلقيا بأنفيهما الرقيقة، المعتادة على أريج آخر، الروائح المقززة لهذه الفضلات . فى العمق، من كان يريد الأرشيدوق أن يعاقبه هو فريتس، المنفى الآن فى وضع ثانوى بعد أن ظهر خلال عدة أيام أمام أعين الجميع كأنه أحد الشخصيات المهمة. كان يسافر فى نفس العلو السابق، لكنه لا يستطيع أن يرى من عربة الأرشيدوق سوى الجزء الخلفى . يرتاب فريتس فى أنه معاقب، لكنه لا يستطيع أن يطلب العدل، لأن نفسه العدل، عند تحديد تبديل الفيل لمكانه فى القافلة، لم يحقق سوى منع المضايقات الحسية التى سببها هو للأرشيدوق ماكسيميليانو وحرمه ماريا، ابنة كارلوس الخامس، وعند حل هذه المشكلة، تم حل الأخرى أيضاً، وكانت فى هذه الليلة نفسها. ومتحمسة لوضع الفيل فى موضع التابع الصرف، طلبت ماريا من زوجها أن يخلعوا عنه ثوبه. أعتقد أن ارتداءه إياه يعد عقاباً لا يستحقه سليمان المسكين، وبالإضافة لذلك. وبالإضافة لذلك ماذا، سأل الأرشيدوق . بهذا النوع من الزينة الكنسية فوقه، وهو حيوان ضخم، شديد القوة، عندما يعبر الأثر الأول للمفاجأة، سيصير سريعاً مضحكاً، غريب الشكل، وسيكون أسوأ حين ننظر إليه مرة أخرى . الفكرة كانت فكرتى، قال الأرشيدوق، لكننى أعتقد أنك محقة، سأرسل الثوب إلى أسقف بلد الوليد، وهو سيبحث له عن قيلة، ربما لو بقينا فى إسبانيا سنعثر على جنرال من أفضل الجنرالات رداءً فى الكنيسة المقدسة الأم، تحت ثوب تحول لطيلسان.

هناك من تكهن بأن مسيرة الفيل ستنتهى هنا، فى بحر لاس روساس هذا . إما لأن منحدر الدخول لسطح المركب، العاجز عن تحمل وزن أربعة أطنان، قد يتهشم، أو لأن هزات الموجات القوية ستجعله يفقد توازنه فتلقى برأسه فى الهاوية، لا بد أنها قد حانت الساعة الأخيرة لسالومون السعيد والعجوز، الذى عمدوه الآن بكل حزن باسم وحشى، سليمان. لم ير الجزء الأكبر من شخصيات النبلاء، الذين ذهبوا إلى روساس لتوديع الأرشيدوق فيلاً قبل ذلك فى حياتهم، ولا حتى فى لوحة . لا يدرون أن حيواناً من هذه، خاصة لو سافر فى أية فترة من حياته، لديه ما اعتادوا أن يسموه قدماً بحرية . فلا يطلب منه المساعدة فى مناورة، ولا الصعود إلى السوارى لإنزال الأشرعة، ولا قيادة الثُمنية والسُدسية، لكن ضعه أمام الدفة، راسخاً فوق الأوتاد الغليظة، التى تتصنع أنها رِجْلان، وأعطوا أمرًا بهبوب عاصفة من الأكثر شدة. سترون كيف يواجه الفيل الرياح العاتية المضادة، مبحراً فى تجاهها بأناقة وفعالية طيار من الدرجة

الأولى، كما لو أن هذا الفن من ضمن كتب الفيدا(*) الأربعة التى تعلمها بالذاكرة فى طفولته الأكثر رقة التى لا تنسى أبداً، حتى عندما حددت أقدار الحياة أنه يتوجب عليه أن يكسب خبزه الحزين كل يوم بنقل جذوع الأشجار من جانب إلى آخر أو محتملاً الفضول الأبله لهواة عروض السيرك منحطة المستوى. الناس مخطئة جداً فى فهم الفيلة. يظنون أنها تتسلى عندما تكون مجبرة على حفظ توازنها فوق كرة معدنية، فى مسطح صغير ومائل، بالكاد تجد أرجلها مكاناً تستند عليه . ما ينقذنا هو طباع الفيلة الحسنة، بخاصة ذات الأصول الهندية . تفكر هى أنه من الضرورى أن تتمتع بصبر جم لتحتمل الكائنات البشرية، حتى عندما نطاردها و نقتلها لننشرها أو لنقتلع أسنانها ونستخلص العاج.

بين الفيلة يتذكرون بتكرار الكلمات الشهيرة التى نطقها أحد أنبيائها، اغفر لهم يا سيدى، فهم لا يعرفون ما يفعلون. هم، نحن جميعاً، وخاصة من جاءوا حتى هنا فقط بالمصادفة لرؤيته يموت وفى هذه اللحظة يبدءون طريق العودة إلى بلد الوليد، يجرون أذيال الخيبة مثل هذا المشاهد، الذى يتابع فرقة فى السيرك أينما كانت فقط لمجرد أن يكون حاضراً فى اليوم الذى يسقط فيه البهلوان خارج الشبكة. آه، إنها حقيقة، نسيان مازال أمامنا الوقت لنصححه. فبالإضافة لمهارته فى قيادة عجلة الدفة، خلال قرون

(*) الفيدا: كتب الهند المقدسة (المترجم).

طويلة من الإبحار لن يجدوا شيئاً أفضل من فيل ليعمل كخنزيرة.

عندما استقر سليمان فى مكان بسطح المركب محاطاً بسياج وظيفته، رغم صرامة تركيبته، تميل للرمزية أكثر من الواقعية، حيث إنه سيتوقف دوماً على مزاج الحيوان، الشارد بشكل مستمر، ذهب فريتس بحثاً عن أخبار . أولها، وأكثرها وضوحاً، لابد أنها الإجابة عن سؤال، إلى أى ميناء يذهب هذا المركب، سأل بحاراً كبير السن، له وجه رجل طيب، وتلقى منه أكثر الإجابات سرعة وإيجازاً وإيضاحاً، إلى جنوة. وأين يقع هذا، سأل الفيّال . كان يبدو على الرجل أنه من الصعب أن يفهم كيف يكون من الممكن أن يجهل أحد فى هذا العالم أين تقع جنوة، لكنه شعر بسرور وهو يشير ناحية الشرق ويقول، من هذا الجانب. بمعنى أنها تقع فى إيطاليا، أسرع فريتس، الذى ما زالت معارفه الجغرافية القليلة تسمح له بتمييز بعض الملامح. نعم، فى إيطاليا، أكّد البحّار. وأين تقع فيينا، ألح فريتس . أعلى منها بكثير، أبعد من مرتفعات الألب. ما مرتفعات الألب. هى جبال شاهقة، هائلة، صعبة الاجتياز، بخاصة فى الشتاء. وهل مررت بها. لا، لم أمر من هناك أبداً، لكننى سمعت المسافرين يقولون إنهم ساروا فى هذه الأماكن . لو كان الأمر كذلك، سيمر سالومون المسكين بمصيبة كبيرة، جاء من الهند، حيث الأرض الحارة، ولم يعرف إطلاقاً معنى البرد القارس، أنا وهو على

حد سواء، فأنا أيضاً جئت من هناك. مَنْ هو سالومون، سأل البحَّار. سالومون كان اسم الفيل من قبل أن يسموه سليمان، الشئ نفسه حدث لى، فقد كنت سويهرو منذ جئت لهذا العالم، والآن صرت فريتس . مَنْ غير لكما اسميكما من لديه السلطة ليفعل ذلك، سمو الأرشيدوق الراكب فى هذا المركب. وهل هو صاحب الفيل، سأل البحَّار مجدداً . نعم، وأنا راعيه، المعتنى به، الفيّال، وهى الكلمة المضبوطة، وأنا وسالومون قضينا سنتين فى البرتغال، وهى ليست أسوأ الأماكن فى المعيشة، والآن فى طريقنا لفيينا، التى يقولون عنها إنها أفضلها. على الأقل لها هذه السمعة. يا ليت المعاملة تكون بنفس الجودة، وأن يريحوا سالومون المسكين، فهو لم يولد من أجل هذه المغامرات، وكان يكفى السفر الذى فرض علينا من جنوة إلى لشبونة، فسالومون ينتسب لملك البرتغال، دن جوان الثالث، وأهداه للأرشيدوق، وأنا جاء جئت فى رفقته، أولاً فى الإبحار إلى البرتغال والآن فى الطريق صوب فيينا. هذا يسمى رؤية العالم، قال البحَّار. ليس لدرجة السير من ميناء لميناء، أجاب الفيّال، الذى لم يصل لختم جملته؛ لأن الأرشيدوق كان يقترب وخلفه حاشيته، لكن هذه المرة بدون حرمه، التى على ما يبدو لا تستخف ظل سليمان. ابتعد سويهرو عن الطريق، ظناً أنه هكذا سيصبح مهملاً، لكن الأرشيدوق رآه، يا فريتس، سأرى الفيل، قال. تقدم الفيّال عدة خطوات دون أن يدرى أين يجب أن يكون

موضعه، لكن الأرشيدوق أخرجه من حيرته، تقدم أنت وانظر إن كان كل شىء على ما يرام . كان ذلك من حسن الطالع لأنه، فى غياب الفيّال، كان سليمان قد قرر أن ألواح سطح المركب الخشبية هى أفضل مكان من الممكن أن يقضى فيه حاجاته الفسيولوجية، ونتيجة لذلك كان ينزلق بالمعنى الحرفى للكلمة فوق السجادة الناعمة غائط وبول . بجانبه، ليشبع عطشه المفاجئ دون تأخير، كان هناك برميل ماء ممتلئ لمنتصفه، فضلاً عن بعض جعبات الطعام، حيث إن الباقى يعلقونه فى عنابر السفينة . كان رد فعل سوبهرو سريعاً . طلب مساعدة بعض البحّارة و كلهم مجتمعون خمسة أو ستة رجال، كلهم أقوياء بشكل معقول، رفعوا البرميل من جانب وصبوا الماء من الجانب الآخر يميناً ناحية البحر، فى شكل شلال . كان الأثر فورياً. تحت دفعة المياه، وبفضل صفاتها المذيبة، هرب سائل الغائط النتن من حافة المركب، باستثناء ما تبقى عالقاً فى الجزء الداخلى لأرجل الفيل، الذى فى لحظة واضحة، أقل غزارة، تكفل بأن يكون فى حالة شبه مقبولة مبرهناً هكذا مرة أخرى أن الشىء الأفضل ليس فقط عدوًا للشىء الحسن، بل أيضاً أن الشىء الحسن، مهما بذل من جهد، لن يصل أبداً لكعبى الشىء الأفضل. يستطيع الأرشيدوق الآن أن يظهر. مع ذلك، بينما يصل أو لا يصل، فلنهدأ أيها القراء، الذين تشغلون بالكم لنقص المعلومات حول عربة الثيران التى، على طول مائة وأربعين فرسخاً

وهى المسافة بين بلد الوليد و روساس، حملت برميل الماء وجعبات الغذاء . عادة ما يقول الفرنسيون، وفى تلك اللحظة بدءوا فى قولها، pas dc nouvelles, bonnes nouvellesبعدها، على القراء أن يخففوا من انشغالهم الذى عاشوا فيه، فعربة الثيران مازالت فى طريقها، فى تجاه بلد الوليد، حيث صبايا من جميع الفئات يعلقن عقود الزهور ليزينّ بها قرون الثيران عند وصولها، وعلينا ألا نسأل عن السبب الخاص لفعلهن ذلك، فقد بدا لإحداهن أنها سمعت من لا تعرف مَنّ، يقول إنها كانت عادة قديمة، لعلها جاءت من زمن اليونانيين والرومان، حيث كانوا يتوجون ثيران العمل، ولو وضعنا فى اعتبارنا أن السير بين الذهاب والعودة يصل لمائتى وثمانين فرسخاً، فهذا عمل ليس بهين، فتم استقبال الفكرة بحماس من قبل طبقة النبلاء والعامة ببلد الوليد، وهم من يفكرون فى عمل احتفال شعبى كبير يتضمن مبارزات فرسان وألعاباً نارية وطعاماً للفقراء، وكل ما يمكن أن يخطر على خيال السكان المثار. بهذه الإيضاحات، التى لا غنى عنها للتهدئة الحاضرة والمستقبلية للقراء، أهملنا وصول الأرشيدوق والفيل، فى النهاية لم نفقد كثيراً، فخلال هذه الحكاية، بين ما تم وصفه وما لم نصفه، جاء الأرشيدوق نفسه مرات كثيرة هنا وهناك، دون أن يفاجأ، حيث إن براجماتية القصر تضطره لذلك، وإن لم تفعل، ما صارت براجماتيات . نعلم أن الأرشيدوق يهتم بصحة ورخاء فيله سليمان وأن فريتس أعطاه

الإجابات الملائمة، خاصة هذه التى كان سمو الأرشيدوق يريد سماعها، وهو ما يظهر أن الفيَّال العجوز رث الثوب يمضى متقدماً فى تعلم الرقة والمهارات من الأرشيدوق الكامل، الذى لم يخدمه كمرشد، أكثر مما خدم الفيّال، القصر البرتغالى المستجد، بخاصة فى ميوله لورع الاعتراف والكهنوت أكثر من نقاوة الصالونات الدنيوية، الذى اضطر كالعادة للبقاء بجانب سياج القدس النظيف، فلم تقدم مقترحات لتحسين تربيته. لاحظوا أن الأرشيدوق كان يعقد أنفه من آن إلى آخر وكان يستخدم باستمرار منديلاً معطراً، وبالتالى كان يجب أن تذهله بشكل لايمكن تجنبه روائح حديد البحرية، هم معتادون على كل نوع من الروائح الكريهة وغير الحساسة إطلاقاً أمام الرائحة النتنة التى بقت هناك بعد النظافة، طافية على السطح رغم الريح . بعد تنفيذ التزام المالك المشغول بتأمين ممتلكاته، أسرع الأرشيدوق فى الانصراف، حاملاً خلفه، كالعادة، ذيلاً ملوناً لطاووس من طفيليات القصر.

بعد رص الشحنة، والتى احتاجت هذه المرة لبعض الحسابات الأكثر تعقيداً من العادة بسبب وجود فيل يزن أربعة أطنان موضوعاً فى مكان صغير بالسطح، أصبح المركب جاهزاً للإبحار. وبعد رفع الهلب، والحبال، بالإضافة لقطعة قماش مستديرة، والأشرعة مثلثة الشكل، التى استردها البحَّارة البرتغاليون منذ قرن ونصف من بحرهم المتوسط

القديم، والتى كان يجب أن نطلق عليها أشرعة لاتينية، اهتزت السفينة بتثاقل فى تموج، وبعد صرير الأشرعة الأول، عقدوا العزم على جنوة، باتجاه الشرق، كما قد أعلن البحّار. استغرق العبور ثلاثة أيام طوال، كان البحر فى أغلبها هائجاً، والرياح شديدة، والمطر يفرغ وابله العنيف فوق ظهر الفيل وفوق الخيش الذى كان البحّارة العاملون يحاولون به حماية أنفسهم قدر المستطاع. لم يشهد ذلك الأرشيدوق، القابع فى غرفته مع حرمه، حيث تشير كل الاحتمالات إلى أنه كان يمرّن نفسه من أجل الابن الثالث. عندما توقف المطر وفقدت العاصفة عواءها، بدأ المسافرون، بخطى مترددة وبغمزة عين، فى الخروج من داخل المركب إلى نور النهار الجلى، كان أغلبهم بوجه متغير اللون جرّاء الدوخة وبآذان من يعتريه الخوف، دون أن ينفعهم ذلك فى شىء، أما فى حالة فرسان الأرشيدوق المدرعين - على سبيل المثال - فحدث لهم ذلك جرّاء الهواء ذى الطابع الحربى المصطنع الذى كانوا يحاولون استعادته من ذكرياتهم القديمة بالأرض الراسخة، بما فيها، إن كان من الضرورى اللجوء لذلك، ذكريات كاستيلو رودريجو، رغم الهزيمة المخزية التى تعرضوا لها، دون أن يكونوا فى حاجة لإطلاق رصاصة، أمام الفرسان البرتغاليين المتواضعين، سيئى الاستعداد وسيئى الامتطاء. عند بزوغ فجر اليوم الرابع، مع هدوء البحر وصفاء السماء، كان الأفق هو شاطئ ليجوريا . كان ضوء فنار جنوة الذى يسمونه

أهل المدينة بالكشّاف، يمضى شاحباً كلما تقدم نور الصباح، لكنه كان لا يزال لامعاً بشكل كافٍ ليقود بأمان أى إرساء يطلبه الميناء . بعد ساعتين، وبعد استقبال المصباح الدليلى، دخل المركب فى الشرم وانزلق ببطء، بأغلب أشرعته ملمومة، صوب مكان خال بالمرفأ حيث، بما أنه كان ظاهراً وجلياً، كان يوجد عربات ومركبات من أنواع وأهداف مختلفة، فى انتظار القافلة . ولأن الاتصالات كانت بطيئة ومنهكة وقليلة الفاعلية، فمن الزهو، مرة أخرى، أن يقوم الحمام الزاجل بدور فعَّال فى عملية النقل المعقدة التى جعلت من الممكن استقبال المركب فى الوقت والساعة، دون تأخير ولا تباطؤ ولا حاجة إلى أن ينتظر بعضهم البعض الآخر. أعترف الآن أن نبرة ساخرة ومشاكسة إلى حد ما قد اخترقت هذه الصفحات كلما جاءت سيرة النمسا وأهلها ولم تكن عدوانية فقط، وإنما أيضاً ظالمة بكل وضوح . لم تكن هذه نيتنا، لكننا نعلم أنه، فى الأشياء الخاصة بالكتابة هذه، من المعتاد أن تجر كلمة أخرى؛ لأن جمعهما يؤدى لرنين مستحب، مضحين هكذا فى مرات كثيرة بالاحترام فى مقابل الفحش، بالأخلاق فى مقابل الجمال، إذا كان فى متسع خطاب كهذا تلك المفاهيم الرفيعة، وفى النهاية دون أن يستفيد منها أحد. لهذه الأشياء وأشياء أخرى، دون أن ننتبه، نصنع عداوتنا فى الحياة مع كثيرين.

أول من ظهر كانوا الفرسان المدرعين. أحضروا الجياد من زمامها حتى لا تتزلق فى منحدر الهبوط.

أما المطايا، التى هى عادة هدف للتدليل الأقصى والاهتمام، فقد بدت بشكل غير معتنى به وكان جلياً أنه ينقصها تمشيط كبير ليضبط الشعر ويجعل العُرف يبرق . وكما يظهر لنا الآن، فأى شخص سيقول إنه خزى الفروسية النمساوية، وهو حكم غير ملائم لمن يبدو أنه قد نسى السفر الطويل من بلد الوليد إلى روساس، بطول سبعمائة كيلومتر من السير المتواصل، والمطر والريح المتقلبة، وبعض الشمس المسببة للعرق فى الوسط، وفوق كل ذلك يأتى الغبار، الغبار الكثير. ليس مثيراً للإعجاب أن الجياد التى هبطت فى التو لها هذا الملمح المميز لحيوانات الدرجة الثانية. ورغم كل شىء، بعد أن ابتعدوا قليلاً عن المرفأ، وخلف الستارة التى تشكلها العربات، وعربات النقل وعربات أخرى، لاحظ كيف يبذل الجنود، تحت إمرة قائدنا المعروف مباشرة، قصارى جهودهم ليجملوا منظر المطايا، بهدف أن يستحقوا أن ينتظرهم حرس شرف سموه، عندما تأتى ساعة وضع الأقدام على الأرض، فى أى حدث متعلق ببيت هاسبورج الشهير. وبما أن الأرشيدوق وحرمه سيكونان آخر من يخرج من المركب، فهناك احتمالات كبيرة أنه سيتاح للجياد الوقت على الأقل لاستعادة جزء من ألقها المعتاد. فى هذه اللحظة يقومون بتنزيل الحقائب، وعشرات الصناديق، والخزائن، وصناديق الملابس وآلاف الأشياء والزينات التى تشكل أمتعة الزوج النبيل التى تتزايد باستمرار. الآن هناك جمهور، وكم هو

هائل . وكطلقة بارود، انتشر صوت فى المدينة يعلن أن أرشيدوق النمسا يهبط من المركب، وبصحبته الفيل الهندى، وهو ما كان له أثر فورى حيث دنا من الميناء عشرات الرجال والنساء، يسكنهم ويسكنهن الفضول، وفى وقت قليل صاروا مئات وبدءوا فى إعاقة مسار عمليات التنزيل والتحميل. لم يكن الأرشيدوق يراهم، فلم يخرج بعد من حجرته، لكن الفيل كان هناك، واقفاً على سطح المركب، ضخم الجثة شبه أسود، بزلومته الغليظة المرنة مثل سوط، وهذه الأنياب شبيهة السيوف الحادة، التى، فى خيال الفضوليين، الجاهلين بمزاج سليمان المسالم، من الممكن أن تكون أسلحة حرب قبل أن تصل للتحول، كما سيحدث بشكل لا يمكن تجنبه، فى الصلبان وأوعية حفظ الذخائر الدينية، التى تغطى الكون المسيحى بالعاج المشغول. الشخص الذى ينهى الإجراءات ويصدر الأوامر فى المرفأ هو مدير المركب. بنظرته الخبيرة يكفيه نظرة مجردة ليقرر أية عربة أو عربة نقل سيجب أن تنقل هذا الصندوق، هذه الخزينة أو صندوق الملابس. إنه بوصلة مهما لفوها لجانب أو لآخر، مهما لووها وأعادوا ليها، ستشير دوماً للشمال. نغامر إن قلنا له إنه مازال يدرس أهمية المدراء، لكن أيضاً أهمية كناسى الشوارع، لعمل الأمم الاعتيادى . الآن يفرغ الطعام الذى سافر فى عنبر المركب بجانب رفاهيات الأرشيدوق وحرمه، التى بداية من هنا سيتم نقلها فى عربات ميزتها الأساسية هى الوظيفية،

بمعنى أنها قادرة على أن تهب الراحة لأكبر عدد ممكن من الجعبات. البرميل أيضاً حملوه، لكنه فارغ، حيث إنه، كما سنرى فيما بعد، فى الطرق الشتوية بأراضى إيطاليا وبالنمسا لن يغيب الماء ليملئوه كلما احتاجوا لذلك. الآن سينزل الفيل سليمان. يهتز مجلس البلدية المزعج لأهل جنوة من ضيق الصدر، من التوتر. إن سألنا هؤلاء الرجال وأولئك النسوة عن الشخصية الأهم بالنسبة إليهم ويريدون رؤيتها فى هذه اللحظة، هل هو الأرشيدوق أم الفيل، نراهن أن الفيل سيفوز بفارق أصوات كبير. أخيراً أطلقت الحشود الصغيرة صيحة راحة بعد الانتظار المتلهف، بعد أن رفع الفيل بزلومته إلى أعلاه رجلاً كان يمسك جوال أمتعته. إنه سوبهرو أو فريتس، حسبما تفضل، الراعى، المعتنى، المربى، الفيّال، هذا الرجل الذى ذله الأرشيدوق والآن، على مرأى شعب جنوة المجتمع فى المرفأ، سيتمتع بنجاح شبه تام. متسلقاً رقبة الفيل، بجواله بين فخذيه، مرتدياً ملابس العمل المتسخة، ينظر بعلياء المنتصر إلى الناس التى تنظر إليه بأفواه مفتوحة، وهى إشارة مطلقة عن الذهول كما يقال، لكنها فى الواقع، ربما لكونها مطلقة، لم تستطع أبداً أن تكون ملاحظة فى الحياة الواقعية. عندما كان يركب سالومون، كان يبدو لسوبهرو دوماً أن العالم صغير، لكنه اليوم، فى مرفأ ميناء جنوة، وهو هدف لنظرات مئات الأشخاص حرفيًا المبهورين بالعرض الذى يقدم إليهم، سواء بشخصه أو بحيوان فى كل

الأحوال مفرطاً فى طاعة أوامره، كان فريتس يتأمل الحشود بنوع من الصد، وفى لحظة غير عادية من البصيرة والإلهام، فكر، ناظراً جيداً للأمور، أن الأرشيدوق، الملك، الإمبراطور ليسوا أفضل من فيَّالين راكبين فوق فيل. بلمسة من عكازه جعل سليمان يتقدم ناحية المنحدر. جزء من الحضور الأكثر قرباً تقهقروا مرعوبين، وزاد رعبهم عندما قرر الفيل، فى وسط المنحدر، ودون أن يعرف ولن يعرف لماذا، أطلق صيحته التى رنت فى آذان هؤلاء الناس مثل أبواق أريحا، وهو تشبيه سيئ، وأدى لتهشيم صفوف أكثر الناس ورعاً. عند وطء الميناء، مع ذلك، ولعله خداع بصرى، بدا أن الفيل يتضاءل فى طوله وبنيانه . كان لا يزال ضرورياً النظر إليه من أسفل لأعلى، لكن لم يكن ضرورياً لوى الرقبة كثيراً. إنها العادة، فالحيوان، رغم أنه يخوِّف بسبب حجمه، كان كما لو أنه فقد هالة العجيبة الثامنة للعالم الأرضى الذى معه بدأ يقدم نفسه لأهل جنوة، الآن هو حيوان يسمى فيلا وليس أكثر من ذلك. لا يزال ثملاً باكتشافه الجديد حول الطبيعة ودعائم السلطة، لم يستحسن فريتس التغيير، الذى حدث فى التو فى ضمائر الناس، وهذا الذى كان لا يزال ينقصه ضربة الرحمة بظهور الأرشيدوق وحرمه فى سطح المركب بصحبة الحاشية الخاصة، متفوقاً هذه المرة خبر بنتين محمولتين بين أذرع امرأتين كانتا بكل يقين، ومازالتا، المرضعتين. إحداهما طفلة فى الثانية، عندما تكبر، ويمكننا إعلان ذلك، ستصير الزوجة

الرابعة لفيليب الثانى ملك إسبانيا والأول ملك البرتغال. كما اعتادوا أن يقولوا، أعظم النار من مستصغر الشرر. هكذا قد أشبع فضول هؤلاء القراء الذين يستغربون نقص المعلومات حول سلالة الأرشيدوقات المتعددة، ستة عشر ابناً، فلنتذكر أن من افتتحها بالتحديد هى آنا الصغيرة. حسن ـ كما كنا نقول ـ إنه بمجرد ظهور الأرشيدوق انفجرت التصفيقات والتحيات، التى شكرها هو بإيماءة متعطفة بيد يمنى داخل القفاز. لم يهبطا عبر المنحدر المستخدم حتى الآن للتفريغ، وإنما من منحدر فى جانب آخر، نظيف ومجدد، لتجنب أقل تلامس مع القاذورات الناتجة عن خشب سرج الجياد، وفضلات الفيل وأقدام الحمَّالين الحافية. من المفروض أن نهنئ الأرشيدوق على مهارة مديره، الذى صعد الآن فى التو إلى المركب ليفتش الأماكن، فربما وجد أسورة من الألماس ساقطة بين لوحى خشب بينهما فتحات . هنا بالخارج، وقفت سرية الفروسية بفرسانها مستعدة فى صفين محكمين ليسعا كل الحيوانات، خمسة وعشرون فى كل جانب، فى انتظار مرور سموه. وبالمناسبة، لولا خشيتنا أن نرتكب مفارقة زمنية مستعصية، كان سيروق لنا أن نتخيل الأرشيدوق سائراً المسافة حتى عربته تحت مظلة من خمسين سيفاً مشهراً، مع ذلك، وأكثر من محتمل أن هذا النوع من الاحتفاء كان فكرة أحد القرون الطائشة التالية. دخل الأرشيدوق وحرمه العربية البراقة والمزينة، رغم صلابتها، التى كانت فى

انتظارهما. الآن فقط يجب انتظار تنظيم القافلة، عشرون فارساً مدرعاً فى الأمام، فاتحاً المسيرة، وثلاثون فى الخلف، مغلقين إياها، كقوة تدخل سريعاً، فى حالة هجوم عصابات، وهى حالة قليلة الاحتمال لكنها غير مستحيلة. حقاً لسنا فى كلابريا أو صقلية، بل فى أرض ليجوريا المتمدنة، والتى تتبعها أرض لومبارديا وفينيسيا، لكن، بما أنه فى أفضل منديل تسقط بقعة، كما تحذر بتكرار الحكمة الشعبية، يفعل الأرشيدوق خيراً بالاحتفاظ بمؤخرة الجيش محمية. يبقى أن نعرف ما سيأتى من السماء العالية. فى هذا الوقت، رويداً رويداً، يختبئ الصباح المضىء والشفاف خلف سحابات.

ينتظرهم المطر عند الخروج من جنوة. لا يجب أن نستغرب كثيراً، فالخريف يتقدم، وهذا الوابل ليس أكثر من مدخل الكونشرتو، مع تشكيلة رحبة من الأبواق وآلات النفخ والمتردّدة، التى يحتفظ بها أهل جبال الألب ليهدوها للقافلة. لحسن الطالع سلم ماكسيميليانو الثانى أذنيه أخيراً للحكمة الشعبية المعصومة، تلك التى تتكرر منذ شقشقات فجر العالم الأولى، الوقاية دائماً خير من العلاج، فطبقها على أقلهم حماية من سوء الطقس، ونشير خصوصاً إلى الفرسان المدرّعين والفيّال، بعضهم يتدثر بالبرد والسيوف المتقلبة، مثل خنافس من نوع جديد، والآخر متسلق فوق رقبة الفيل، حيث تظهر قاطعة الريح الشمالية وضربات سوط الجليد ذات السنون السبعة. فى الطريق إلى الخروج من جنوة أمر بوقف القافلة مرتين ليتمكنوا من التزود بمعاطف من الصوف، من متاجر الملابس الجاهزة، من أجل الفرسان المدرّعين والفيّال، ولأسباب مفهومة بسهولة وهى نقص تخطيط الإنتاج، لم تكن هذه المعاطف منسجمة فى الأشكال

والألوان، لكنها على الأقل ستقيهم من هجمات البرد الأشد ومن المطر المرسل لأهدافه المحظوظة. وبفضل حصافة الأرشيدوق استطعنا أن نشاهد السرعة التى أنزل بها الجنود من القرابيس المعاطف الصوفية التى وزعت عليهم وكيف، دون أن يتوقفوا عن السير، كانوا يرتدونها مقدمين سروراً عسكرياً قليلاً ما نلحظه فى تاريخ الجيوش. الشىء نفسه فعله الفيّال فريتس، المسمى قديماً سوبهرو، لكنه فعل ذلك بتحفظ أكبر. ومتدثراً بمعطفه الثقيل، فكّر أن الغطاء الذى تسلمه أسقف بلد الوليد بلهفة متعة لابد أن له فائدة كبيرة لسليمان الذى عامله المطر القاسى بوحشية. وكانت عاقبة العاصفة التى تبعت وابل الأمطار الأولى والمتناثرة أن خرج أناس قليلون إلى الطريق للاحتفال بسليمان وتحية سموه . أخطأوا، فلن تسنح لهم فرصة أخرى، فى الفترات القريبة، ليروا فيلاً على الطبيعة. أما ما يتعلق بعبور الأرشيدوق، فالذنب ذنب الارتياب الذى يجب أن ننسبه المعلومة غير الكافية التى قدمناها مسبقاً والتى تحيط بالتنقلات القليلة لهذه الشخصية شبه الإمبريالية، من الممكن أن يعبر، من الممكن ألا يعبر . لكن، فيما يخص الفيل، فليس لدينا أى ريب، لن يطأ هذه الطرق مجدداً . انقطع المطر قبل دخول بياشينسا، وهو ما سمح بعبور المدينة بشكل يتفق مع عظمة شخصيات القافلة، فالفرسان المدرعون تمكنوا من خلع معاطفهم والظهور بكامل رونقهم المعروف، بدلاً من الصورة المضحكة التى كانوا

عليها منذ خروجهم من جنوة، بخوذة حرب على رءوسهم ومعطف من الصوف المعتاد على ظهورهم. هذه المرة تجمع أناس كثيرون فى الشوارع، وإن صفّقوا للأرشيدوق لكونه أرشيدوقًا، فالفيل، لنفس السبب، لم يكن أقل منه . لم يكن فريتس قد خلع معطفه . كان يعتقد أن الثوب الثقيل، لوسعه، ولكونه أقرب إلى المعطف الطويل منه إلى المعطف البسيط، يمنحه جواً من الكرامة العليا يتفق تماماً مع خطوة سليمان الجليلة . ولنقل الحقيقة، إنه لم يهتم كثيراً بأن غيّر له الأرشيدوق اسمه . حقاً لم يكن فريتس يعرف المثل الكلاسيكى الذى يقول إنه لتعيش فى روما يجب أن تصير رومانياً، لكنه، ورغم أنه لم يشعر بميل ليكون نمساوياً فى النمسا، كان يعتقد أنه من المنصوح به لأجل طموحه فى حياة هادئة الوجود أن يجذب أقل ما يمكن من انتباه العوام، حتى ولو تحتم عليه تقديم نفسه أمام أعين الناس ممتطياً فيله، وهو ما يجعل منه بالفعل، عند دخوله، كائناً استثنائياً. هنا يسير إذاً، متدثراً بمعطفه، متنفساً بلذة رائحة جدى تفوح رائحته من الأقمشة الرطبة. كان يسير، كما قد أمروه فى طريق بلد الوليد، خلف عربة الأرشيدوق، بحيث يعطى فكرة لمن يراه من بعيد أنه يجر خلفه صفاً طويلاً من العربات وعربات النقل التى تشكّل القافلة، وفى المقام الأول، مقتفين آثاره، عربات جعبات الغذاء وبرميل الماء الذى ملأه المطر وفاض. كان فيّالاً سعيداً، شديد البعد عن ضيق الحياة فى البرتغال،

حيث تركوه، بشكل فعلى، يمضى عامين فى خمول فى بيلين، مشاهداً رحيل المراكب ناحية الهند ومستمعاً لأناشيد رهبان القديس إيرونيموس. من المحتمل أن يفكر فيلنا، إن كان هذا الرأس الضخم قادرًا على بطولة شبيهة، فالمساحة لا تنقصه، إن لديه أسبابه ليتنهد على الفراغ الممتع القديم، لكن هذا قد يحدث فقط بفضل طبيعته الجاهلة بأن الكسل هو أكثر الأشياء المضرة بالصحة. وليس أسوأ من الكسل سوى التبغ، كما قد نرى فيما بعد . والآن، مع ذلك، بعد السير مسافة ثلاثمائة فرسخ، أغلبها فى سبل قد يرفض الشيطان أن يطأها، رغم أن له قدمى معزة، لا يستحق سليمان أن نطلق عليه كسولاً . ربما كان هكذا أثناء إقامته فى البرتغال، لكن هذه أزمنة رحلت، ويكفى أن يضع أرجله فى مداخل أوروبا ليرى كيف بشكل فورى تستيقظ فيه طاقات لم يكن هو نفسه يشتبه فى وجودها . تلاحظ هذه الظاهرة بتكرار فى الأشخاص الذين، بسبب ظروف الحياة من فقر وبطالة، اضطروا إلى الهجرة . وبعد أن يكونوا غير مبالين وبلا حماس فى الأرض التى ولدوا فيها، يصبحون ـ ما بين عشية وضحاها ـ نشيطين ومتحمسين كما لو أدخلت فى أجسادهم حشرة النجار المنتشرة والمعروفة رغم عدم إخضاعها للدراسة، هذه التى نتحدث عنها لا عن أخرى، المعروفة أيضاً، وتتغذى من قرض الخشب وتعرف أيضاً باسم حشرة الخشب أو القُرنبى . بدون أن ينتظر الانتهاء من نصب

المخيم المفترض فى ضواحى بياشينسا، ارتاح سليمان بين ذراعى الإله مورفيو الخاص بالفيلة . وفريتس، بجانبه، متدثر بمعطفه، يشخر مثل بركة من الرب . وفى الصباح مبكراً، انطلق البوق . كانت السماء قد أمطرت ليلاً، لكنها صارت صافية . ليتها لا تنتهى بسحاب أسود يغطيها، مثلما حدث أمس . أقرب الأهداف الآن هو مدينة منتوا، بلومبارديا، الشهيرة لأسباب كثيرة وممتازة، منها مهرج محدد بالقصر الدوقى المسمى ريجوليتو، الذى بفضل أفراحه وأحزانه، سيبدع جوزيف فيردى موسيقاه، فيما بعد . لن تتوقف القافلة فى منتوا لتقدر الأعمال الفنية الرفيعة التى تفيض فى المدينة . وستفيض أكثر فى فيرونا والتى صوبها، بعد رؤية استقرار الوقت، أمر الأرشيدوق بالتقدم، وهى التى ستكون المسرح الذى يختاره ويليام شكسبير لمسرحيته روميو وجوليت، عمله الأكثر تميزاً والتراجيديا الأكثر بؤساً [1]، ليس لأن ماكسيميليانو الثانى أرشيدوق النمسا مهتم بشكل خاص بحالات العشق التى لا تخصه، وإنما لأن فيرونا، إن لم نعد بادوا، هى آخر الخطوات المهمة قبل الوصول لفينيسيا، ومن هناك فصاعداً ستكون المسيرة مجرد صعود صوب جبال الألب حتى برد الشمال . وعن يقين، يعرف الأرشيدوق وحرمه من سفريات أخرى مدينة الدوجات [2] الجميلة، حيث،

(١) بالإنجليزية فى الأصل . (المترجم)

(٢) الدوج: القاضى الأول فى مدينتى البندقية وجنوة (المترجم).

من جانب آخر، لن يكون من اليسير إدخال سليمان ذى الأربعة أطنان، مفترضاً أنهم سيفكرون فى حمله مثل تميمة.

الفيل ليس حشرة ليرتاح فى زورق فينيسى، إن كان يوجد فى تلك الفترة، على الأقل فى الشكل الذى لديهم الآن، بمقدمة مرفوعة ولون أسود جنائزى يميزه بين كل بحريات العالم، وأقل احتمالية وجود صاحب الزورق يغنى فى المؤخرة. خلاصة القول، ربما يقرر الأرشيدوق وحرمه التنزه فى القناة الكبيرة ويكون فى استقبالهم الدوج، لكن سيبقى سليمان وكل الفرسان المدرعون وبقية الحقائب فى بادوا، بمواجهة كنيسة سان أنطونيو المعظمة، الخاصة بلشبونة، فلندافع عن حقنا، وليست الواقعة فى بادوا، فى مكان نظيف ومحاط بأشجار ونباتات أخرى . فى أرض كل منا أفضل الظروف دوماً لتحقيق الطمأنينة المطلقة، إلا إذا أرادت الحكمة الإلهية شيئًا آخر .

حدث فى الصباح التالى أن ظهر فى المخيم شبه المستيقظ رسول من كنيسة سان أنطونيو. ورغم أنه لم يستخدم بالتحديد هذه الكلمات، إلا أنه قال إنه جاء بأمر من رئيس الهيكل الكنسى للمعبد ليتحدث مع راعى الفيل . كان طول سليمان ثلاثة أمتار ويُرى من بعيد، وحجمه كان يملأ الفضاء السماوى، ومع ذلك، طلب القس أن يقرّبوه منه. ذهب الفارس الذى كان يصطحبه ليوقظ الفيّال، الذى كان لا يزال نائماً ملفوفاً فى معطفه. هناك قس هنا، قال. اختار أن

يتحدث بالقشتالية، وكان هذا أفضل ما يمكن أن يفعله، حيث إن معرفة الفيَّال المحدودة باللغة الألمانية، التى زود بها حتى الآن، لم تكن تخدمه فى فهم جملة معقدة . فتح فريتس فمه ليسأل عما كان يريد الأب، لكنه أغلقه بعدها، حتى لا يحدث أى لبس لغوى لا أحد يعرف إلى أين يقوده. نهض إذًا، وتوجه إلى الكاهن، الذى كان ينتظره على مسافة حذرة. أتريد أبوتكم أن تتحدثوا معى، سأل. هو كذلك يا بنى، أجابه الزائر واضعاً فى هذه الكلمات الأربع كل مدخرات الورع الذى يتمتع به. أؤمرنى إذاً أيها الأب. هل أنت مسيحى، كان هذا سؤاله . تم تعميدى، لكن من لونى وملامح وجهى، لا بد أن أبوتكم قد رأيتم أننى لست من هنا. حقاً، أظن أنك هندى، لكن هذا ليس مانعاً لتكون مسيحياً متديناً . لن أكون ما تقوله، وأنا أفهم أن كلمة المدح من فمك ملامة. جئت لأطلب منك طلباً، لكن قبلها أريد أن تقول لى هل فيلك من الفيلة المدرّبة. مدربة، ما يسمى مدرّب، بمعنى معرفة بعض مهارات السيرك، لا، لكنه اعتاد على التصرف بكرامة فيل يحترم نفسه . هل بوسعك أن تجعله يجلس على ركبه، حتى ولو برجل واحدة. فلتعرف أبوتكم أننى لم أجرب ذلك مطلقاً، لكننى لاحظت أن سليمان يجلس على ركبه بمحض إرادته عندما يريد النوم، وما لست متأكداً منه الآن أن يفعل ذلك إن أمرته. بوسعك أن تجرب. فلتعرف أبوتكم أن الوقت ليس الأفضل، ففى ساعات الصباح يكون سليمان فى

حالة مزاجية شبه سيئة. يمكننى أن أعود بعد ذلك، إن بدا لك مناسباً، فما أحضرنى هنا ليس التسرع والعجلة، مع أن من مصلحة الكنيسة أن تحدث اليوم، قبل أن يرحل سمو الأرشيدوق إلى الشمال. تحدث اليوم، ماذا، إن لم أكن متبجحاً بسؤالى. المعجزة، قال الأب ضاماً يديه . أى معجزة، سأل الفيال فى الوقت نفسه الذى شعر أن رأسه يدور. إن ركع الفيل أمام باب الكنيسة، ألا يبدو لك ذلك معجزة، واحدة من أعظم معجزات عصرنا، سأل الكاهن ضاماً يديه من جديد. لا أعلم شيئاً عن المعجزات، ففى أرضى، هناك حيث ولدت، لا توجد معجزات منذ خُلق العالم، وأتخيل أن كل الخلق معجزة مجتمعة، لكنها بعد ذلك انتهت . الآن أرى أنك فى النهاية لست مسيحياً. أبوتكم ستقرر، فأنا قد أعطونى مفاهيم سطحية عن المسيحية وأنا معمّد، لكن حتى الآن يلاحظ ما هو بالقاع. وما الذى بالقاع . على سبيل المثال، جانيش، إله الفيل، الكامن هناك ينفض الآذان، ستسألنى أبوتكم كيف أعرف أن الفيل سليمان إله، وأنا سأجيبك أنه كان يوجد، وما زال يوجد، إله فيل، قد يكون هذا أو أى فيل آخر. من أجل ما أنتظره منك ما زلت، سأغفر لك كفرك، لكن، عندما ننتهى من أمرنا، سيتحتم عليك الاعتراف. وماذا تنتظر أبوتك منى. أن تسوق الفيل إلى باب الكنيسة المعظمة وتجعله يركع . لا أدرى إن كنت قادراً على ذلك. حاول. تخيل أبوتكم أن أسوق الفيل حتى هناك فيرفض أن

يركع، مع أنه لا يفهم كثيراً فى هذه الأمور، أظن أن الأسوأ من عدم وجود معجزات أن تقابل معجزة خافقة. لن تكون أبداً خافقة إن شاهدها شهود. ومن سيكونون هؤلاء الشهود . أولاً، كل كهنة الكنيسة المعظمة وبعض المسيحيين الجاهزين الذين نستطيع جمعهم أمام مدخل المعبد، ثانياً، الصوت العام القادر، كما نعلم، على القسم بما لم ير والتأكيد على ما لا يعرف. والاعتقاد بمعجزات لم توجد من الأساس، سأل الفيّال. هؤلاء أكثرهم لذة، فيرهقنا إعدادهم، لكن الجهد الذى يحتاجونه على العموم يمكن تفهمه، بالإضافة لذلك، نريح قديسينا من مسئوليات كبرى. وبالنسبة إلى الرب. نحن لا نزعج الرب أبداً ليصنع معجزة، من الضرورى أن نحترم التدرج الوظيفى، كما نلجأ كثيراً للعذراء، المزودة أيضاً بمواهب لصنع معجزات. يبدو لى أنه يدور فى كنيستكم الكاثوليكية استهتارات كثيرة ، قال الفيّال . ربما، لكن إن كنت أحدثك بصراحة كبيرة، فذلك لتدرك أننا نحتاج لتلك المعجزة، أو أية معجزة أخرى، أجاب الكاهن. لماذا . لأن لوثر - رغم موته - مازال يسبب ضرراً كبيراً لديننا المقدس، وكل من يستطيع أن يساعدنا لتقليل تأثيرات الدعوة البروتستانتية سنرحب به، وتذكر أنه منذ أكثر من ثلاثين عاماً بقليل قاموا بتحديد فرضياتهم الفاحشة على أبواب كنيسة قلعة ويتنبيرج ومن يومها والبروتستانتية تغزو كل أوروبا كالفيضان. لا أدرى شيئاً عن هذه الفرضيات، فلتكن ما تكون.

ولا أنت فى حاجة إلى معرفتها، يكفى أن يكون لديك إيمان. إيمان بالرب أم بفيلى، سأل الفيّال. بكليهما، أجاب الأب . وكم سأربح من ذلك . الكنيسة لا يُطلب منها، بل يعطى لها. فى هذه الحالة، قد يجب على أبوتك أن تتحدث مع الفيل، فكما ترى، النتيجة الجيدة لعملية المعجزة تتوقف عليه. لسانك سليط، احذر حتى لا تفقده . ماذا سيحدث لو سقت الفيل حتى باب الكنيسة المعظمة ولم يركع. لا شىء، إلا إذا ارتبنا أن الذنب ذنبك . ولو كان الأمر كذلك. سيكون لديك أسباب قوية لتتوب. اعتقد الفيّال أنه من الملائم أكثر أن يستسلم . فى أية ساعة تريد أبوتكم أن أسوق الحيوان، سأل . أريده هناك فى منتصف اليوم بالضبط، دون دقيقة تأخير. وأنا أتمنى أن يسعفنى الوقت لأقنع سليمان أنه يجب عليه أن يركع أمام قدمى أبوتك. ليس أمام قدمى، يا لنا من مستفزين، بل أمام قدمى سان أنطونيو، وبهذه الكلمات المنشدة انصرف الأب ليخبر رؤساءه بنتيجة جهده الإنجيلى. لكن هل هناك آمال، سألوه . أفضل الآمال، مع أننا بين يدى فيل . الفيل ليس جواداً، فلا أيدى له . إنه مجرد كلام يقال، مثل قولنا، مثلاً، إننا بين يدى الرب. مع فارق كبير هو أننا بالفعل بين يدى الرب . تعاظم اسم الرب . تعاظم اسمه، لكن، عائدين للب الموضوع، لماذا نحن بين يدى الفيل. لأننا لا نعرف ما سيفعله عندما يجد نفسه أمام باب الكنيسة المعظمة . سيفعل ما يأمره به الفيَّال، من أجل هذا خلقوا

التدريب . فلنؤمن بالفهم الإلهى المتسامح لأحداث هذا العالم، فلو أراد الرب، كما نظن، أن يكون مخدوماً، فمن المناسب أن يمد يد المساعدة لتحقيق معجزاته، تلك التى ستتحدث أفضل عن عظمته، يا إخوة، الجميع يستطيع الإيمان، والرب سيدبر الأمر. آمين، ردد الجمع بصوت كورالى معدين فى رءوسهم ترسانة الصلوات التالية .

أثناء ذلك، كان فريتس يحاول بكل الطرق أن يجعل الفيل يدرك ما يريدونه منه. ولم تكن مهمة سهلة لحيوان له آراؤه الراسخة، يقوم بثنى ركبه فى الحال ويتبع ذلك بالغوص فى النوم . رويداً رويداً، مع ذلك، وبعد كثير من الضربات، وعدد لا متناه من اللعنات وبعض التضرعات اليائسة، شرع النور فى اختراق مخ سليمان الذى كان حتى هذه اللحظة متحفظاً، ففهم أنه يجب أن يركع، لكن دون أن ينام . حياتى بين يديك، قال له فريتس فى النهاية، وهو ما يظهر كيف أن الأفكار ممكنة الانتشار، ليس فقط عن طريق مباشر، من فم إلى أذن، وإنما بكل بساطة تطفو مع التيارات الجوية التى تحيط بنا، مشكّلة، لنقُل ذلك بطريقة ما، حمام غوص حقيقى نتعلم فيه دون أن ننتبه لذلك . وبسبب ندرة الساعات، كان الآمر فى تلك الفترة هو ارتفاع الشمس وحجم الظل الذى ترسمه فى الأرض . وبهذه الطريقة عرف فريتس أن وقت الظهيرة يقترب، ومازال أمامه الوقت الذى سيسوق فيه الفيل إلى باب الكنيسة المعظمة، وبداية

من هناك، فليفعل الرب ما يريد . فى طريقه، امتطى رقبة سليمان، كما رأيناه من قبل عدة مرات، لكن الرجفة الآن تعرف طريقها ليديه ولقلبه، كما لو كان صبى فيّال مسكين . كانت هذه الحسرات زائدة. عند الوصول لباب الكنيسة المعظمة، وأمام حشد من الشهود الذين سيشهدون مستقبلاً بالمعجزة، ثنى الفيل، مطيعاً لشدة خفيفة من أذنه اليمنى، ركبتيه، ليس ركبة واحدة معها سيملأ الرضا المتدين الذى جاء بطلبه ـ وإنما ـ الاثنتان ـ راكعاً هكذا أمام جلالة الرب فى السماء ولجلالة ممثليه فى الأرض. تلقى سليمان فى المقابل رشة كريمة من الماء المقدس، الذى وصل ليبل الفيّال فى علاه، بينما ركع الحضور جماعةً واهتزت مومياء سان أنطونيو من السرور فى منصتها التابوتية .

فى تلك الليلة نفسها، طارت حمامتان من الكنيسة المعظمة صوب ترينتو، إحداهما ذكر والأخرى أنثى، حاملتين خبر المعجزة الهائلة . ولماذا صوب ترينتو وليس روما، حيث توجد رأس الكنيسة هناك، قد يجب أن نتساءل . الإجابة سهلة، لأنه يوجد مجمع مسكونىّ(*) فى ترينتو منذ ألف وخمسمائة وخمسة وأربعين عاماً، وقدر معرفتنا، يقوم بتجهيز هجوم مضاد للوثر وأتباعه. ويكفى أن نقول إنه تم إصدار مراسيم حول الكتابة المقدسة والتقليدية، الخطيئة الرئيسية، التبرير والأسرار المقدسة بشكل عام. سيُفهم بالتالى أن كنيسة سان أنطونيو المعظمة، عماد العقيدة الصميمة، فى حاجة دائمة للاطلاع على ما يجرى فى ترينتو، وهناك قريباً، على أقل من عشرين فرسخاً، توجد نزهة حقيقية لطيران الحمام، الذى منذ سنوات يسير فى طرق ثابتة بين هنا وهناك. هذه

(*) المجمع المسكونىّ : هو اجتماع أساقفة بسبب ظهور بدعة أو انشقاق يؤثر على الإيمان الكنسى، أو بدعوة من الإمبراطور، ويتم حضور غالبية أساقفة الكنيسة. (المترجم)

المرة، مع ذلك، تمتلك بادوا رئاسة الخبر، فلا يحدث كل يوم أن فيلاً يركع برفعة أمام أبواب كنيسة معظمة، مقدماً هكذا شهادة بأن الرسالة الإنجيلية موجهة إلى كل مملكة الحيوانات وأن حادثة الغرق المؤسفة للمئات من تلك الخنازير فى بحر الجليل كانت فقط نتيجة نقصان الخبرة، عندما كانت العجلات المسننة لميكانيكية المعجزات ما زال ينقصها التزييت بشكل جيد. ما يهم اليوم هو صفوف المؤمنين الممتدة والمرصوصة فى المخيم لترى الفيل وتستفيد من صفقة بيع شعر الحيوان التى نظمها فريتس سريعاً ليعوض المقابل المادى، الذى كان ينتظره بسذاجة من خزانة الكنيسة المعظمة. لن نلوم الفيّال، فآخرون لم يفعلوا كثيراً للعقيدة المسيحية ومع ذلك لم يكفوا عن تلقى الهدايا بغزارة. وغداً سيقولون إن مشروباً من شعر الفيل، ثلاث مرات يومياً، هو أفضل العلاجات فى حالة الإسهال المزمن وإن هذا الشعر، بنقعه فى زيت اللوز وتقليبه ودعك جلد الرأس به بشدة، أيضاً ثلاث مرات يومياً، يعالج حالات الثعلبة الميئوس منها.

ليس لدى فريتس يد كى يكيل، وفى الحزام المربوط على خصره تتثاقل العملات، فلو استمر المخيم لأسبوع آخر سيصير ثرياً. لم يكن الزبائن فقط من بادوا، فهناك أيضاً من يأتون من مسترى وحتى من فينيسيا. يُقال إن الأرشيدوق وحرمه لن يعودا اليوم، وربما لا يعودان غداً، فهما فى قمة الراحة فى قصر الدوج، وفى هذا كل أسباب السرور لفريتس، الذى لم

يظن أبداً أن يمتلك أسباباً لتكون أسرة هابسبورج(*) ممتنة له. يتساءل، لماذا لم تخطر بباله من قبل فكرة بيع شعر الفيل عندما كان يعيش فى الهند، وفى ميدانه الأكثر حميمية يفكر أنه، رغم غزارة الآلهة المبالغ فيها، آلهتها وشياطينها التى تلوثها، هناك خرافات أقل بكثير فى الأرض التى ولد فيها من هذا الجزء بأوروبا المتمدنة وشديدة المسيحية التى تستطيع أن تشترى عمياناً شعر فيل وتعتقد بورع فى أكذوبات البائع . وجوب الدفع مقابل الأحلام الخاصة ربما يكون أسوأ حالات اليأس . وفى النهاية، وضد تكهنات ما يسمى بدفتر مخبأ المقاوم، عاد الأرشيدوق ظهيرة اليوم التالى، جاهزاً لمواصلة المسيرة فى أقرب وقت ممكن . وصل خبر المعجزة لقصر الدوج، لكن بطريقة شديدة الالتباس، من خلال حكاية ناقصة لشاهد شبه حاضر حتى هؤلاء الذين حكوا ببساطة؛ لأنهم سمعوا ما يُقال، ونتيجة لتواتر الأحداث الحقيقية والمفترضة، الواقعة والمتخيلة، حدث ما نعرفه جيداً، فمن يحكى حكاية لا يستطيع أن يحكيها دون إضافة نقطة هنا، وأحياناً فصلة هناك . أمر الأرشيدوق باستدعاء مدير الإدارة بالجيش ليوضح له ما حدث، ليست المعجزة فى حد ذاتها، بل الأسباب التى أدت لتحقيقها . عن هذا الوجه الخاص من القضية كان مدير الإدارة ينقصه معلومات، بحيث قرر استدعاء الفيَّال فريتس،

(*) أسرة هابسبورج: أسرة نمساوية من أهم الأسر الأوروبية الحاكمة، عرفت برجعيتها وتأييدها المطلق للكاثوليكية. وكان شعارها: " للنمسا أن تحكم العالم" . (المترجم).

الذى ـ بفضل طبيعة أعماله ـ لابد أنه يعرف شيئاً أكثر أهمية. دخل الأرشيدوق فى الموضوع دون لف ودوران، قالوا لى إنه حدثت هنا معجزة خلال غيابى. حقاً يا سيدى. وإنه سليمان من فعلها. هو كذلك يا سيدى. أتقصد بهذا أن الفيل قرر، من تلقاء نفسه، التوجه لباب الكنيسة المعظمة والركوع أمامه. لن أقولها بهذه الطريقة يا سيدى. إذاً، بأية طريقة ستقولها، سأل الأرشيدوق. كنت أنا من ساق سليمان. ظننت الأمر كذلك، ثم أن هذه المعلومة يمكن الاستغناء عنها، ما أريد معرفته هو فى أى رأس ولدت هذه الفكرة .

أنا يا سيدى استوجب علىّ فقط تدريب الفيل على الركوع عندما آمره . وأنت من أمرك أن تفعل. سيدى، غير مسموح لى أن أتحدث بهذا الشأن. أهناك من حرّم عليك ذلك. لا أستطيع أن أقول إنهم حرّموه علىّ بشكل صريح، لكن كل لبيب بالإشارة يفهم. ومن قام بهذه الإشارة. سيدى. ستدفع الثمن غالياً وبمرارة إن لم تجب على سؤالى دون زيادة أو نقصان. كان أحد باباوات من الكنيسة المعظمة. فسّر بشكل أفضل. قال لى إنهم فى حاجة لمعجزة وإن هذه المعجزة يمكن أن يقوم بها سليمان . وأنت، ماذا قلت. إن سليمان لم يتعود أن يأتى بمعجزات وإن المحاولة قد تخفق. والبابا. هددنى إن لم أطعه سيكون لدىّ أسباب قوية للتوبة، تقريباً نفس الكلمات التى استخدمتها سموك فى التو. وماذا حدث بعد ذلك.

ـمكثت بقية الصباح لأدرب سليمان على الركوع بإشارة منى، ولم يكن ذلك سهلاً بالمرة، لكننى فى النهاية حققته . أنت فيَّال جيد. سموك تريكنى . أتريد نصيحة . نعم يا سيدى. أنصحك ألا تتحدث خارج هذا المكان عن هذا الحوار. هذا ما سأفعله يا سيدى. حتى لا يكون لديك أسباب للتوبة. حقاً يا سيدى، ولن أنسى ذلك . اذهب واخرج من رأس سليمان هذه الفكرة الغريبة الخاصة بالإتيان بالمعجزات راكعاً أمام أبواب الكنائس، فالمعجزة التى ننتظرها كثيراً، على سبيل المثال، أن تنبت ساق حيث قطعت أخرى، تخيل عدد عجائب هؤلاء التى من الممكن أن تتحقق مباشرة فى حقل المعركة. حقاً يا سيدى. هيا. وحيداً، بدأ الأرشيدوق يفكّر أنه ربما تحدث زيادة عن اللازم، وأن انتشار كلامه هذا، فى حالة أن ينسحب الفيّال من لسانه، لن يكون فى مصلحة سياسة التوازن الدقيقة التى يحاول الحفاظ عليها بين إصلاح لوثر ورد فعل المجمع القادم فى الطريق . خلاصة القول، كما سيقول إنريكى الرابع ملك فرنسا فى مستقبل ليس ببعيد جداً، باريس تستحق قداساً بجدارة . مع ذلك، تطل سويداء لاذعة من محيا ماكسيميليانو النحيف، ربما تؤلمه أشياء قليلة فى الحياة أكثر من وعيه بأنه قد خان مثاليات الشباب . قال الأرشيدوق لنفسه إنه قد بلغ السن الكافية لكى لا يبكى على اللبن المسكوب، وإن ضروع الكنيسة الكاثوليكية هناك ممتلئة، كالعادة، وفى انتظار أياد ماهرة لتحلبها، والأحداث، حتى الآن، أظهرت أن الأيدى الأرشيدوقية ليست مجردة تماماً

من هذه الموهبة الدبلوماسية الساعية، شريطة أن تتوقع هذه الكنيسة أن نتيجة التجارة بالعقيدة ستكون فى النهاية، مع الوقت، مفيدة لمصالحها . أياً كان الأمر، لقد تخطت قصة معجزة الفيل المزيفة حدود المسموح به . فكّر، باباوات الكنيسة المعظمة فقدوا عقولهم، عندما يكون لديهم قديس مثل ذاك، رجل يصنع من كسرات الإبريق إبريقاً جديداً، ويطير حتى لشبونة لينقذ الأب من المقصلة، وبعد كل ذلك يذهبون ليطلبوا من فيَّال أن يعيرهم الفيل ليتصنع معجزة، آه يا لوثر، يا لوثر، كم كنت محقاً. وما أن تخفف من كبته هكذا، أمر الأرشيدوق باستدعاء مدير إدارة الجيش، الذى أمره أن يستعد للرحيل فى الصباح التالى صوب ترينتو، فى مرحلة واحدة إن أمكن أو نائمين مرة أخرى فى الطريق، إن لم يكن أمامه وسيلة أخرى . أجاب مدير الإدارة بأن الراحة تبدو له أكثر حيطة، فالخبرة برهنت أنه لا يمكن الاعتماد على سليمان فى تجارب السرعة. إنه عدّاء مسافات بعيدة ليواصل فيما بعد، أنهى . مستغلاً ثقة الناس، باع الفيَّال شعر الفيل كمراهم علاجية لن تعالج أحداً. قل له من جانبى إن لم يتوقف عن التجارة سيكون لديه الأسباب ليتحسر على ما تبقى له من عمر، ولن يكون عمراً طويلاً على أية حال. ستنفذ أوامر سموك فى الحال، فمن الضرورى أن نضع حداً لهذه الفَرّس، فقصة شعر الفيل تهين القافلة، بخاصة الفرسان المدرعين الصُلع . أريد حل هذه القضية، لا أستطيع منع أن تطاردنا سمعة معجزة سليمان طوال المسيرة، لكن على الأقل

يجب ألا يقال إن أسرة هابسبورج تستغل مساوئ فيَّال متورط فى أكاذيبه، محصّلاً ضريبة المبيعات كما لو كانت عملية تجارية يتستر عليها القانون. أركض لأحل القضية يا سيدى، ولن يضحك الفيَّال فى النهاية، إنه لمؤسف أن نحتاج كثيراً إليه ليسوق الفيل حتى فيينا، لكن أتمنى أن ينفعه كإصلاح ما حدث. هيا، أطفئ هذه النار قبل أن تحرق أحدًا. بعد أن اتضحت الأمور، لم يكن فريتس يستحق هذه الأحكام شديدة القسوة . فمن المتفق عليه أنه يتم اتهام وإدانة المجرم، لكن العدل المفهوم جيداً يجب أن يضع دوماً فى اعتباره فرضيات التخفيف، وأولها، فى حالة الفيَّال، هو الاعتراف بأن فكرة المعجزة الخادعة لم تكن فكرته، وأن آباء كنيسة سان أنطونيو المعظمة هم من حاكوا الأكذوبة، ودونها ما كانت خطرت أبداً ببال فريتس فكرة استغلال شعر بطل العجيبة الظاهرة من أجل الثراء . وسواء الأرشيدوق النبيل أو مديره الخدوم كان عليهما تذكر، كاعتراف بخطاياهما الكبيرة والصغيرة، فليس هناك فى العالم من هو معصوم من الخطأ، وبخاصة هما، هذا المثل الشهير عن الخشبة والقشة، الذى لو كيفناه على الظروف الجديدة سيشير أنه من الأسهل أن ترى الخشبة فى عين جارك من أن ترى شعر الفيل فى عينيك . على أى حال، ليست هذه بمعجزة تبقى فى ذاكرة الشعوب والأجيال . وعلى عكس ما يخشى الأرشيدوق، لن تطارده سيرة المعجزة الزائفة خلال ما تبقى له من سفر وسريعاً ما ستنقشع. فأفراد القافلة، سواء كانوا نبلاء أم

غوغائيين، عسكريين أم مدنيين، سيكون لديهم الكثير ليفكروا فيه حينما تبدأ السحابات المكومة فوق منطقة ترينتو، وفوق الجبال الأولى قبل سور جبال الألب، فى التحلل فى شكل أمطار، ومن يدرى إن صارت بَرَداً عنيفاً، والمؤكد أنها ثلوج، وستغطى الطرق بثلج يزحلق. ومن الممكن حينئذ أن يعترف أحد رجال القافلة أخيراً أن الفيل المسكين لا يتعدى كونه شريكاً بريئاً فى الحادثة المضحكة المروية فى حكاية الكنيسة وأن الفيَّال لم يكن سوى نتاج لا معنى له للأزمنة الفاسدة التى كُتب علينا أن نعيش فيها. وداعاً أيها العالم، فحالك كل يوم يزداد سوءاً.

رغم الرغبة التى عبّر عنها الأرشيدوق، لم يكن ممكناً الظفر بالمسافة بين بادوا وترينتو على مرحلة واحدة. حقاً بذل سليمان من الجهد ما فى وسعه، كلما أجبره الفيَّال، الذى كان يبدو منتقماً من إخفاق تجارته التى بدأت جيدة وانتهت سيئة، لكن الفيلة، حتى عندما تكون من تلك التى تبلغ أربعة أطنان، لديها أيضاً حدودها الجسمانية . كان مدير إدارة الجيش محقاً عندما نعته بعداء المسافات الطويلة.

وبقول حسن، كان هذا أفضل شىء. وبدلاً من الوصول آخر النهار، وحلول الليل تقريباً، دخلوا ترينتو وقت الظهيرة، حيث الناس بالشوارع والتصفيقات التالية . كانت السماء لا تزال مختبئة خلف ما يبدو سحاباً ملتصقاً، من أفق إلى أفق، لكنها لم تمطر. أجمع علماء الطقس بالقافلة، وهم أغلب من فيها

بالفطرة، على أن، هذا ثلج، ومن الثلج الجميل، قالوا. بوصول القافلة إلى ترينتو، كانت تنتظرهم مفاجأة فى ميدان كاتدرائية سان فيرجيليو. فقد نصبوا فى المركز الهندسىّ بهذا الميدان، بنصف الحجم الحقيقى تقريباً، تمثالاً لفيل ـ أو بمعنى أوضح ـ بناية من ألواح الخشب بشكل يوحى أنها أعدت بكل سرعة، وهى، دون اهتمام زائد بالضبط التشريحى، رغم عدم نقصان زلومة مقوسة وبعض الأسنان التى تم استبدال العاج فيها بطبقة طلاء أبيض، لابد أنها تمثل سليمان، أو يمكن فقط أن تمثله هو، حيث إن حيواناً آخر من الفصيلة نفسها لم تنتظره هذه الأمكنة، ولم يثبت أن حيواناً آخر قد شكّل جزءًا من تاريخ تورينتو، على الأقل فى الماضى القريب. عندما اصطدم بصورة الفيل، الأرشيدوق ارتجف. كانت أسوأ مخاوفه تتأكد، لقد وصل خبر المعجزة حتى هناك والسلطات الدينية للبلدة الصغيرة، التى تستغل مادياً وروحياً وبشكل زائد احتفال المجمع داخل أسواره، كانت قد شاهدت القدسية المجاورة مؤكَّدة، ولنعبر عن ذلك بطريقة ما، لترينتو فى علاقتها ببادوا وكنيسة سان أنطونيو المقدسة، بحيث قرروا إعلان رفع هيكل مستعجل يمثل المخلوق المعجزة، أمام الكاتدرائية التى يجتمع بها منذ سنوات الكاردينالات والأساقفة واللاهوتيون. مدققاً النظر، لاحظ الأرشيدوق أنه فى ظهر الفيل توجد أبواب كبيرة، نوع من العيون السحرية التى ذكرته على الفور بحصان طروادة الشهير، مع أنه كان أكثر من واضح أن فى بطن التمثال لا يوجد مكان يكفى ولا

حتى سرية من الأطفال، إلا إذا كانوا أقزاماً، وهذا لم يكن ممكناً، حيث إن تلك الكلمة لم تكن قد وجدت حينها . لكى يخرج من هذه الحيرة، أمر الأرشيدوق القلق مدير إدارة الجيش أن يذهب ليتحقق ماذا يفعل هناك هذا التمثال المعشق الشريد الذى يسبب له الاضطراب . ذهب المدير ليحضر أخباراً وعاد بها. ليس هناك أسباب للخوف. فالفيل هناك من أجل الاحتفال بمرور ماكسيميليانو أرشيدوق النمسا من مدينة ترينتو، وهدفه الآخر، الذى كان مقنعاً حقيقة، هو استغلاله كدعامة فى النيران الاصطناعية التى ستهاجم من الهيكل عند دخول الليل. تنفس الأرشيدوق الصعداء، أخيراً لم تستحق أحداث الفيل فى ترينتو أى تقدير خاص، باستثناء ربما نهايته إلى رماد، حيث كانت هناك احتمالات أن تبلغ شرارات النيران الاصطناعية الخشبَ، معطين للحضور نهاية قد يطلقون عليها بعد سنوات كثيرة من ذلك وبشكل لا يخطئ نعت فاجنيرى . وهذا ما حدث . ويعد ريح من الألوان، حيث اصفر الصوديوم، واحمر الكالسيوم، واخضر الرصاص، وازرق البوتاسيوم، وأبيض الماغنسيوم، وذهبى الحديد حققت معجزات، فيها النجوم والفسقيات والأضواء الشريدة وشلالات المصابيح خرجت من داخل الفيل مثلما تخرج من قرن خصب لا ينفد، وانتهى الاحتفال إلى مجمرة كبيرة استغلها عدد ليس بالقليل من أهل ترينتو ليدفئوا أيديهم، بينما كان سليمان، المحمى تحت سقيفة مشيدة يراقب، ينتبه لجعبة غذائه الثانية. رويداً رويداً

تحولت المجمرة إلى لهب مضطرم، لكن البرد لم يسمح باستمراره طويلاً، فتحول اللهب سريعاً إلى رماد، رغم أنه فى هذا الوقت، بانتهاء العرض الرئيسى، كان الأرشيدوق وحرمه قد انصرفا. وبدأت السماء تمطر ثلجاً.

ها هى جبال الألب. نعم موجودة، لكنها بالكاد تُرى. الثلج يهبط رقيقاً، مثل نُدَف طفيفة من القطن الخام، لكن هذه النعومة خادعة، وليقل ذلك فيلنا، الذى يحمل فوق ظهره بقعة من الثلج يزداد مع الوقت رؤيتها، وكان لابد أن يجذب انتباه الفيّال لولا أن الظروف جعلته شرقياً من أرض حارة حيث هذا النوع من الثلج لم يعبر حتى بخياله. بالطبع هناك فى الهند القديمة، فى الشمال، جبال وثلوج فوقها، لكن سوبهرو، فريتس الآن، لم يتمتع أبداً بالوسائل ليسافر من أجل متعته الخاصة ويرى العالم. وخبرته الوحيدة فى الثلج كانت فى لشبونة بعد أسبوعين من وصوله من جنوة، عندما، فى ليلة باردة، شاهد هطول غبار أبيض من السماء، غبار يشبه الدقيق الساقط من المنخل، يذوب قبل أن يلمس الأرض . وهذا لا علاقة له إطلاقاً بالضخامة البيضاء القابعة أمام عينيه الآن، على مدى البصر . وفى وقت صغير، تحولت ندف القطن إلى كور كبيرة وثقيلة، ما أن يدفعها الريح حتى تجلد محيا الفيّال مثل لكمات . قابعاً فوق رقبة سليمان، مدثراً بمعطف، لم يكن فريتس يشعر بشدة البرد، لكن هذه الضربات المستمرة، المتواصلة، كانت

تقلقه مثل تهديد وشيك . قالوا له إنه من ترينتو إلى بولزانو، لنقل ذلك بأية طريقة، مجرد نزهة، عشرة فراسخ، أو أقل قليلاً، أو بمعنى آخر نطة برغوث، لكن ليس فى هذا الطقس، حيث يبدو أن للثلج مخالب تمسك وتعوق كل حركة بما فيها التنفس، كما لو أنها غير مستعدة لترك غير المحتاط ليخرج. فليقل سليمان إنه، رغم القوة التى منحتها له الطبيعة، يسير جاراً جسده بشكل مثير للشفقة فى منحدرات الطريق المرتفعة . لا ندرى فيما يفكر، لكنه يمكننا على الأقل أن نكون على يقين من شىء واحد فى جبال الألب هذه، أنه ليس فيلاً سعيداً. ولو استثنينا المناسبات التى فيها امتطى الفرسان المدرعون بأفضل ما يمكن مطاياهم المنهوكة، صعود جبل، نزول جبل، لملاحظة وضع القافلة بهدف تجنب التناثر والانحراف عن الطريق المؤدى للموت لمن يتوه فى هذه الأماكن المثلجة، لم يبدُ أن الطريق موجود إلا من أجل الفيل وفيّاله. ولأنه اعتاد من بلد الوليد على قرب عربة الأرشيدوق وحرمه، استغرب الفيَّال عدم رؤيتها أمامه، أما عن الفيل فلا نتجرأ على الحديث، فكما قلنا قبل ذلك، لا ندرى فيما يفكر . العربة الأرشيدوقية موجودة هنا، لكن لا نلمحها ولا نلمح أثرها، وعن عربة الغذاء، التى لابد أنها بالخلف، ليس هناك أخبار كذلك . أدار الفيَّال رأسه، ليرى إن كان محقاً، وكانت هذه النظرة الإلهية هى ما جعلته ينتبه لطبقة الثلج، التى كانت تغطى أجزاء سليمان الخلفية . ورغم أنه لا يعلم شيئاً عن رياضات الشتاء، يبدو له أن الثلج شديد الرقة وذو

منظر هش، وهو ما ينجم ربما عن حرارة جسم الحيوان، الذى لن يتركه يتصلب كلية. من الشر أقله، فكّر. على أية حال، قبل أن يتفاقم الأمر كان يجب نزعه من هناك. بألف حيطة، حتى لا ينزلق هو نفسه، خمش الفيَّال ظهر الفيل حتى وصل إلى طبقة الثلج الدخيلة، التى لم تكن طبقاً للحسابات الموجزة شديدة الرقة والهشاشة كما بدت له من قبل. لا يمكن أبداً الثقة فى الثلج، هذا هو الدرس الأول الذى لا غنى عن تعلمه . عندما نطأ بحراً جمّده البرد بوسعنا أن نعطى انطباعاً للآخرين بأننا أشخاص نسير فوق الماء، لكن هذا وهم مزيف، مزيف كما كانت مزيفةً معجزة سليمان أمام باب كنيسة سان أنطونيو المعظمة، وفجأة ينكسر الثلج ولا أحد يعرف أبداً ماذا من الممكن أن يحدث. المشكلة التى يواجهها سليمان الآن وعليه حلها هى غياب أداة قادرة على إزالة الثلج الملعون من جلد الفيل، فمبسط بصفيحة رقيقة وطرف مستدير، مثلاً، ستكون هى الأمثل، لكن لا يوجد هنا مبسط كهذا، إن كان هناك فى هذا الزمن أناس يصنعونه . الحل الوحيد بالتالى سيكون العمل بأظافره، ولا نقول ذلك بصيغة مجازية. فقد كان للفيَّال أصابع مكبلة عندما أدرك أين تكمن عقدة المشكلة العويصة، لا شىء أكثر من ذلك، فشعر الفيل الغليظ والجاف يتضامن مع الثلج، وكل تقدم يعنى معركة ضارية، فلا يوجد مبسط لمساعدته فى نثر الثلج من الجلد، ولا يوجد كذلك مقص لقص شعر يشبه الهيكل . فكانت إزالة كل شعرة من هذه عملية بدت سريعة أنها أبعد عن

إمكانات فريتس العقلية والجسمانية، المضطر فى النهاية للتخلى عن العملية قبل أن يتحول هو نفسه إلى تمثال ثلجى يثير الشفقة، قد لا ينقصه سوى غليون فى الفم وجزرة مكان الأنف. الشعر نفسه الذى كان مصدراً لتجارة واعدة، فشلت فى الحال لارتيابات الأرشيدوق الأخلاقية، صار الآن سبباً لإخفاق لم تظهر عواقبه بعد على صحة الفيل. وكما لو أن ذلك قليل، أطلتّ مشكلة أخرى فى الدقائق الأخيرة، على ما يبدو ذات طابع طارئ . مرتبكاً من تغيير وزن الفيّال المألوف من الرقبة إلى الجلوس على الأجزاء الخلفية، أعطى الفيل علامات واضحة لتيهه، كما لو أنه فقد درايته بالطريق ولا يعرف فى أى اتجاه يسير. لم يكن أمام فريتس من حل سوى الزحف سريعاً حتى مقعده المعتاد والإمساك بزمام القيادة. وبالنسبة إلى طبقة الثلج المكومة فى الخلف، نرجو من إله الفيلة أن يجنبه الشرور الكبرى. لو عثر هنا على شجرة لها غصن قوى بما فيه الكفاية طوله ثلاثة أمتار وموازية للأرض بشكل معقول، لكان سليمان نفسه تكفل بعتق نفسه من الغطاء الثلجى المتعب وربما الخطير، و لكان كافياً أن يتمكن من حك نفسه كتقليد عريق فى الفيلة حيث يحكّون بجذوع الأشجار عندما يشتد القرص بشكل يفوق احتمالها . والآن بعد أن تضاعف الثلج فى كثافته، وهذا لا يعنى أن شيئاً نتج عن شىء، صار الطريق أكثر ارتفاعاً، كما لو أنه تعب من الجر فى الأرض ويريد أن يصعد إلى السماوات، حتى ولو كان إلى واحدة من الأدنى مستوى . كذلك أجنحة الذباب

لا يمكن أن تحلم بالتحليق مثل أجنحة البطريق ضد شدة الريح ولا برفرفة النسر الحقيقى المبهرة فوق الوديان . كل ميسر لما خلق له، لكن يجب أن نضع فى الحسبان دوماً إمكانية ظهور مفاجئ لاستثناءات مهمة، مثلما هى حالة سليمان، الذى لم يخلق من أجل هذا، لكنه لم يجد أمامه حلاً آخر سوى ابتكار طريقة ما وبنفسه ليعوض تمايل الأرض، مثل طريقة تمديد زلومته للأمام، وهو ما يعطيه صورة واضحة لمحارب ملقى على الشاحنة ينتظره الموت أو المجد . وكل ما حوله ثلج وعزلة . هذا البياض، يقول ذلك من يعرف المنطقة، يخبئ وراءه منظراً جمالياً فوق العادة . إذاً لن يقول ذلك أحد، ونحن ـ الموجودين ـ هنا، أقل من أى أحد . الثلج يلتهم الوديان ويخفى الأخضر، وإن وجدت هنا منازل مسكونة فقد تُرى بالكاد، والعلامة الوحيدة على الحياة هى خروج قليل من الدخان عبر مدخنة، وشخص بالداخل يقرّب حزم حطب رطبة إلى القَبَس وينتظر، بباب مجمّد بالفعل بالقطع الثلجية، وطلب النجدة من قديس يدعى سان برناردو بزجاجة براندى فى رقبته . ودون أن ينتبه، انتهى المنحدر، وكان بوسع سليمان أن يتنفس بطبيعية، ويقلل المجهود الهائل الذى كان يبذله إلى خطوة تنزه هادئة، فكفى أن فيّالاً يجلس على رقبته وطبقة ثلجية تكبح أجزاءه الخلفية. انفتحت ستارة الثلج قليلاً، سامحة تقريباً بتمييز ثلاثمائة أو أربعمائة من أمتار الطريق، كما لو أن العالم قد قرر أخيراً استعادة طبيعة الطقس المفقودة . لعل هذه كانت، حقيقةً، نية العالم، لكن

شيئاً غير طبيعى وجب حدوثه لتتكوّن هذه المجموعة من الأفراد والجياد والعربات، كما لو أنهم عثروا على مكان جيد لطعام فى الهواء الطلق . أجبر فريتس سليمان على الإسراع فى الخطى ولاحظ فى الحال أنه يسير مع الناس، مع القافلة، وهو، من ناحية أخرى، ما لا يستوجب فطنة شديدة، حيث إنه كما نعلم، لا يوجد أرشيدوق للنمسا إلا هذا وليس سواه. هبط من الفيل ووجه سؤالاً لأول شخص قابله، ماذا حدث. فجاءته الإجابة سريعة، انكسر المحور الأمامى لعربة سموه. يا للمصيبة، صاح الفيّال. نجار العربات ومساعدوه يضعون محوراً آخر، وخلال ساعة سنكون جاهزين لمواصلة المسيرة. وأين كانوا يحتفظون به. يحتفظون بماذا . بالمحور الآخر. قد تعلم كثيراً عن الفيلة، لكن لن يخطر ببالك أن أحداً لن يجازف برحلة من تلك دون أن يحمل معه قطع غيار. وهل عانى سموه وحرمه من بعض الضيق لما حدث. لا، فقط شعرا بخوف؛ لأن العربة مالت إلى جانب. وأين هما الآن. داخل عربة أخرى مدثرين، هناك للأمام. سريعاً ما سيحل الليل. مع عاصفة الثلج هذه دوماً سيكون الطريق منارا، لا أحد يتوه، قال جاويش الفرسان المدرعين، الذى كان محدثه. وكان محقاً؛ لأن العربة التى تحمل جعبات الغذاء وصلت الآن، وفى الساعة المناسبة لأن سليمان، بعد أن جر الأربعة أطنان صاعداً السلسلة الجبلية، كان أكثر من محتاج لاستعادة قوته . وفى أقل من لمح البصر فك فريتس جعبتين هناك، وفى لمح آخر ـ إن وجد ـ سيجد الفيل

يلتهم حصة طعامه بلهفة. بعدها ظهر فى الخلف فرسان مؤخرة القافلة المدرعون ويصحبتهم بقية الفرقة، منهوكين من البرد، ساقطين من جهدهم المبذول الهائل خلال فراسخ وفراسخ، لكنهم سعداء لانضمامهم للجماعة المسافرة. إن فكّرنا فى الأمر جيداً، فالحادث الذى تعرضت له العربة الأرشيدوقية قد تكون فقط عملاً من التدبير الإلهى. فكما برهنة الحكمة الشعبية المحمودة دوماً بشكل كاف، وكما ثبت ذلك مرة أخرى، فالرب يكتب مستقيماً بأسطر مائلة، وهذه هى السطور التى يفضلها. بعد الانتهاء من تبديل المحور بآخر والتحقق من صلابة البديل، عاد الأرشيدوق وحرمه إلى رفاهية العربة والقافلة، التى تم تجميعها مجدداً، وبدأت المسيرة، بعد أن تلقى أعضاؤها، العسكريون منهم والمدنيون، أوامر بشكل مطلق حازمة من أجل أن يكون تماسكها البدنى محمياً على أكمل وجه، بحيث لا تتكرر البعثرة السابقة المثيرة للحسرة، والتى فقط لحسن الطالع لم ينتج عنها عواقب وخيمة . كان الليل قد فرد جناحيه عندما دخلت القافلة بولزانو.

فى اليوم التالى نامت القافلة حتى الظهيرة، بات الأرشيدوق وحرمه فى بيت عائلة نبيلة بالمكان، والباقون تناثروا فى مدينة بولزانو الصغيرة، بعض هنا، وبعض هناك، وتوزعت جياد الفرسان المدرعين على الإسطبلات التى كان بها أماكن متاحة، أما البشر فأقاموا فى بيوت خاصة، فنَصبُ مخيم فى العراء لم يكن فيه أية متعة، ولا كان ذلك ممكناً، إلا إذا كان لديهم ما تبقى من قوة لقضاء الليل فى مسح الثلج. ما أرهقهم أكثر كان العثور على مأوى لسليمان . وبعد بحث طويل، اكتشف فى النهاية كوخاً لم يكن أكثر من ذلك، سقيفة دون وصلات جانبية، يهب الحماية أكثر قليلاً من لو كان نائماً فى الهواء الطلق(*)، وهى طريقة شعرية يستخدمها الفرنسيون ليقولوا فى رطوبة الليل، وهى أيضاً كلمة غير ملائمة، حيث إن رطوبة الليل ليست إلا هواءً ليلياً، ندى، صقيعاً، تصرفات طقس صبيانية إن قارناها بعواصف الثلج

(*) بالفرنسية فى الأصل. (المترجم).

الألبية التى بررت تسمية الثلج المغطى، السرير شبه المميت. تركوا له هناك ثلاث جعبات غذاء لإشباع شهية سليمان، وجبتى النهار ووجبة الليل، فهو نازع إليها مثل أى كائن بشرى . وبالنسبة إلى الفيّال، فقد كان محظوظاً عند توزيع البيات، فاستفاد بمرتبة رحيمة من القش فى الأرض وكوفرتة ليست أقل رحمة كانت قوة تدفئتها تصل حتى فوق معطفه، رغم أنه كان مبللاً بعض الشىء . فى غرفة العائلة المضيفة كان هناك ثلاثة أسرّة، إحداها للأب والأم، وثانيها لثلاثة أولاد ذكور، وثالثها لجدة سبعينية وخادمتين . والمقابل الوحيد الذى طلبوه من فريتس كان حكى حكايات عن الفيلة، وهو ما استقبله الفيّال بقبول حسن، بادئاً بأفضل حكاية(*)، بمعنى ميلاد جانيش، ومنتهياً بأحدثها، وهى فى رأيه الصعود البطولى إلى جبال الألب التى نعتقد أننا رويناها بشكل كافٍ.

كان ذلك عندما قال الأب من سريره، بينما كان يستمع لشخير زوجته، إن الجنرال القرطاجى الشهير هانيبال وجيشه من الرجال والفيلة الإفريقية التى ضايقت كثيراً جنود روما فى النهاية ـ رغم أنها حسب الروايات الحديثة ـ لم تكن فيلة إفريقية هذه، بآذان كبيرة وجسد ضخم، وإنما هى فيلة تُدعى فيلة غابات، ليست أكبر بكثير من الجياد، قد ساروا تقريباً من هذه الأماكن بجبال الألب بعد عبورهم جبال البرانس، حسب حكايات غارقة فى القدم وأساطير أتت على

(*) بالفرنسية فى الأصل. (المترجم).

أثرها. قطع ثلجية، نعم، كانت من تلك الأزمنة، أضاف، وحينئذ لم تكن هناك طرق. يبدو أنه لا يروق لك الرومان، ألح فريتس. الحق أننا هنا نمساويون أكثر منا إيطاليين، وبالألمانية مدينتنا تسمى بوزن. يروق لى أكثر اسم بولزانو، قال الفيّال، فنغمته أفضل فى الأذن . ربما لأنك برتغالى. مجيئى من البرتغال لا يعنى أننى برتغالى. إذًا من أين تكون سيادتك، إن سمحت لى بالسؤال. ولدتُ فى الهند وأنا فيّال. فيّال. نعم يا سيدى، فيّال هو الاسم الذى يطلقونه على من يسوق الفيلة . فى هذه الحالة، ربما أحضر الجنرال القرطاجى أيضاً فيّالين معه فى جيشه. قد لا يحمل فيلة إلى أى مكان دون وجود من يقودها. لقد حملها إلى الحرب. إلى حرب بين البشر. لو فكّرنا جيداً، لا توجد حروب أخرى . كان الإنسان فيلسوفاً.

فى الصباح مبكراً ـ بعد استعادة القوة، وبمعدة شبه راضية ـ شكرهم فريتس على الاستضافة وذهب ليرى إن كان لا يزال لديه فيل ليرعاه. كان قد رأى فى المنام أن سليمان خرج من بولزانو فى صمت الليل ويتجول الجبال والوديان المحيطة، مسيطراً عليه نوع من السُكّر لا يمكن أن يكون إلا من تأثير الثلج، مع أن البيبليوجرافيا المعروفة حول المادة، إن استثنينا نكبات حرب هانيبال فى جبال الألب، اقتصرت فى الأزمنة الأخيرة على تسجيل السيقان والأذرع الممزقة لعشاق التزحلق على الجليد، وبرتابة مرهقة . كانت أزمنة

سعيدة تلك التى كان فيها يسقط الشخص من أعلى نقطة بجبل لينتهى مسحوقاً، ألف متر فى الأسفل، فى قاع وادٍ مزروع بضلوع وعظام ساق وجماجم مغامرين آخرين تعساء الطالع أمثاله . هذه، نعم، كانت حياة. كان فى الميدان عدة فرسان مجتمعين، بعضهم يمتطى فرسه والبعض الآخر لا، ومن كان ينقص منهم كان يمضى مقترباً . كانت السماء تثلج، لكن قليلاً. ومخلصاً لعاداته الفضولية من أجل الحاجة، ولأن لا أحد يخبره رأساً، توجه ليسأل الجاويش أى أخبار جاءت . لم يحتاج أن يقول شيئاً أكثر من صباح الخير وبأدب لأن العسكرى، عارفاً مسبقاً ما يريده، نقل إليه الأخبار، سنذهب إلى بريسسانونى، أو بريكسن، كما يقولون بالألمانية، سيكون السفر اليوم قصيراً، قد لا يصل إلى عشرة فراسخ . وبعد وقفة تهدف خلق آمال، أضاف الجاويش، يبدو لى أنه فى بريكسن ستكون لدينا عدة أيام للراحة، فكم نحن فى حاجة لذلك . أتحدث عن رأيى، سليمان يضع بالكاد رجلاً أمام أخرى، فهذا ليس طقساً بالنسبة إليه، سنرى إن أصابه التهاب فى الرئة، وبعدها أريد أن أرى ما سيفعله سموه مع عظام المسكين . كل المشكلات ستُحل، فحتى الآن كل شىء يسير على ما يرام، قال الجاويش . لم يجد فريتس مخرجاً سوى الموافقة وانصرف بحثاً عن الفيل . وجده فى السقيفة، هادئاً فى ظاهره، لكن الفيّال، الخاضع لتأثير الحلم المزعج للآن، بدا له أنه يدارى، كما لو هاجر من بولزانو

حقيقة فى منتصف الليل ليتنزه بين الثلج، ربما حتى وصل للقمم الأكثر علواً، حيث يُقال إنها خالدة. لم يجد فى الأرض أقل أثرًا للغذاء الذى تركه له، ولا حتى عينة تبن، وهو على الأقل ما كان يسمح بتمنى ألا يشرع الحيوان فى البكاء كما يفعل الأطفال الصغار، مع أن الفيل، وهو أمر قليل ما يُعرَف بشكل عام، نوع آخر من الأطفال، إن لم يكن فى البدن، فعلى الأقل فى نقصان العقل. فى الواقع، لا ندرى فيما يفكر الفيل، كذلك لا نعرف ما يفكر فيه الطفل، إلا ما يريد هو أن يفهمنا إياه، بعدها، مبدئياً، لا شىء يجب أن نضع فيه ثقتنا . قام فريتس بإيماءة تُعنى أنه يريد أن يصعد الفيل، متسرعاً وبكل انطباع من يرغب أن يُغفر له شقاوة ما، قدّم له نابه كمسند لقدمه، كما لو أنه رِكاب، ولفه من خصره بزلومته، كذراع . وبدفعة واحدة رفعه حتى رقبته، حيث تركه مستقراً براحة. نظر فريتس للخلف، وعلى عكس ما كان ينتظر، لم ير أى أثر للثلج فى الأجزاء الخلفية . كان هناك سر من الممكن ألا يمتلك فك شفرته . إما أن الفيلة كلها أو أن هذا الفيل بشكل خاص مزود بنظام ضبط ذاتى حرارى قادر بشكل وقتى، بعد تركيز عقلى ضرورى، على إذابة طبقة ثلجية ذات سمك معقول، أو أن مجهود صعود جبال والهبوط منها بحركة سريعة أزال هذا الثلج من فوق الجلد رغم كمية الشعر المتاهية التى عمل فيها فريتس لوقت طويل . بعض أسرار الطبيعة تبدو بالنظرة المجردة غير قابلة للاختراق

وربما تنصح الحيطة أن نتركها هكذا، كيلا نتوصل بالمعرفة المكتسبة بجهالة لنصف الحقيقة . انظر، مثلاً، إلى نتيجة أكل آدم فى الجنة لما كان يبدو تفاحة سوقية. فربما كانت هذه الثمرة على وجه الخصوص من أعمال الرب اللذيذة، لكن هناك من يؤكد أنها لم تكن تفاحة، بل كانت، نعم، شريحة بطيخ، رغم أن هذه البذور، على أية حال، كانت مبذورة بيد الشيطان. وما زاد الطين بلة أنها سوداء.

وقفت عربة الأرشيدوق وحرمه فى انتظار المسافرَين النبلاء، اللامعين، الجليلين. وسار فريتس بالفيل صوب المكان المحجوز له فى الموكب، نقصد، خلف العربة، لكن على مسافة حذرة، حتى لا يغضب الأرشيدوق من جيرة نصّاب، دون أن يصل للمفهوم الكلاسيكى للنصب ببيع قط بدلاً من أرنب، استطاع أن يستميل الصُلع التعساء، بمن فيهم حتى أكثر الفرسان المدرعين بسالة، بوعد امتلاك شعر غزير يشبه شعر شمشون الأسطورى والبائس. كان انشغاله الذهنى عبثياً، لأن الأرشيدوق ببساطة لم ينظر خلفه، وعلى ما يبدو كانت لديه أشياء أخرى يفكر فيها، كان يود الوصول إلى بريسسانونى فى ضوء النهار وكانوا متأخرين . أرسل المساعد الميدانى ليحمل أوامره إلى صدر القافلة، والتى يمكن تلخيصها فى ثلاث كلمات مترادفات بشكل فعلى، سرعة، عجل، خفة حركة، متجنبين دوماً، بالطبع، آثار التعويق الناجمة عن الثلج الذى كان قد بدأ فى النزول بقوة أكبر، وحالة الطريق

كذلك، السيئة بشكل عام والأسوأ اليوم . ستكون فقط عشرة فراسخ، أفاد الجاويش الخدوم، لكن لو كانت العشرة فراسخ، حسب الحسابات الحالية، خمسين ألف متر، أو عشرات الآلاف من خطوات القدماء، وعن هذا فالحسابات هى الحسابات، لا يمكن الهروب من ذلك، فهؤلاء الناس وتلك الحيوانات الذين شدوا الرحال فى التو من أجل يوم عسير سيضطرون للمعاناة، بخاصة هؤلاء الذين لا يتمتعون بسقف، وهم الأغلبية . ما أجمل الثلج عند رؤيته من خلف النافذة، قالت ماريا، حرم الأرشيدوق، بكل سذاجة لزوجها الأرشيدوق ماكسيميليانو، لكن بالخارج، بعيون أصابها العمى من العواصف الثلجية وبأحذية مبللة، وبأصابع أقدام وأياد متشققة ومضطرمة مثل نار جهنم، هذه لحظة توجيه سؤال للسماء ماذا فعلنا نحن لنستحق هذا العقاب. وكما كتب الشاعر، أشجار الصنوبر تسأل جيداً، لكن السماء لا تجيبها. كذلك لا تجيب الرجال، رغم أن هؤلاء، فى أغلبهم، يعرفون من صغرهم الصلوات المحددة، المشكلة تكمن فى اختيار اللغة الصحيحة التى يستطيع الرب أن يفهمها. البرد أيضاً، عندما يولد، فمن أجل الجميع، كما يُقال، لكن الجميع لا يتلقى فى ظهره النسبة نفسها. هناك فرق بين السفر فى عربة مبطنة بفراء وبطاطين بالترموستات وبين أن تضطر للسير تحت سوط الثلج على قدميك أو بقدمين مربوطتين فى ركاب مثلج يقمع مثل بكرة خيط . ما أفادهم فى شىء كانت

المعلومة التى مررها الجاويش إلى فريتس عن احتمالية نيل راحة كبيرة فى بريسسانونى، فانتشرت مثل نسمة ربيعية فى القافلة بأسرها، مع أن المتشائمين، فرادى وجماعات، كانوا يذكّرون النسّائين بمخاطر عبور بحر إيساركو، حتى لا يتحدثوا إلى الآن عن شىء أسوأ بكثير سيأتى فيما بعد، إنه بحر برينر، فى الأراضى النمساوية. تجرأ هانيبال على التقدم عبرها وربما لم نضطر لانتظار موقعة كناى العظمى لنحضر، فى سينما الحى، الهزيمة الأخيرة والنهائية للجيش القرطاجى على يد إسثيبيون الإفريقى، فى فيلم أنتجه الابن الأكبر لبينيتو، فيتوريو موسولينى.

فوق رقبة سليمان، محتملاً كلية فى وجهه عذاب الثلج الذى تقذفه العاصفة الثلجية بلا توقف، لم يكن فريتس فى أفضل أوضاعه ليعد ويطور أفكاراً رفيعة. ومع ذلك، ظل رأسه يدور ليكتشف طريقة يحسّن بها علاقاته مع الأرشيدوق، الذى لم ينصرف عنه بالكلام فقط بل أيضاً بالنظر . بدأ الأمر مستقراً فى بلد الوليد، لكن سليمان ـ المصاب بإسهال فى الطريق حتى روساس، قد سبب أذى جاداً لحالة الانسجام النبيلة لطبقات اجتماعية يبتعد بعضها عن البعض الآخر ابتعاد الفيّالة عن الأرشيدوقات. قد يمكن نسيان كل هذا بعزيمة قوية، لكن جريمته، جريمة سوبهرو أو فريتس، أو أياً كان الاسم الملعون، هذا الهذيان الذى جعله يود الثراء بطرق غير مشروعة

ومذمومة أخلاقيًا، قضت على أى أمل لإصلاح الاحترام شبه الأخوى الذى قرّب فى لحظة سحرية بين إمبراطور النمسا القادم وقائد الفيلة المتواضع . المتشككون محقون عندما يؤكدون أن تاريخ الإنسانية سلسلة غير متناهية من الفرص الضائعة. ولحسن الطالع، وبفضل سخاء الخيال الذى لا ينضب، سنسد الخلل، مالئين الثغرات بأفضل ما يمكننا، فاتحين معابر فى الحارات المسدودة والتى ستظل مسدودة، مخترعين مفاتيح لفتح أبواب صارت بلا أقفال أو لم تكن بأقفال ذات يوم . هذا هو ما يفعله فريتس فى هذه اللحظة التى فيها يطأ سليمان، رافعاً رجليه بصعوبة، واحدة تلو الأخرى، الأخرى تلو الأولى، الثلج الذى لا يزال مكوماً فى الطريق، بينما الماء الصافى المكوّنة منه بكل مكر صار أكثر تزحلقاً من الثلوج . شاعراً بالمرارة، يفكّر فريتس أن فعلة بطولية من جانبه قد تعيد إليه تسامح الأرشيدوق، لكن رغم دوران الأفكار برأسه، لم يعثر بشكل كافٍ على فكرة عظيمة ليجذب بها، حتى ولو للحظة واحدة، نظرة راضية من سموه . يجرى ذلك عندما يتخيل أن محور العربة، الذى انكسر من قبل، قد ينكسر مرة أخرى، وأن باب العربة المخلوع كنتيجة لاختلال التوازن المفاجئ، يؤدى لسقوط حرم الأرشيدوق بلا حماية، متزحلقة فوق تنانيرها المتعددة عبر منحدر ليس شديد العلو، فلا تستطيع أن تتوقف سوى فى عمق الهُوّة، سالمة بخير. حينئذ تأتى ساعة الفيّال فريتس،

وبضربة شديدة من عصاه، الشبيهة بالمقود فى وظيفته، يجعل سليمان يسير صوب حافة الهوة وينزل برسوخ وبأمن حيث تقبع ابنة كارلوس الخامس، شبه دائخة . بعض الفرسان المدرعين كانوا يستعدون للنزول كذلك، لكن الأرشيدوق أوقفهم، كفوا عن ذلك، سننظر كيف يُخلع الحذاء . وقبل أن يتم عبارته، كانت حرمه مرفوعة بزلومة الفيل، لتجلس بين ساقى فريتس المنفرجتين، فى قرب جسدى ربما يتسبب، فى ظروف أخرى، فى فضيحة كبرى. قد تصير هى ملكة البرتغال وعلينا أن نعترف بالطبع. من أعلى، كان الفرسان وبقية رجال القافلة يصفقون بحماس للإنقاذ البطولى، بينما الفيل، الذى كان يبدو مدركاً لفعلته، يصعد العقبة بخطوته وبرسوخ متجدد. عندما وصلوا إلى الطريق، استقبل الأرشيدوق زوجته بعناق، رافعاً رأسه لينظر للفيّال وجهاً لوجه، قال بالإسبانية، رائع جداً يا فريتس، شكراً. إن لم يكن كل ما وصفناه هنا ثمرة مريضة لخيال مذنب، ربما انفجرت روح فريتس فى مكانه من السعادة، مفترضاً أن هذه الظاهرة من الممكن أن تحدث فى شىء أقل من روح صافية. الواقع كان يظهره كما هو، مائلاً فوق فيله، شبه مختف تحت الثلج، صورة حزينة لمنتصر مهزوم، مبرهنة مرة أخرى أن الحصن بجانب صخرة طربيا، ففى الأولى يتوجونك بإكليل الغار، وفى الثانية يدفعونك إلى حيث ستترك عظامك البائسة، مُبَخَراً من المجد، فاقداً شرفك . لم يُكسَر محور العربة، وحرم الأرشيدوق تنام

فى سكينة على كتف زوجها، دون أن ترتاب فى أن ينقذها فيل ولا أن ينفعها فيّال قادم من البرتغال ليخدمها كأداة من أدوات العناية الإلهية. ومع كل النقد الموجه إليه، إلا أن العالم يكشف كل يوم طرقاً يعمل بها بالخير والشر على حد سواء، واسمح لنا بهذا الثناء الصغير على الثقافة الفرنسية، والدليل أن الأشياء الجميلة لا تحدث من تلقاء نفسها فى الواقع، فالخيال يساعدنا فى وضع التركيبة المتوازنة للوحة. الحق أن الفيّال لم ينقذ زوجة الأرشيدوق، لكنه ربما فعل ذلك، حيث إنه تخيله، وهذا هو ما يُحكى. ورغم ذلك، رأى نفسه عائداً بلا شفقة إلى عزلته وإلى اصطكاك الأسنان من البرد والثلج، ففريتس، بفضل بعض القناعات الحتمية التى يحتفظ بها بداخله منذ زمن، نقصد أدخلها فى رأسه فى لشبونة، يعتقد أنه إن كان مكتوباً فى كتاب القدر سلفاً أن الأرشيدوق سيتصالح معه، فهذه اللحظة قادمة لا محالة. بهذا اليقين الثابت هجر اهتزازات خُطى سليمان، القابع وحده فى المنظر؛ لأن الجزء الخلفى من العربة بدأ يختفى مرة أخرى بسبب الثلج النازل. كانت الرؤية القليلة تسمح له بتمييز أن يضع أرجله، لكنه لا يدرى أن ستسوقه. بينما كان شكل الجبال يتعدّل بشدة، أولاً بطريقة يمكن أن نقول عنها متحفظة، رقيقة، شبه مموجة صرف، تجعلنا نفكّر، كما لو أن الجبال قد شرعت فى عملية تكسّر مرعبة لتشكّل أشكالاً هندسية . كانت عشرين فرسخاً كافية لاجتياز سلسلة

الجبال المستديرة، التى كانت كتلال مزيفة، إلى اضطراب الكتل الصخرية المريكة، الممزقة إلى شعاب، القائمة فى شكل مناقير تتدرج نحو السماء وقتها، من حين لآخر، حيث يتدفق حاجز مائى إلى أسفل، فى شكل كتل ثلجية سريعة، تشكّل مناظر جديدة وستارات جديدة لمتعة مستقبلية من أجل عشاق التزلج على الجليد. وحسب ما يُرى، نقترب من معبر إيساركو، الذى يطلق عليه النمساويون اسم إيساك . ما زال السير ضرورياً على الأقل ساعة أخرى للوصول إلى هناك، لكن بسبب تضاؤل صنعته اليد الإلهية لستارة الثلج الكثيفة، يُسمح لنا برؤية ما هو بعيد، وخلال لحظة، ظهر قطع رأسى فى الجبل، إنه الإيساركو، قال الفيّال. وهكذا كان . هناك شىء يصعب فهمه، وهو أن الأرشيدوق ماكسيميليانو قد قرّر القيام برحلة العودة فى هذه الفترة من العام، لكن التاريخ دوّنه هكذا كحدث موثق لا يمكن الجدال فيه، وصدّق على ذلك المؤرخون، وأكدّه الروائى، الذى يجب أن تلتمس له العذر فى بعض حرياته باسم ليس فقط حق الإبداع بل أيضاً ملء الفراغات على وجه الخصوص حتى لا يصل إلى فقد التماسك المقدس للحكاية بشكل كلى. فى داخلنا، علينا أن نعترف أن الحكاية ليست نقية، ولا مميزة، فهى تأخذ من الحياة ما يهمها كمادة مقبولة اجتماعياً وتاريخياً، وتحتقر البقية، بالتحديد حيث يكمن، ربما، التفسير الحقيقى للأحداث، والأشياء، والواقع العاهر. سأقولها لكم حقيقة، حقيقة

أقول لكم إنه أهم من أن نكون روائيين هو أن نكون خياليين، كذّابين . أو فيّالين، رغم أننا نميل إلى الفنتازيا غير المعقولة، بسبب الأصل أو المهنة. ورغم أن فريتس يبدو بلا وسيلة سوى أن يقوده سليمان، علينا أن نعترف أن هذه الحكاية التعليمية التى نرويها ما كانت لتصير هكذا لو كان للفيل قائد آخر. حتى الآن، كان فريتس شخصية حاسمة فى كل لحظات الحكاية، الدرامية منها والكوميدية، معرضاً نفسه للخطر بدور البهلوان كلما رأى ذلك مناسباً لرشاقة السرد، أو منصوحاً به للتقنية، محتملاً المهانات دون أن يرفع صوته، دون أن يهرب تعبير ناقم من وجهه، حريصاً على الدوام ألا يفقد دوره، فلو لم يكن هو، ما وجدنا من يحمل الرسالة إلى جارثيا، نقصد من يقود الفيل إلى فيينا. ربما تعتبر هذه ملاحظات غير ضرورية لقراء مهتمين بديناميكية النص، وهى ملاحظات تطمح أن تكون تضامنية، وبشكل ما مسكونية، لكن فريتس ـ كما رأينا ـ بعد أن فقد همته جرّاء الأحداث الكارثية الأخيرة، كان يحتاج إلى يد صديقة توضع على كتفه، وهذا ما فعلناه، وضعنا يدنا على كتفه . عندما يشرد العقل، عندما تلفحنا أجنحة الهذيان، لا ننتبه للمسافات التى قطعناها، بخاصة لو كانت الأقدام التى تحملنا ليست أقدامنا. مستثنين بعض الندفات الشاردة التى فقدت فى الطريق، يمكننا أن نقول إنها توقفت عن الثلج. والحقيقة الواضحة الكامنة أمام أعيننا هى معبر إيساركو الشهير. فى

جانب والجانب الآخر، رأسية بشكل فعلى، تبدو جدران الشعاب على وشك التفتت تدريجياً فوق الطريق. انقبض قلب فريتس من الخوف، ووصل إلى عظمه برد يختلف عن كل برد عرفه حتى الآن. كان وحيداً أمام الرعب الذى يحيط به، وأوامر الأرشيدوق، تلك الأوامر الصارمة التى كانت تحدد أن القافلة يجب أن تحتفظ بوحدتها وتماسكها كضمان أوحد للأمان، كما يفعل متسلقو الجبال الذين يربطون بعضهم البعض بحبال، كانت متجاهلة ببساطة. هناك مثل، يمكن أن نسميه قولاً مأثوراً، يقال بالبرتغالية والهندية وهو قول عالمى، يلخص بطريقة رشيقة وبلاغية مواقف مثل هذه، عندما ينصحك أن تفعل حتماً ما أقوله لك، لا يعنى ذلك أن تفعل ما أفعله أنا. هذا ما حدث للأرشيدوق، كان قد أمر، فلنحتفظ بوحدتنا، لكن، عندما حانت الفرصة، وبدلاً من الاستمرار هناك ـ كما كان يتبارى ـ فى انتظار الفيل وفيّاله القادمين فى الخلف، لكونه فضلاً عن ذلك مالك الأول وسيد الثانى، بالمعنى المجازى، همز الجواد، وأنا ومن بعدى الطوفان لأنى أحبكم، وأحقية عبور مصب المعبر الخطير قبل أن يتأخر الوقت ويحل الليل. تخيلوا الآن أن طليعة الفرسان المدرعين كانت قد دخلت فى الشعاب وهناك بقوا منتظرين، تخيلوا أنه قد بقى منتظرين كذلك كل من كان يصل خلفهم، الأرشيدوق وحرمه، الفيل سليمان والفيّال فريتس، عربة التموين، وأخيراً بقية الفرسان المدرعين الذين يغلقون المسيرة،

وكذلك العربات الفاصلة، المحمّلة بالخزانات والصناديق الصغيرة والكبيرة، وحشد من الخدم، كلهم مجتمعون بشكل أخوى، فى انتظار العثور على منحدر فى الجبل أو أن يكفهم جميعاً تيار جليدى جارف لم يشهدوا له مثيلاً من قبل، قاطعاً الشعاب حتى الربيع . الأنانية، وهى بشكل عام أكثر السلوكيات السلبية والمستنكرة فى الفصيلة البشرية، ربما يكون لها فى بعض الظروف أسبابها الوجيهة. عندما ننقذ جلدنا الثرى، هاربين سريعاً من المصيدة المميتة التى قد نجدها فى معبر إيساركو، ننقذ أيضاً جلد رفاق رحلتنا، الذين، عند وصول دورهم فى العبور، يمكنهم أن يواصلوا المسيرة دون أن يقمعهم الازدحام المرورى المزعج، بعدها، والنتيجة يمكن استخلاصها بكل سهولة، لينظر كل واحد إلى نفسه من أجل أن ننال جميعاً النجاة. من يستطيع أن يقول إن الأخلاق ليست دائماً ما تبدو وإنها قد تكون أخلاقاً أكثر فاعلية عندما تظهر أكثر تناقضاً لنفسها. أمام هذه البراهين الشفافة، ومتحفزاً بالقذيفة المفاجئة لكتلة ثلجية، حدثت على بعد مائة متر خلفه، ولا نطمح فى تسميتها تيارًا جارفًا، لكنها كانت أكثر من كافية لبث الرعب فى الجوانح، أعطى فريتس إشارة لسليمان ليسير، هيا، هيا. بدت الإشارة قليلة لسليمان. أفضل من الخطوة البسيطة، الموقف، لأنه من الممكن أن يكون شديد الخطورة، كان يطلب خبباً، أو، الأفضل فى هذا الوضع، عدواً يضعه سريعاً فى منأى عن تهديدات

الإيساركو . كان سريعاً بالتالى، مثل سان أنطونيو عندما استخدم البعد الرابع ليذهب إلى لشبونة لنجدة الأب من المشنقة. السيئ فى الأمر أن سليمان كان قد أساء استخدام قوته بشكل مفرط . لاهثاً، بعد أمتار قليلة من تركه مدخل الفج خلفه، انهارت رجلاه الأماميتان واتجهت ركبتاه إلى الأرض. مع ذلك كان الفيّال محظوظاً. فالشىء الطبيعى أن تجعله الصدمة يقفز بشدة لمقدمة رأس المطية التعيسة. يعلم الرب وحده أى عواقب مشئومة كانت ستحدث، لكن ذاكرة الفيل المضاءة جعلت سليمان يتذكر ما قد حدث مع قس القرية الذى كان يطمح إلى رقيته، عندما، فى اللحظة الأخيرة، فى الثانية الأخيرة، استطاع أن يمتص الصدمة التى فاجأته بصدفة مميتة. الفارق فى الحالة الحالية هو أن سليمان كان لا يزال يستطيع اللجوء إلى طاقته القليلة المتبقية ليقلل سرعة سقوطه الخاص، متحكماً فى ركبتيه السميكتين لتلامس الأرض بخفة مكعب ثلج. كيف تمكن من ذلك، لا أحد يعرف، وليست شيئاً يمكن سؤاله عنه. للفيلة أيضاً أسرارها، مثل المشعوذين. وبين الحديث والصمت، الفيل سيفضل الصمت دائماً، لهذا قد تنمو زلومته كثيراً، فضلاً عن نقل جذوع الشجر والعمل كمصعد للفيّال يتميز أيضاً بتمثيل عائق جاد لأية ثرثرة طليقة. بكل حيطة، أفهم فريتس سليمان أنه حان وقت بذل مجهود صغير لينهض. لم يأمر، لم يلجأ إلى قاموسه المتنوع فى ضرباته بالعكاز، ضربات بعضها أشد عنفاً

من بعضها الآخر، فقط أفهمه، وهو ما يبرهن مرة أخرى أن احترام مشاعر الغير هى أفضل وسيلة لحياة مزدهرة وسعيدة من العلاقات والعواطف. هو الفارق بين قول انهض، بشكل حاسم، و إن نهضت، بشكل يحتمل الريب. وهناك من يثبت أن هذه الجملة الثانية، وليست الأولى، هى ما فضلها يسوغ حقيقة، وهى دليل داحض على أن البعث كان يتوقف على لاثارو تحديداً وليس على القدرات الإعجازية للناصرى، مهما بلغ سموها. إن بُعث لاثارو فذلك لأنهم حدثوه بطريقة لبقة، غاية فى البساطة مثل هذا. ومازال النهج يأتى ثماره كما رأينا، فعندما استند سليمان على رجله اليمنى، فرجله اليسرى، أعاد إلى فريتس الأمان النسبى بهزة رأسية، هو من استطاع فقط حتى الآن أن يقدّر مقاومة عدة شعرات من رقبة الفيل حتى لا يرى نفسه ملقياً بضربة من الزلومة. ها نحن نرى الآن سليمان راسخاً فوق أرجله الأربعة، متحمساً بشكل مفاجئ لوصول عربة التموين التى، بعد اجتياز الكم الهائل من الثلج المشار إليه سلفاً بكفاح مجهد من قبل زوجى الثيران، كانت تتقدم بحماس نحو الخروج من الفج إلى شهية الفيل النهمة. كانت روحه شبه المنهكة تتلقى الآن الجائزة على بطولة جعل الحياة تعود إلى جسده الخائر، العاجز عن النهوض من جديد، فى وسط المنظر الأبيض والوحشى. هناك وضعوا المائدة، وبينما كان فريتس وراعى الثيران يحتفلون بالنجاة ببعض جرعات

من العرق الذى يمتلكه الراعى، كان سليمان يلتهم جعبة وراء أخرى بحماس ليّن. كان ينقص فقط أن تزدهر أزهار الثلج وأن تأتى عصافير الربيع إلى تيرول لتنشد زغروداتها العذبة. لا يمكن امتلاك كل شىء. من العجب، لو ضاعفنا ذكاء كل منهما، أن يجد فريتس وراعى البقر حلاً لميلهما الشاغل نحو الانفصال عن العناصر المختلفة للقافلة كما لو لم يربط بينهم أى شىء. فلنقل إنه كان حلاً السير بالبيت، لكن دون شك نذير بطريقة مختلفة فى تناول المشكلات، بمعنى، حتى ولو كان الهدف خدمة مصالحى الشخصية، فمن المناسب دوماً الاعتماد على الطرف الآخر. فى كلمة واحدة، حلول مكمّلة . بداية من الآن ستسافر الشيران والفيل معاً بشكل لا مفر منه، وعربة التموين فى الأمام، والفيل فى الخلف، كما لو نتحدث عن رائحة التبن. ولمزيد من المنطق والعقل الذى يقدم التوزيع الطوبوغرافى لهذه المجموعة القليلة، وهو الأمر الذى لن يتجرأ أحد على رفضه، لا شىء مما تحقق هنا بفضل إرادة الوصول المتعمدة إلى اتفاق، سيمكن أن يطبق على الأرشيدوق وحرمه خصوصاً، فعربتهما تسير فى مقدمة الجميع، حتى ولو كانوا قد استطاعوا الوصول إلى بريسسانونى. لو حدث هذا، فمسموح لنا أن نكشف أن سليمان سيتمتع براحة مستحقة لمدة أسبوعين فى هذه الضيعة السياحية الشهيرة، بالتحديد فى نزل يطلق عليه am hohen feld وهو ما يعنى الأرض المرتفعة، وليس

هناك أفضل من ذلك. من الطبيعى أن يبدو غريباً أن نجد نزلاً فى الأرض الإيطالية باسم ألمانى، لكن للأمر شرحاً إن تذكرنا أن أغلب الضيوف القادمين إلى هنا هم بالتحديد نمساويون وألمان يروق لهم أن يشعروا أنهم فى بيتهم. ولأسباب شبيهة سيحدث ذات يوم، فى الجرابى، بما أن الواحد يهتم بكتابته، سيسمى كل شاطئ محترم باسم بيتش، وأى صائد سمك فيشر مان، سواء راق له ذلك أم لا، وعن التجمعات السياحية، بدلاً من قرى، لنعرف أن الكلمة الأكثر عادية ستكون holiday's vil lage أو قرية إجازات، أو قرى سياحية . ومع الوقت لن توجد كلمة لتعبر عن محل الموضات؛ لأنها بنوع من البرتغالية السهلة ستكون boutique وبالضرورة fashi on shop بالإنجليزية، وأقل ضرورية modeبالفرنسية، وصراحة modegescháft بالألمانية. وستُقدَم صناعة الأحذية على أنها shoes ولن نزيد فى الحديث عن الأمر . وإن استطاع المسافر أن يبحث، مثل من يمشط، عن أسماء بارات وbuates عندما يصل إلى حرف السين سيكون لا يزال فى الحروف الأولى للأبجدية . وسيكون محتقراً فى المنظمة البرتغالية أن يقولوا عن الجرابى، فى هذه الفترات التى فيها يهبط المدنيون حتى البرابرة، إن أرض البرتغالية كما هى صارت خرساء. هكذا هى بريسسانونى .

يُقال ـ بعد ما قاله تولستوى ـ إن العائلات السعيدة بلا تاريخ . يبدو أن الفيلة السعيدة كذلك. وانظر إلى حالة سليمان. خلال الأسبوعين اللذين مكث فيهما فى بريسسانونى ارتاح وأكل وشرب ببذخ، حتى قال كفى، أكل ما يقارب أربعة أطنان من الغذاء وشرب ثلاثة آلاف لتر من الماء، وبهذا استطاع أن يعوض الرجيم القاسى والطويل الذى خضع إليه خلال رحلته الطويلة بأراضى البرتغال وإسبانيا وإيطاليا، عندما لم يكن ممكناً تقديم الغذاء إليه بشكل منتظم. والآن، استعاد سليمان قوته، فصار شبعاً، جميلاً، وبعد أسبوع كف جلده الرخو والمجعد عن عمل تعرجات مثل معطف معلق فى مسمار. وصلت الأخبار السارة إلى الأرشيدوق، الذى لم يتأخر فى عمل زيارة إلى بيت الفيل، بمعنى، إلى إسطبله الخاص، بدلاً من أن يأمره بالخروج إلى الساحة، ليعرض أمام السلطة الأرشيدوقية والسكان المجتمعين الصورة الرائعة، المنظر الساحر، الذى صار عليه الآن . وكما هو طبيعى، كان فريتس حاضراً المشهد، لكنه،

مدركاً أن السلام مع الأرشيدوق لم يصبح رسمياً بعد، هذا إن وصل ذات مرة ليكون كذلك، بدا متحفظاً ومنتبهاً، دون أن يلفت الانتباه كثيراً، لكنه تمنى أن يلقى الأرشيدوق عليه، على الأقل، كلمة تهنئة، جملة إطراء. وهذا ما حدث. فى نهاية الزيارة، وجه إليه الأرشيدوق نظرة عابرة وقال له، أحسنتَ صنعاً يا فريتس، ولابد أن سليمان يشعر بالرضا، فكان الرد، لا أرغب شيئاً آخر يا سيدى، فحياتى فى خدمة سموكم. لم يجب الأرشيدوق، واقتصر على الغمغمة، مقتضباً، أوووم، أوووم، وهو صوت بدائى، إن لم يكن ابتدائيًا، يحاول كل واحد أن يفسره كما يحلو له. لكن فريتس، المستعد دوماً لتناول وجهة نظر متفائلة للأحداث، بسبب مزاجه وفلسفة حياته، فسّر هذه الهمهمة، رغم ظاهرها الجاف ولغتها غير الملائمة من فم أرشيدوقى وغداً سيكون إمبراطوراً، على أنها خطوة، نعم صغيرة لكنها ثابتة، نحو الرضا المشتاق إليه . فلننتظر حتى فيينا لنرى ما يحدث .

المسافة من بريسسانونى حتى مضيق برينير قصيرة جداً لدرجة أن القافلة لن يتاح لها الوقت لتتبعثر يقيناً. لا مسافة ولا وقت. وهو ما سيعنى أننا سنصطدم مرة أخرى وثالثة مع المعضلة الأخلاقية السابقة، معضلة معبر إيساركو، بمعنى، هل سنسير معاً أم متفرقين. فقط يثير الرعب مجرد أن نفكر أن القافلة الممتدة ستستطيع أن تشاهد نفسها، جميعها، بداية من الفرسان المدرعين فى المقدمة حتى فرسان

المؤخرة، كأنهم معلقون بين حوائط المضيق وتحت تهديد العواصف الثلجية أو انهيارات الصخور. ربما سيكون من الأفضل أن نترك حل المشكلة فى يد الرب، فليدبرها هو. نواصل سيرنا، وسنواصل سيرنا، وبعد ذلك سنرى. ومع كل، لا يجب أن ينسينا هذا الانشغال، مهما كان مقنعاً، انشغالاً آخر. يقول العالمون إن مضيق برينير أشد خطورة من مضيق إيساركو عشر مرات، ويقول آخرون عشرين مرة، وإن له كل عام عدداً من الضحايا، يُدفنون تحت التيارات الثلجية أو تسحقهم الحجارة التى تدور لأسفل الجبل، مع أنها فى بداية السقوط لا تبدو أنها تحمل معها هذا القدر المشئوم. يا ليت زمن يأتى يكون فيه بفضل بناية الجسور التى تربط المرتفعات ببعضها تختفى المضايق العميقة التى فيها، مع أننا على قيد الحياة لانزال، نسير نصف مدفونين. المهم فى الأمر أن من يتوجب عليهم استخدام هذه الموانئ يستخدمونها دائماً بنوع من الاستسلام الحتمى الذى، إن لم يتفاد أن يهاجم الخوف أجسادهم، على الأقل يبدو تاركاً أرواحهم غير ملموسة، صافية، مثل ضوء راسخ لا يتمكن أى إعصار من إطفائه. هناك أشياء كثيرة تُحكى وليست كلها حقيقية، لكن الكائن البشرى خُلق بهذه الطريقة، قادر على الإيمان بأن شعر الفيل، بعد عملية نقع، ينبت الشعر، وقادر الطريقة نفسها على تخيل أن بداخله نوراً وحيداً سيقوده فى طرق الحياة، بما فيها المضايق . وبطريقة أو بأخرى، كان حكيم جبال الألب الناسك يقول، الموت دوماً لا مفر منه.

الطقس ردىء فى هذه الفترة من العام، فلا جديد، ولدينا البراهين الغزيرة على ذلك. الحق أن الثلج ينزل دون إفراط والرؤية تعتبر شبه عادية، لكن الريح تنفخ كما الرقائق المسنونة، التى تأتى فتمزق الثياب، مهما بدا أنها تهب الحماية . وليقل ذلك الفرسان المدرعون. وحسب الخبر الذى يجول بالقافلة، إن بدءوا المسيرة اليوم مجدداً فذلك لأن غداً ينتظرون تفاقم الأحوال الجوية، وأيضاً لأنه، بعد أن يقطعوا عدة كيلومترات صوب الشمال، سيبدأ فى المكوث خلفهم أسوأ ما فى جبال الألب خلفهم، فى البداية . أو، بكلمات أخرى، قبل أن يهاجمنا العدو، علينا أن نهاجمه نحن. جزء كبير من سكان بريسسانونى حضر ليشاهد رحيل الأرشيدوق ماكسيميليانو وفيله وكمكافأة حدثت مفاجأة. عندما همّ الأرشيدوق وحرمه بدخول العربة، غرز الفيل ركبتيه فى الأرض المجمّدة، وهو ما رفع بين الحضور عاصفة من التصفيق والهتافات الجديرة بالتدوين على الإطلاق. بدأ الأرشيدوق فى الابتسام، لكنه بعدها عقد حاجبيه، مفكّراً أن هذه المعجزة الجديدة كانت مناورة خائنة من فريتس، اليائس من التصالح . لم يكن الأرشيدوق النبيل محقاً، فحركة الفيل كانت تلقائية بالكامل، وخرجت من روحه، ولنقلها بهذه الطريقة، ربما تكون إحدى طرق الامتنان لهم، لمن يستحقونه بجدارة، هؤلاء الذين استقبلوه بمعاملة حسنة فى ضيعة am hohen feld خلال خمسة عشر

يوماً، أسبوعان من السعادة الحقيقية، وبالتالى، بلا حكاية . على أية حال، لا يجب أن نستثنى احتمالية أن فيلنا، المهموم تحديداً بالبرود الظاهر فى العلاقات بين فيّاله والأرشيدوق، قد أراد أن يسهم بهذه الحركة الرقيقة فى تهدئة النفوس المتنازعة، كما سيقال فى المستقبل ثم يتوقف القول. أو، حتى لا يتهمنا أحد بالتحيز لإهمالنا المفتاح الحقيقى للقضية بشكل فرضى، لا يمكن أن نستثنى فرضية، وهى ليست فرضية أكاديمية بحتة، أن فريتس قد لمس بعصاه عن عمد أو بصدفة بحتة أذن سليمان اليمنى، وهى العضو المحقق للمعجزة ـ على وجه الخصوص ـ كما بُرهِنَ فى بادوا. كما من المفترض أن نعرف، فالتمثيل الأكثر دقة، الأكثر تحديداً، للنفس البشرية هى المتاهة. وداخلها كل شىء ممكن.

القافلة جاهزة للرحيل. هناك شعور عام بالضغط، ضغط لا يمكن تعريفه، يُلاحظ أن الأشخاص لا يستطيعون أن يخرجوا من رءوسهم مضيق برينير ومخاطره . مؤرخ هذه الأحداث ليس لديه تخمة فى الاعتراف بأنه يخشى ألا يكون قادراً على وصف المضيق الشهير الذى ينتظرنا فيما بعد، هو من توجب عليه، عند مضيق إيساركو، أن يخفى عجزه بأفضل ما يمكن، مطنباً بمواد ثانوية، لعلها ذات أهمية فى ذاتها، لكنه هرب بوضوح مما هو جوهرى. من المؤسف أنه فى القرن السادس عشر لم يكن التصوير الفوتوغرافى قد اخترع بعد، لأن الحل حينئذ

كان سيصير فى غاية اليسر، فكان يكفى إدخال بعض صور الفترة هنا، بخاصة لو تم التقاطها من خلال طائرة مروحية، وكان القارئ سيمتلك كل الأسباب ليعتبر نفسه راضياً بشكل واسع وليعترف بالجهد المعلوماتى الهائل لكتابتنا . وبالمناسبة، فقد حان الوقت لنقول إن المدينة الصغيرة القادمة، والواقعة على مسافة قليلة من بريسسانونى، تسمى بالإيطالية، فمازلنا فى إيطاليا، فيبيتينو. وإن كان النمساويون والألمان يسمونها ستيريزنج فهذا أمر يستعصى على فهمنا. مع ذلك، فلنقبل احتمالية أن تصمت الإيطالية فى هذا الجزء أقل مما تصمت البرتغالية فى لوس ألجرابيس، دون أن نلقى الحطب على النار.

لقد خرجنا من بريسسانونى بالفعل. ومن الصعب إدراك أنه فى منطقة مليئة بالحوادث مثل هذه، حيث تكثر سلاسل جبلية مدوّخة يمتطى بعضها بعضاً، كان ضرورياً لا يزال فتق ندبات مينائى الإيساركو وبريننير العميقة، بدلاً من وضعها فى أماكن أخرى بالكوكب أقل تميزاً بخيرات الطبيعة، حيث تستطيع استثنائية الظاهرة الجيولوجية المبهرة ـ بفضل صناعة السياحة ـ أن تفيد بشكل مادى حيوات سكانها المتواضعة والمعانية. وعلى عكس المسموح بالتفكير فيه، واضعين فى الاعتبار المشكلات السردية الظاهرة بصراحة والمتعلقة بعبور الإيساركو، فهذه التعليقات لا تهدف أن تنوب مسبقاً عن ندرة الوصف المنتظرة لمضيق بريننير الذى نحن على وشك الدخول

فيه. وهذا ـ بالضبط ـ هو الاعتراف المتواضع بحقيقة العبارة الشهيرة، تنقصنى الكلمات . وبالفعل، تنقصنا الكلمات . يُقال إنه فى إحدى اللغات التى يتحدثها السكان الأصليون لأمريكا الجنوبية، لعلها فى الأمازون، يوجد أكثر من عشرين تعبيراً، سبعة وعشرون، أعتقد أننى أتذكر، لوصف اللون الأخضر. وبالمقارنة بفقر المفردات فى لغتنا، سيبدو أنه من السهل عليهم وصف الغابات التى يعيشون فيها، فى وسط كل هذه الأخضرات الدقيقة والمختلفة، التى بالكاد يمكن التمييز بينها لرقتها ودرجاتها التى لا يمكن تعلمها تقريباً. لا ندرى إن كانوا قد حاولوا ذلك من قبل وإن بقوا راضين عن النتيجة. ما نعلمه حقاً هو أن أحادية أى لون ـ على سبيل المثال ـ حتى لا نذهب بعيداً، الأبيض الظاهر والمطلق لهذه الجبال، لا يقرر القضية كذلك، ربما لأنه هناك أكثر من عشرين درجة للأبيض لا تستطيع العين إدراكها، لكن وجودها يُشعَر بالحدس. الحقيقة، إن أردنا قبولها بكل قسوتها، أنه ببساطة لا يمكن وصف منظر بالكلمات. أو بقول أفضل، نعم يمكن ذلك، لكن الأمر لا يستحق العناء. أسأل نفسى هل يستحق العناء كتابة كلمة جبل عندما لا نعلم أى اسم يطلقه الجبل على نفسه. مع الرسم الأمر يختلف، فالرسم قادر جداً على إبداع سبع وعشرين درجة من الأخضر الذى هرب من الطبيعة فوق لوحة، وبعضها أكثر من البعض الآخر لا يبدو عليه، وهذا ـ كما يتنافسون ـ ما نطلق عليه فناً. من الأشجار المرسومة لا تسقط أوراق.

ها نحن فى مضيق برينير. وبأمر صريح من الأرشيدوق، يسود صمت مطبق . وعلى عكس ما حدث حتى الآن، لم تُظهر القافلة أى ميل للتتاثر، كما لو أن الخوف قد أنتج أثراً محتشداً، وجوادا عربة الأرشيدوق لا يلمسان بخطمهما تقريباً الأجزاء الخلفية للمطايا الأخيرة للفرسان المدرّعين، وسليمان يسير بالقرب من قارورة الخلاصات العطرية الخاصة بحرم الأرشيدوق التى تستنشق أريجها الممتع كلما شعرت ابنة كارلوس الخامس بحاجتها للانتعاش. بقية القافلة، بدءًا من عربة الثيران التى تحمل المؤن وبرميل الماء، تقتفى الأثر كما لو كانت لا توجد طريقة أخرى للوصول إلى القبلة. يرتجفون من البرد، لكن ارتجافهم من الخوف أشد. وفى وعورة المنحدرات شديدة العلو يتراكم الجليد الذى يذوب من آن لآخر ويتساقط بضجيج خافت فوق القافلة فى عواصف ثلجية صغيرة عاقبتها زيادة الرعب دون أن تسبب مخاطر فى حد ذاتها . لا أحد هنا يشعر بالأمان ليستخدم عينيه فى الاستمتاع بجمال المنظر الطبيعى، رغم عدم نقصان مسافر يمضى قائلاً لجاره، بلا جليد يبقى المنظر أجمل. كيف يبقى المنظر أجمل، يسأله صاحبه الفضولى. لا يمكن الوصف. فى الواقع، أكبر استهانة بالواقع يمكن ارتكابها عندما نكرّس أنفسنا لعمل لا طائل من ورائه بغية وصف منظر طبيعى، أياً كان الواقع، أياً كان ما يريده الواقع أن يكونه، هو تحتم أن نفعل ذلك بكلمات ليست

كلماتنا، ولم تكن أبداً كلماتنا، انظروا، كلمات طافت ملايين الصفحات والأفواه قبل أن يصل دورنا فى استخدامها، كلمات متعبة، منهكة من تنقلها من يد إلى يد وترك جزء من ماهية حياتها فى كل يد . إن كتبنا، على سبيل المثال، كلمتى جدول شفاف، مع كثرة تطبيق العبارة فى وصف المناظر، لا نتوقف لنفكر إن كان الجدول لا يزال شفافاً بالشكل نفسه الذى رأيناه أول مرة، أم أنه كف عن كونه جدولاً ليصير نهراً فياضاً، أم، ملعون هذا الطالع، تحول إلى أكثر المستنقعات بغضاً وخُبث رائحة. ومع أنه لا يبدو من النظرة الأولى، إلا أن كل هذا له علاقة بهذا التأكيد الشجاع، المشار إليه عاليه، بأنه ببساطة لا يمكن وصف منظر طبيعى، وبالإجمال، لا يمكن وصف شىء آخر. وعلى لسان شخص ذى ثقة، وعلى ما يبدو يعرف الأماكن كما تعرض علينا فى فصول العام المختلفة، هذه الكلمات تدفع إلى التفكير. لو أن هذا الشخص، بشرفه ومعرفته المكونة من الخبرة، يقول إنه لا يمكن وصف ما تراه العيون، مترجماً ذلك فى كلمات، جليدا كان أو حقلاً مزهراً، كيف سيمكن التجرؤ على هذا الشخص الذى لم يعبر فى حياته مضيق برينـنير ولا حتى فى أحلامه فى القرن السادس عشر ذاك، عندما كان ينقص طرق وأماكن لتمويل البنزين، بيتسا وفناجين قهوة، فضلاً عن فندق صغير لقضاء ليلة فاخرة، عندما تسود فى الخارج التقلبات الجوية وفيل تائه يطلق أكثر القباعات

إزعاجًا. لسنا هناك، فقط تقودنا المعلومات، ومن يدرى ما يساويه هذا، مثلاً، نقش القديم، لا يُحترم سوى لعمره الطاعن ورسمته الساذجة، يبرز فيلاً من جيش هانيبال متهاوياً من الإنهاك، حينما تكون الحقيقة أنه خلال عبوره المجهد بجبال الألب الذى أنجزه الجيش القرطاجى، على الأقل هذا ما أكده من له باع فى هذه المادة، لم يته أى فيل. هنا أيضاً لن يتوه أحد. مازالت القافلة متماسكة، راسخة، وهى صفات ليست أقل استحقاقاً للإطراء لكونها محددة فى الأساس، كما شرحنا من قبل، بمشاعر أنانية. لكن هناك استثناءات. أكبرهم لدى الفرسان، على سبيل المثال، لا علاقة له بالأمن الشخصى لكل فرد، وبأمن جيادهم نعم، فهى مجبرة الآن على التقدم فوق أرض تزحلق، يغطيها ثلج جاف، رمادى أزرق، حيث أية قطعة بحجم المشط يؤدى لعواقب وخيمة. حتى هذه اللحظة، المعجزة التى فعلها سليمان على أبواب كنيسة سان أنطونيو المعظمة فى بادوا، مهما كان ثقلها على اللوثرية شديدة المراس للأرشيدوق ماكسيميليانو رجل النمسا الثانى، فقد حمت القافلة، ليس فقط ذوى السلطة بها، بل أيضاً عامة الناس، وهو ما يبرهن، إن كانت البرهنة ضرورية إلى الآن، الفضائل الإعجازية النادرة والعظيمة للقديس، فرناندو دى بوليويس، فى العالم، وأن مدينتين، لشبونة وبادوا، تتعاركان منذ قرون، ولتقل بعقيدة جازمة، لأنه من الجلى للجميع أن بادوا من انتهت برفع علم النصر، بينما تحتم على

لشبونة أن ترضى بالمسيرات الشعبية بالأحياء، وبالنبيذ القانى والسردين المشوى على الفحم، فضلاً عن البالونات وأصُص الحَبَق . ولا يكفى معرفة كيف وأين ولد فرناندو دى بوليويس، علينا أن ننتظر لنرى كيف وأين سيموت سان أنطونيو.

ما زالت تثلج، والبرد يسلخ، معذرة على سوقية التعبير . ومن المناسب أن نطأ الأرض بواحدة وألف حيطة بسبب الثلج، لكن، رغم أن الجبال لم تنته، يبدو أن الرئات شرعت فى التنفس بشكل أفضل، كتخفيف آخر، معفية من القمع الغريب الهابط من المرتفعات المسدودة. المدينة القادمة هى انسبراك، على حدود نهر إن، وإن لم يندم الأرشيدوق على الفكرة التى أخبر بها مدير الجيش عندما كانوا لا يزالون فى بريسسانونى، فجزء كبير من المسافة التى تفصلنا عن فيينا سيتم قطعها بمركب، إبحار نهرى، وبالتالى، سيهبطون مع التيار، أولاً بنهر الإن، حتى بسساو، وبعدها بالدانوب، وهما نهران فياضان جداً، بخاصة الدانوب، الذى يسمونه فى النمسا بالدوناو. أكثر من محتمل أن نستمتع فى النهاية بمسيرة هادئة، تشبه فى هدوئها مدة الأسبوعين فى بريسسانونى، حيث لم يحدث شىء جدير بالتدوين، ولا حدث ساخر لنرويه فى عشق المصباح، ولا حكاية أشباح لنقصها على الأحفاد، ولهذا شعر الناس أنهم محظوظون كما جرى لهم فى مرات قليلة جداً، كلهم كانوا فى راحة فى ضيعة am hohen feld العائلة بعيدة، كذلك الهموم

المفترضة، والدائنون يتضاءل ضيق صدرهم، ولا خطاب حرج وقع فى يد غير مناسبة، وفى النهاية، المستقبل، كما كان القدماء يقولون، ويعتقدون، لا ينسب إلا إلى الرب، ونحن علينا الحياة يوماً بيومه، فلا نفس تعرف ماذا تكسب غداً. تغيير طريق السير لم ينجم عن رغبة الأرشيدوق، رغم أن برنامجهم تضمن زيارتى مجاملة، لكن أيضاً عن السياسة الأورومتوسطية العليا، الأولى فى واسيربورج، لدوق برافيرا، والثانية، وهى الأطول، لمدير مطرانية سالزبورج . عائدين إلى طرقهم، الحق أن الطريق من إنسبراك إلى فيينا يعتبر مريحاً نسبياً، دون حوادث جبلية كارثية مثل جبال الألب، وإن لم يكن طريقاً مستقيماً، فهو على الأقل آمناً بما فيه الكفاية حتى يصلوا لقبلتهم. مع ذلك، مزية الأنهار أنها كما الطرقات السائرة، تمضى على قدمها، بخاصة تلك، بغزارتها الشديدة. أكثر المستفيدين من التغيير هو الفيل الذى، ليشرب، فقط عليه أن يقترب من حافة الحوض، يضع زلومته فى الماء ويشفط. رغم ذلك، قد لا يكون مسروراً لو استطاع أن يعلم أن مؤرخاً من المدينة الساحلية بهول، بعد إنسبرك، أى كاتب باسم فرانتس شويجر، سيكتب، عاد ماكسيميليانو بزهو من إسبانيا محضراً معه أيضاً فيلاً له أرجل طولها اثنا عشر متراً، وله لون فئرانى. تعديل سليمان، حسب ما نعرفه عنه، سيكون سريعاً، مباشراً وقاطعاً، ليس الفيل من له لون فئرانى، بل الفأر من له لون فيلى. وقد يردف، احترام أكثر، من فضلك.

مهتزاً على خطى سليمان، ينظف فريتس الجليد الذى يحمله مرصعاً فى حاجبيه ويفكر فيما سيصير عليه مستقبله فى فيينا، هو فيّال، وسيستمر فيّالاً، ولا يمكن أن يكون شيئاً آخر، لكن ذكرى أيامه فى لشبونة، منسياً من كل الناس بعد أن كان سبباً فى ابتهال الرعاع، بما فيهم أبطال القصر، الذين هم رعاع أيضاً بدقة، تجعله يسأل نفسه إن كانوا فى فيينا أيضاً سيدخلونه خلف سياج مع الفيل، متعفناً. شىء ما يجب أن يحدث لنا، يا سالومون، قال، هذه الرحلة كانت فترة فاصلة، والآن بالفعل يُشكر الفيّال سوبهرو على تبديله لاسمك الحقيقى، وسواء كانت سعيدة أم شقية، فهى حياتك التى من أجلها ولدت والتى لا تستطيع الهرب منها، لكننى أنا لم أولد لأكون فيّالاً، وفى الواقع لا أحد يولد ليكون فيّالاً رغم عدم فتح باب آخر له طوال وجوده، فأنا فى داخلى نوع من الطفيلى المنسوب لك، قملة تائهة بين شعر ظهرك الخشن، وأظن أننى لن أحيا حياة طويلة مثلك، فحياة الإنسان أقصر مقارنة بحياة الفيلة، هذا أمر معروف، وأسأل نفسى ماذا عنك بعد رحيلى عن العالم، أيستدعون فيّالاً آخر، بالطبع، لابد أن يعتنى رجل بسليمان ربما تقدم حرم الأرشيدوق نفسها، سيكون أمراً مضحكاً، حرم أرشيدوق تخدم فيلاً، أو أحد الأمراء عندما يكبرون، وبطريقة أو بأخرى، صديقى العزيز، سيكون مستقبلك مؤمناً مضموناً، أنا لا، فأنا الفيّال، طفيلى، ذيل .

متعبين من السير الطويل ـ نصل إلى إنسبرك فى التاريخ المحدد فى التقويم الكاثوليكى، يوم الملوك ـ من عام ألف وخمسمائة واثنين وخمسين. كان للاحتفال رنين ـ كما هو المتوقع ـ فى أول أكبر مدينة نمساوية تستقبل الأرشيدوق . ولا أحد يعرف بشكل جيد جداً إن كان التصفيق من أجله أم من أجل الفيل، لكن ذلك له أهمية ضئيلة بالنسبة إلى إمبراطور المستقبل الذى يعتبر سليمان، فضلاً عن أشياء أخرى، أداة سياسية ذات أهمية أولية، قد لا يمكن أبداً قبولها بغيرة مضحكة. نجاح لقاءات واسنبرج ومولدهورف شىء ناجم عن حضور حيوان لا يزال مجهولاً فى النمسا، كما لو أن ماكسيميليانو الثانى أخرجه من العدم ليرضى رعاياه، من أكثرهم تواضعاً لأكثرهم رفعة. هذا الجزء النهائى من مسيرة الفيل سيشكل، كله، صيحة ابتهال مستمرة ستعبر من مدينة لأخرى مثل البارود، فضلاً عن كونها سبب استلهام لكى يصقلها الفنانون والشعراء من كل مكان مرت به فى لوحاتهم ونقوشهم، فى ميداليات تذكارية، فى تدوينات شعرية مثل تدوينات الإنسانى الشهير كاسبار بروشيس، الموجهة لمجلس بلدية لينز . ولنتحدث عن لينز، حيث ستترك القافلة مراكبها، وزوارقها وأحواضها لقطع ما تبقى فى الطريق، فمن الطبيعى أن يرغب أحد أن يقولوا له لماذا لم يستمر الأرشيدوق فى استخدام الطريق النهرى المريح، حيث إن الدانوب نفسه الذى حملهم إلى لينز يمكنه حملهم أيضاً إلى

فيينا. التفكير بهذه الطريقة سذاجة، أو، فى أسوأ الأحوال، جهل أو عدم إدراك لأهمية دعاية موجهة جيداً فى حياة الأمم بشكل عام وفى السياسة وتجارات أخرى بشكل خاص. فلنتخيل أن ماكسيميليانو أرشيدوق النمسا ارتكب خطأ الهبوط فى الميناء النهرى بفيينا، نعم، سمعتم جيداً، فى الميناء النهرى بالنمسا. رائع، موانئ النهر أو البحر، سواء أكانت كبيرة أم صغيرة، لم يتم تمييزها أبداً بالنظام والخدمة، وعندما تُقدم إلينا بالصدفة تحت هيئة ذات طبيعة منظمة من المناسب أن نعرف أن هذه مجرد واحدة من صور متناقضة ليست قليلة ولا عد لها من الفوضى. فلنتخيل الأرشيدوق هابطاً بكل قافلته، بما فيها الفيل، فى مرفأ مكتظ بالحاويات، بالأجولة من كل نوع، بتموين هذا وذاك، فى وسط قمامة، وجموع مثيرة للهرج والمرج، قل لنا كيف يمكن فتح طريق حتى الوصول إلى الشوارع الجديدة وهناك يتم تجهيز العرض. سيكون دخولاً حزيناً بعد أكثر من ثلاث سنوات من الغياب. ألن يكون كذلك. سيعطى الأرشيدوق أوامره فى مولدهورف إلى مدير الجيش ليبدأ فى إعداد برنامج استقبال فى فيينا على مستوى الحدث، أو الأحداث، فى المقام الأول، كما هو واضح، وصول شخصه وحرمه، فى المقام الثانى وصول معجزة الطبيعة هذا وهو الفيل سليمان، الذى سيبهر أهل فيينا كما أبهر عدداً من الذين بحلقوا فيه فى البرتغال، إسبانيا وإيطاليا، وهما، متحدثان

بإنصاف، ليست بلدانًا وحشية أصلاً . خطابات سريعة توجهت صوب فيينا تحمل تعليمات للعمدة تعبر عن رغبة الأرشيدوق فى مشاهدة كل الحب الذى يحمله هو وحرمه للمدينة مكافئاً فى القلوب وفى الشوارع . وكل لبيب تكفيه وزيادة نصف كلمة. تعليمات أخرى نُقلت، لكنها للاستخدام الداخلى، تشير إلى ملاءمة استغلال الإبحار بنهر الإن والدانوب لاستحمام عام للأفراد والحيوانات، الذين لم يقووا، لأسباب مفهومة، على الاستحمام فى المياه المثلجة، ولابد أن ذلك على الأقل سيكون فعالاً . كان الأرشيدوق وحرمه يزودان كل صباح بكمية كافية من الماء الساخن لاستحمامهما، وهو ما دفع البعض فى القافلة، وهم الأكثر انشغالاً بنظافتهم الشخصية، للهمس مع تنهيدة حزن، لو كنت أرشيدوقاً . لم يكونوا يرغبون فى سلطة الأرشيدوق التى فى يده، ومن المحتمل أنهم لا يعرفون حتى لو امتلكوها ماذا سيفعلون بها، فقط كانوا يريدون ماءً ساخناً، لا يبدو أن لديهم أدنى شك فى فائدته.

عندما هبطوا فى لينز، كان لدى الأرشيدوق أفكار واضحة جداً حول الطريقة الجديدة لتنظيم القافلة ليتلقى أفضل فوائد ممكنة، بخاصة فيما يتعلق بالآثار السيكولوجية لعودته فى نفوس أهل فيينا، رأس المملكة، وبالتالى، مقر الحساسية السياسية الأكثر رهافة. الفرسان المدرعون ـ المقسمون حتى ذلك الحين إلى طليعة ومؤخرة ـ سيتشكلون فى تشكيل

وحيد، فاتحين طريقاً للقافلة. بعدها سيأتى الفيل، وهو ما كان، وعلينا أن نعترف بذلك، لعبة استراتيجية جديدة باسم أليخاين، بخاصة عندما لا نتأخر فى معرفة أن عربة الأرشيدوق ستشغل فقط المكان الثالث فى هذا الترتيب . كان الهدف واضحاً، إعطاء بطولة قصوى لسليمان، وهو ما يحمل كل المعانى فى العالم، فأرشيدوق النمسا وحرمه يعرفان من قبل فى فيينا، بينما فيما يخص الفيلة فهى المرة الأولى . من لينز إلى فيينا قرابة اثنين وثلاثين فرسخاً، سيتوقفان خلالها مرتين حسب التوقعات، مرة فى ميلك والأخرى فى مدينة أمستيتين، حيث سيباتون، وهما مرحلتان يستهدف منهما أن تتمكن القافلة من دخول فيينا فى حالة من النشاط الجسدى المعقول . الطقس ليس مشرقاً، فمازال الجليد يتساقط والريح لم يفقد ذلك الخيط الذى يقطع، لكن، مقارنة بمضيقى إيساركو وبريننير، فهذا الطريق يمكن أن يشبه طريق الفردوس، رغم أنه من المشكوك فيه إن يكون هناك طرق فى هذا المكان السماوى، حيث إن الأرواح، التى تنفذ بالكاد تعليمات الدخول، ستزود فوراً بجناحين، وهى وسيلة التنقل الوحيدة المسموح بها هناك . بعد أمستيتين ليس هناك راحة أخرى . هبط كل أهل القرى إلى الطريق ليشاهدوا الأرشيدوق ووجدوا حيواناً قد سمعوا من تحدثوا عنه بشرود وأنه يثير الفضول المبرر وأكثر التفسيرات عبثية، كما حدث لهذا الشاب الذى، عندما سأل جده لماذا يسمى الفيل

فيلاً، تلقى كإجابة أن لأن له زلومة . ورجل نمساوى، منتمى إلى الطبقات الشعبية، ليس شخصاً يشبه الآخرين، فهو دائماً يجب أن يعرف كل ما يوجد للمعرفة . هناك فكرة أخرى ولدت بين هؤلاء الناس الطيبين، وهكذا بطابع من الحماية اعتدنا أن نقول ذلك، والفكرة هى أنه فى البلد القادم منه الفيل كل الناس لديهم فيل، مثلما يمتلك الناس هنا جواداً، بغلة، أو بشكل كبير حماراً، وأنهم جميعاً أثرياء جداً لكى يستطيعوا أن يطعموا حيواناً بهذا الحجم. والدليل على أن الأمر كذلك امتلكوه عندما فرضت الحاجة الوقوف فى وسط الطريق لإعطاء الطعام لسليمان الذى، لسبب مجهول، لوى أنفه فى الإفطار. فاجتمع من حوله حشد صغير مندهشون من السرعة التى بها، بمساعدة زلومته، أدخل الفيل فى فمه والتهم حزم التبن بعد أن مضغها مضغتين بين أنيابه القديرة التى، لعدم القدرة على رؤيتها من الخارج، كانوا يتخيلونها بسهولة . وبقدر اقترابهم من فيينا كان يُلاحظ، رويداً رويداً، تحسن إلى درجة ما فى حالة الطقس . لا شىء غريب، كان الغمام لا يزال هابطاً، لكن الثلج توقف . قال أحدهم، لو استمر الطقس هكذا، سنصل إلى فيينا والسماء صافية والشمس مشرقة . قد لا يكون بهذه الطريقة تحديداً، مع ذلك، كان سيؤذن ديك آخر فى هذه المسيرة لو أن الطقس العام قد اتبع مثال هذه التى ستكون معروفة ذات يوم بمدينة الفالس . من آن لآخر كانت القافلة مجبرة

على التوقف لأن القرويين والقرويات بالضواحى كانوا يريدون إبراز مواهب الغناء والرقص لديهم، هم من كانوا ينتظرون بشكل خاص حرم الأرشيدوق التى كان زوجها يقاسمها الرضا بطريقة متسامحة، شبه أبوية، كانت تتوافق مع تفكير مشترك جداً، حينها ودائماً، ماذا سنفعل، هكذا هن النساء. أصبحت أبراج وقباب فيينا فى الأفق، وأبواب المدينة كانت مفتوحة على مصراعيها، والناس فى الشوارع والميادين، يرتدون أفضل ما لديهم على شرف الأرشيدوق وحرمه. كان الأمر كذلك فى بلد الوليد عند وصول الفيل، لكن الشعوب الأيبيرية أى شىء يسعدها، فهى كما الأطفال. أما هنا، فى فيينا النمسا، فيزرعون الانضباط والنظام، فهناك شىء ألمانى فى تربيتهم، كما سيتكفل المستقبل بشرح ذلك بشكل أفضل . يدخل المدينة أقصى تعبير عن السلطة العامة وشعور بالاحترام والتوقير الوقتى يبرز بين السكان. مع ذلك، الحياة تمتلك كروتًا كثيرة من ورق الكوتشينة وكثيراً ما تلعب بها عندما تقل توقعاتنا. كان الفيل يسير بخطوته الموزونة، بلا تسرع، خطوة من يعرف أنه من أجل الوصول ليس من الضرورى دوماً أن يركض. وفجأة، قفزت من يد أمها طفلة عمرها خمس سنوات، عرفوا بعد ذلك أن هذا عمرها، وكانت قد حضرت مع أبويها لعرض القافلة، فركضت نحو الفيل. خرجت صرخة رعب من حنجرة كل من انتبه للتراجيديا التى كانت تُعد، أرجل الفيل تقوض وتسحق

الجسد الصغير المسكين، وعودة الأرشيدوق ترتبط بالمصيبة، الحداد، بقعة الدم الرهيبة فى شعار أسلحة المدينة. يظن ذلك من لا يعرف سالومون. فقد ضم بزلومته جسد الطفلة كما لو كان يعانقها ورفعها فى الهواء مثل علم جديد، علم الحياة الناجية فى اللحظة الأخيرة، عندما كانت تضيع. هرول أبوا الطفلة، باكين، حتى سالومون واستلما بين أذرعتهما الطفلة المستردة، المبعوثة، بينما كان الناس أجمعون يصفقون، وليس بقليل منهم من هربت منه دموع عاطفة لا يمكن احتواؤها، وقال بعضهم إن هذه لمعجزة، وهذا دون أن يعلموا أن بمعجزة سالومون فى بادوا، عندما ركع أمام باب كنيسة سان أنطونيو المعظمة . وكما لو كان شىء لا يزال ناقصاً فى حبكة الواقعة الدرامية التى حضرناها فى التو، شاهدنا الأرشيدوق يهبط من عربته، ماداً يده إلى حرمه ليساعدها على النزول أيضاً، ليتوجها معاً، بيدين متشابكتين، حتى الفيل، الذى كان الأشخاص لا يزالون يحيطون ويحتفون به كبطل ذلك اليوم ولفترة طويلة أخرى، حيث ستُحكى آلاف المرات حكاية الفيل الذى أنقذ من الموت طفلة، وستطول الحكاية فى مرات كثيرة، حتى اليوم. وعندما ينتبه الأشخاص لاقتراب الأرشيدوق وحرمه سيسود الصمت وسيُفتح الطريق. كان تأثر عواطفهم واضحاً فى وجوه كثيرة، وكان هناك بعض منهم لا يزالون يجففون دموعهم الأخيرة. هبط فريتس من الفيل وكان ينتظر . توقف الأرشيدوق أمامه، نظر فى عينيه.

أطرق فريتس فوجد أمامه يداً يمنى، مفتوحة ومنتظرة، هى يد الأرشيدوق، سيدى، لا أتجرأ على ذلك، قال وأظهر يديه، المتسختين من الاحتكاك المستمر بجلد الفيل، الذى، رغم كل شىء، كان أنظف من اليدين، لأن فريتس قد نسى أمر الاستحمام العام وأن سليمان لا يمكن أن يرى بركة ماء دون أن يجرى ليتشقلب فيها. ولأن الأرشيدوق لم يسحب يده، لم يجد فريتس حلاً آخر سوى أن يلمسها بيده، الجلد الغليظ والمتصلب لفيّال يلامس الجلد الناعم والرقيق لمن لا يرتدى حتى ملابسه بنفسه. حينئذ قال الأرشيدوق، أشكرك على أنك تفاديت حدوث مأساة. أنا لم أفعل شيئاً يا سيدى، كل الشكر يستحقه سليمان. ربما يكون كذلك، لكننى أتخيل أنك ساعدته فى شىء. فعلت ما استطعت يا سيدى، من أجل هذا أنا فيّال. لو فعل كل العالم ما يستطيع، يقيناً سيصير العالم أفضل . يكفى أن يقول سموكم ذلك لتكون حقيقة. أنت معفو عنك، لست فى حاجة إلى أن تتملقنى. شكراً يا سيدى. مرحباً بك فى فيينا ولتكن فيينا جديرة بك وبسليمان، ستكونان سعيدين هنا. وبهذه الكلمات انصرف الأرشيدوق إلى عربته مصطحباً حرمه من يدها. كانت ابنة كارلوس الخامس حاملاً مرة أخرى.

مات الفيل بعد ذلك بعامين تقريباً، فى شتاء آخر، فى الشهر الأخير من سنة ألف وخمسمائة وثلاثة وخمسين. لم يتوصل أحد لمعرفة سبب الوفاة، فلم يكونوا بعد فى أزمنة تحليل الدم، وأشعة الصدر، ومنظار التجاويف، والرنين المغناطيسى وعمليات أخرى صارت اليوم الخبز اليومى للإنسان، وليست بالدرجة نفسها للحيوانات، التى تموت ببساطة بلا ممرضة تضع يدها على جباهها. وفضلاً عن سلخه، قطعوا رجلى سالومون الأماميتين، بعد عمليات التنظيف والدبغ الضرورية ـ من أجل استخدامهما كأوعية، عند مدخل القصر، لوضع العصى والعكاكيز والشمسيات وقبعات الصيف. وكما نرى، لم ينفع سليمان فى شىء أنه قد ركع . وأخذ الفيّال سوبهرو من يد مدير الجيش الجزء المتبقى له من راتبه، وأضيف إليه، حسب أوامر الأرشيدوق، بقشيشاً كريماً بما فيه الكفاية، وبهذا المال اشترى بغلة خدمته كمطية وحماراً ليحمل عليه صندوق حاجياته القليلة. وأعلن أن قد يعود إلى لشبونة، لكن لا توجد أخبار عن

دخوله البلد. فإما أنه غيّر فكرته، وإما أنه مات فى الطريق .

بعد أسابيع وصل إلى القصر البرتغالى خطابٌ من الأرشيدوق يفيد أن الفيل سليمان قد مات، لكن سكان فيينا أبداً لن ينسوه، فهو قد أنقذ حياة طفلة فى نفس اليوم الذى وصل فيه إلى المدينة. أول قارئ للخطاب كان أمين سر الدولة بدرو دى الكاسوفا كارنيرو، الذى سلمه للملك، فى الوقت نفسه الذى يقول، لقد مات سالومون يا سيدى. قام دُن جوان الثالث بإيماءة مفاجئة وكسا وجهه ظل ألم . أؤمر باستدعاء الملكة، قال. لم تتأخر دُنيا كاتالينا، كما لو كانت قد تنبأت بأن الخطاب يحضر أخباراً تهمها، لعله ميلاد، لعله عرس. لم يكن يبدو أنه ميلاد ولا عرس، فوجه زوجها يحكى حكاية أخرى. همس دُن جوان الثالث، يقول ابن العم ماكسيميليانو هنا إن سالومون . لم تتركه الملكة يكمل جملته. لا أريد أن أعرف، صرخت، لا أريد أن أعرف . وهرولت لتحبس نفسها فى غرفتها، حيث بكت بقية اليوم .

لنثاروتى، أغسطس ٢٠٠٨

صدر من هذه السلسلة

١ ـ «ملكة الصمت» للكاتبة الفرنسية «مارى نيمييه» ـ رواية ـ جائزة ميديسيس.

٢ ـ «فتاة من شارتر» للكاتب الفرنسى «بيير بيجى» ـ رواية ـ جائزة «إنتر».

٣ ـ «موال البيات والنوم» للكاتب المصرى «خيرى شلبى» ـ رواية ـ جائزة الدولة التقديرية.

٤ ـ «أوائل زيارات الدهشة» للشاعر المصرى «محمد عفيفى مطر» ـ سيرة ذاتية ـ جائزة «سلطان العويس».

٥ ـ «اللمس» للكاتبة السعودية «ملحة عبدالله» ـ مسرح ـ جائزة «أبها».

٦ ـ «عاشوا فى حياتى» للكاتب المصرى «أنيس منصور» ـ سيرة ذاتية ـ «جائزة مبارك».

٧ ـ «قبلة الحياة» للكاتب المصرى «فؤاد قنديل» ـ رواية ـ «جائزة التفوق».

٨ ـ «ليلة الحنة» للكاتبة المصرية «فتحية العسال» ـ مسرح ـ «جائزة التفوق».

٩ ـ العاشقات ـ للكاتبة النمساوية «إلفريدة يلينك» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

١٠ ـ نوّة الكرم، للكاتبة المصرية نجوى شعبان، رواية، «جائزة الدولة التشجيعية».

١١- «الفسكونت المشطور» للكاتب الإيطالى ـ إيتالوكالڤينو. رواية (عدد خاص) جائزة «فياريچيو».

١٢- القلعة البيضاء / للكاتب التركى أورهان باموق ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

١٣ - أين تذهب طيور المحيط/ للكاتب المصرى إبراهيم عبدالمجيد ـ أدب رحلات - «جائزة التفوق».

١٤ ـ قرية ظالمة / للكاتب المصرى محمد كامل حسين ـ عدد خاص ـ «جائزة الدولة للأدب».

١٥ ـ الرجل البطىء / للكاتب الجنوب أفريقى ج . م . كوتسى ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

١٦ ـ طحالب / للكاتبة الجنوب إفريقية مارى واطسون ـ متتالية قصصية / «جائزة كين» .

١٧ ـ شوشا / للكاتب البولندى اسحق باشيفيس سنجر/ رواية / «جائزة نوبل».

١٨ - شارع ميجل/ للكاتب من ترينداد/ ف. س. نايبول. رواية/ «جائزة نوبل».

١٩ ـ الحياة الجديدة ـ للكاتب التركى «أورهان باموق» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

٢٠ ـ عشر مسرحيات مختارة ـ للكاتب الإنجليزى «هارولد بنتر» ـ مسرح ـ «جائزة نوبل».

٢١ ـ الآخر مثلى - للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو» - رواية - «جائزة نوبل».

٢٢ ـ المستبعدون ـ للكاتبة النمساوية «إلفريدة يلينك» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

٢٣ ـ الأنثى كنوع ـ للكتابة الأمريكية «جويس كارول أوتس» ـ قصص ـ «جائزة بن مالامود».

٢٤ ـ ثلاثة أيام عند أمى ـ للكاتب الفرنسى «فرانسوا فايرجان» ـ رواية ـ «جائزة الجونكور».

٢٥ ـ اسطنبول.. الذكريات والمدينة.. للكاتب التركى «أورهان باموق».. «جائزة نوبل».

٢٦ ـ الطوف الحجرى.. للكاتب البرتغالى «جوسيه سارامارجو».. رواية.. «جائزة نوبل».

٢٧ ـ نار وريبة.. للكاتبة الألمانية «بريجيتّه كروناور» مختارات جائزة «چورج بوشنر الكبرى».

٢٨ ـ الذكريات الصغيرة.. للكاتب البرتغالى «جوسيه ساراماجو» .. سيرة ذاتية.. «جائزة نوبل».

٢٩ ـ إليزابيث كُستّلّو.. للكاتب الجنوب إفريقى ج. م. كوتسى .. رواية.. «جائزة نوبل».

٣٠ ـ السيدة ميلانى والسيدة مارتا والسيدة جيرترود.. للكاتبة الألمانية بريچيته كروناور .. قصص.. «جائزة چورج بوشنر الكبرى».

٣١ ـ حين تقطعت الأوصال .. للكاتبة المكسيكية أمبارو دابيللا.. قصص.. «جائزة بيربياروبيا».

٣٢- مارتش.. للكاتبة الأمريكية «جيرالدين بروكس» رواية.. «جائزة البوليتزر».

٣٣ - اغتنم الفرصة.. للكاتب الكندى «سول بيللو».. رواية.. «جائزة نوبل للآداب».

٣٤ - البصيرة.. للكاتب البرتغالى «جوسيه ساراماجو».. رواية.. «جائزة نوبل».

٣٥ - بريك لين.. للكاتبة الإنجليزية البنغالية.. «مونيكا على».. رواية.. «جائزة البوكر».

٣٦- بريد بغداد.. للكاتب التشيلى «خوسيه ميجيل باراس».. رواية.. «الجائزة الوطنية للآداب».

٣٧ - عن الجمال.. للكاتبة البريطانية «زادى سميث» رواية.. «جائزة الأورانج».

٣٨ - العار.. للكاتب الجنوب إفريقي ج. م. كوتسى.. رواية.. «جائزة نوبل».

٣٩ - قبلات سينمائية.. للكاتب الفرنسى إيريك فوتورينو.. رواية.. «جائزة الفيمينا».

٤٠ ـ هكذا كانت الوحدة.. للكاتب الإسبانى خوان خوسيه مياس.. رواية.. «جائزة نادال».

٤١ ـ الشلالات.. للكاتبة الأمريكية چويس كارول أوتس.. رواية.. «جائزة الفيمينا».

٤٢ ـ العشب يغنى.. للكاتبة الإنجليزية دوريس ليسنج.. رواية.. «جائزة نوبل».

٤٣ ـ العالم.. للكاتب الإسبانى خوان خوسيه مياس.. رواية.. «جائزة بلانيتا».

٤٤ ـ ميراث الخسارة.. للكاتبة الهندية كيران ديساى.. ر واية.. «جائزة البوكر».

٤٥ ـ الطفل الخامس.. للكاتبة الإنجليزية دوريس ليسنج.. رواية.. «جائزة نوبل».

٤٦ ـ بن يجوب العالم.. للكاتبة الإنجليزية دوريس ليسنج.. رواية.. «جائزة نوبل».

٤٧ ـ ثورة الأرض.. للكاتب البرتغالى جوزيه ساراماجو.. رواية.. «جائزة نوبل».

٤٨ ـ ملك أفغانستان لم يزوجنا.. للكاتبة الفرنسية انجريد توبوا.. رواية.. «جائزة الرواية الأولى فى فرنسا».

٤٩ ـ الكهف.. للكاتب البرتغالى جوزيه ساراماجو.. رواية.. «جائزة نوبل».

٥٠ ـ يوميات عام سئ.. للكاتب الجنوب إفريقى ج.م كوتسى.. رواية.. «جائزة نوبل».

٥١ ـ كازانوفا.. للكاتب الإنجليزى أندرو ميللر.. رواية.

٥٢ ـ إنقطاعات الموت.. للكاتب البرتغالى جوزيه ساراماجو.. رواية.. «جائزة نوبل».

٥٣ ـ العم الصغير.. للكاتب الألمانى شيركو فتّاح.. رواية.. «جائزة هيلده دومين لأدب فى المنفى».

٥٤ ـ اللعب مع النمر.. للكاتبة الانجليزية دوريس ليسنج.. مسرح.. «جائزة نوبل».

٥٥ ـ فى أرضٍ على الحدود.. للكاتب الألمانى شيركو فتّاح.. رواية.. «جائزة نظرات أدبية».

٥٦ ـ الإرهابية الطيبة.. للكاتبة الإنجليزية دوريس ليسنج.. رواية.. جائزة نوبل.

٥٧ ـ المسرحيات الكبرى جـ١ .. للكاتب الإنجليزى «هارولد بنتر» .. مسرح.. جائزة نوبل.

٥٨ ـ المسرحيات الكبرى جـ ٢ .. للكاتب الإنجليزى «هارولد بنتر».. مسرح.. جائزة نوبل.

٥٩ ـ نصف شمس صفراء.. للكاتبة النيجيرية «تشيماماندا نجوزى آديتشى» .. رواية.. جائزة الأورانج.

٦٠ ـ مذكرات چين سومرز «مذكرات جارة طيبة».. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

٦١ ـ مذكرات چين سومرز «إن العجوز استطاعت».. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

٦٢ ـ الحوت.. للكاتب الفرنسى «جان مارى جوستاف لوكليزيو».. رواية..جائزة نوبل.

٦٣ ـ رقة الذئاب.. للكاتبة الأسكتلندية «ستيف بينى».. رواية.. جائزة كوستا.

٦٤ ـ رحلة العم ما.. للكاتب الجابونى «چان ديڤاسا نياما».. رواية.. جائزة الأدب الكبرى لأفريقيا السوداء.

يصدر قريباً من هذه السلسلة

١ـ كرسى النسر.. كارلوس فوينتيس.. جائزة سرفانتيس ١٩٨٦.

٢ ـ الحبُ المدمر.. دى واى بيشارد.. جائزة الكومنولث ٢٠٠٧.

٣ ـ داي.. أ.ل. كيندى.. جائزة كوستا ٢٠٠٧.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
ص. ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس
www. egyptianbook org.eg
E - mail : info@egyptian.org.eg

الرواية

يستوحى "ساراماجو" روايته "مسيرة الفيل" من واقعة مشهورة تاريخيًا حدثت فى القرن السادس عشر، عندما قام ملك البرتغال عام ١٥٦١ بإهداء صهر الإمبراطور "شارل كوينت" أرشيدوق النمسا فيلاً ضخمًا يدعى "سالمون". فبدأ بخرطومه الضخم، الذى يمتد على ظهره رحلة طويلة مارًا بأراض لم تطأها أقدام بشر. ليظل "سالمون" هو البطل الحقيقى لهذه الرواية ويصير بمسيرته تلك رمزًا حيًا ودالاً لأوروبا التى كانت فريسة للصراعات وانتشار محاكم التفتيش.

الروائى: جوزيه ساراماجو الكاتب البرتغالى.

الجائزة: جائزة نوبل للآداب ١٩٩٨.







الهيئة المص...



ISBN# 9789774216022

١٠ جنيهات